الشيخ علي الطنطاوي

رجال من التاريخ



الجزء الأول

دار البشير

الطبعة الأولى بمصر

1418 هـ - 1998 م

• الكتـــاب : رجال من التاريخ - جـ 1 .

• الكـاتـب : على الطنطاوى.

• النشر والتوزيع: دار البشير للثقافة - دار المنارة - جدة .

تليفاكس 302404 ، 308909 ☎ 210907 - 228277

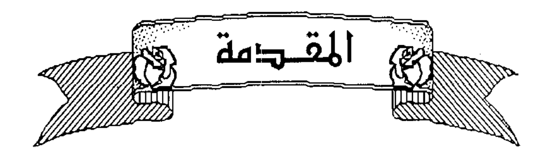
• التجهيز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية .المحلة الكبرى .منشية البكرى

ص . ب265 تليفاكس : 228277

• الإيداع القانونى : 15197 / 1997.

• الترقيم الدولى :9 - 056 - 278 - 977 .

• تصميم الغلاف : الفنان / عطية الزهيرى



كل ما فى هذا الكتاب بقية من أحاديث كانت تذاع لى من دمشق قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة . استمرت إذاعتها أعواماً، تعبت فى إعدادها كثيراً ، واستمتع بها واستفاد منها (من السامعين) كثير ، بلغت ثلاثمائة حديث أو تزيد ، ضاعت فيما ضاع مما كتبت ، وأرجو ألا يضيع عند الله ثوابها ، إن كتب الله لى بكرمه الثواب عليها .

كنت إذا أردت الحديث عن رجل ، قرأت كل ما تصل إليه يدى مما كتب عنه ، وقيدت فى ورقة ما أختار من أخباره ، وربما بلغ ما أقرؤه عنه عشرات أو مئات من الصفحات ، ثم أعمد إلى خبر منها ، فأجعله مدخلاً إليها، وأحاول ما استطعت أن أتبع فيها أسلوباً ينأى بى عن جفاف السرد التاريخى ، ويخلص من تخيل الكاتب فى القصة الأدبية ، لعلى أصل إلى الجمع بين صدق التاريخ وجمال الأدب ، فأوفق حيناً ، ويجانبنى حينا التوفيق .

وكنت كلما أعددت (حديثاً) عن رجل من الرجال ، فتح لى الباب للكلام على أقرانه وأمثاله ، فحديث عن صلاح الدين يجر إلى آخر عن نور الدين ، وحديث عن أبى حنيفة يدفعنى إلى آخر عن مالك ، ولو أنى استمررت أحدث عن أبطالنا وعظمائنا خمسين سنة ، فى كل أسبوع حديثاً ، وجاء مائة مثلى يصنعون مثل صنعى ، لما نفدت أحاديث هؤلاء العظماء الأبطال ، وأنا لست من المولعين بجمع الكتب ، ورصها فى الخزائن لأزهى بها ، وأفخر بكثرتها ، ولا أقتنى إلا الكتاب الذى أحتاج إليه ، أرجو النفع به ،

أو المتعة بقراءته ، وقد اجتمع لى ـ على هذا ـ فى مكتبتى الصغيرة ، هنا وفى دمشق ، أكثر من تسعين مجلدة فى تراجم الرجال والنساء ، فلو أن فى كل واحدة منها سيرة مائة منهم ، لكان من ذلك تسعة آلاف من سير العظماء

ومن نظر فى مقدمة الطبعة الثانية من كتابى (قصص من التاريخ) لقرأ فيها هذه الفقرة التى أعيد نشرها هنا بعد كتابتها بنحو نصف قرن ، قلت فيها :

(إن فى كتب التاريخ والأدب ، والمحاضرات والرحلات ، آلافًا من سير العظماء ليست فى كتب التراجم على كثرتها .

من ذلك أننى كنت أتسلى مرة بالنظر فى (رحلة ابن بطوطة) فاستخلصت منها تراجم كثيرين ، منهم السلطان المسلم العادل طرمشيرين من حفدة جنكيزخان المسلمين ، وكان يحكم مملكة واسعة المدى ، مترامية الأطراف ، كثيرة الجيوش ، واسعة الخيرات . فهل سمعتم باسم طرمشيرين ؟ وهل سمعتم بمن حكم روسية من ملوك المسلمين ، وكان لهم فيها حكومة عظيمة القدر ، عاشت حينًا من الدهر ، كانت تسمى دولة البلغار ، وكانت عاصمتها بقرب « ستالينغراد » ؟ .

ولن أسرد عليكم كل ما قلت فيها ، فارجعوا إن شئتم إليه ، تَطَلَّعوا عليه .

ولما كتب لى أن أزور القارة الهندية ، وأندونيسيا ، رأيت للمسلمين فيها تاريخًا ما كنت أعرفه ، ولا كان مما يدرس فى المدارس ، ولا مما يوجد فى الكتب التى اطلعنا عليها . تاريخاً ينتظر الباحث المخلص الذى يحيط به ، والقلم البليغ الذى يكتبه ، وفى هذا الكتاب مثال صغير عليه فى سيرة : الملك الصالح (228) ، ومن نظر فى كتابى عن أندونيسيا ، وقرأ قصة دخول الإسلام إليها ، لرأى فيها شاهداً آخر على ما أقول .

***

والعجب ممن يزعم أن الإسلام إنما انتشر بالسيف ، هل كان مع الرسول ـ ﷺ ـ في مكة سيف ؟ والمجتمع الإسلامي الأول ، الذى كان فيه مع محمد أبو بكر وعلى وخديجة وسلمان وصهيب وبلال ، وآخرون ممن شرفهم الله بالسبق إلى الإسلام ، هل كان معهم سيف ؟ !

هل تنبهتم إلى أسمائهم ؟ هل أدركتم الرمز الذى تشير إليه ؟ لقد مثل فيه الرجال بأبى بكر ، والنساء بخديجة ، والأولاد بعلى ، وهل المجتمعات إلا رجال ونساء وأولاد ؟ ومثل فيه العرب بهؤلاء ، والفرس بسلمان ، والحبشة ببلال ، والروم بصهيب ، وهؤلاء هم قطان هذه البقعة من الأرض .

الإسلام انتشر بالسيف ! إنها دعوى بلا دليل ، والدليل القائم ، عليها لا معها ، انشروا مصور العالم الإسلامى وانظروا ، هل البلاد التى دخل إليها الإسلام عن طريق الفتح أكبر وأوسع وأكثر سكاناً ، أم البلاد التى دخلها بعد انقضاء عهد الفتوح ، وانطواء راياته ، ولا يزال يدخل إلى اليوم بلاداً جديدة ؟

هل وصلت الفتوح إلى أندونيسيا وماليزيا وأواسط إفريقية ؟ وهل بلغت كوريا واليابان ، أم انتشر فيها الإسلام وحده ؟

وهل أكره الفاتحون الأولون أحداً على الإسلام ؟ لقد عرف التاريخ قواداً فاتحين ، كالإسكندر ، وجنكيز ، وبونابرت ، وهتلر ، وأمثال لهم كثير ، فأين الآن ما فتحوه ؟

لقد كان زيتًا صببته على ماء ، وهززته هزاً حتى حسبته قد مازجه وخالطه وصار معه سائلاً واحداً ، فلما بطل الهز عاد الزيت زيتا والماء ماءً . بقى فى البلاد غالبون ومغلوبون ، مفتوحة بلادهم وفاتحون .

أما الفتح الإسلامى فقد كان كاختلاط الماء بالخل ، صبّ ماءً على الخل

ثم انظر هل تقدر أن تفصل الخل عن الماء ؟ هذه الشام ومصر والعراق والبلاد التى بلغها الفتح هل تميّز فيها الآن أبناء الجند الفاتحين ، من أبناء البلاد الأولين ؟

لقد جعلهم الإسلام أمة واحدة ، ليست أمة العرب ، ولا أمة الفرس ، ولا أمة الترك ، ولكن أمة محمد ـ ﷺ ـ ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : 10]

الإسلام انتشر بالسيف ! إنها مقالة جاهل بالطبع البشرى ، على قائلها أن يخجل منها وأن يتوارى بها .

إن الإسلام عقيدة ، والعقيدة مزيج من عقل وعاطفة ، فمن سمع أن العاطفة تجيء بالقوة والبطش ؟ إذا فَرِكَتْك امرأتك (أى كرهتك) فهل تحمل العصا فتقول لها إما أن تحبينى وإما أن أكسر أضلاعك ؟ وهل تحسبها تحبك بالإكراه ؟ ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : 256] . لقد عرف التاريخ حكامًا طغاة جبارين ، يكرهون الناس حتى يكونوا لهم تابعين طائعين ، يخضعون أجسادهم وجوارحهم حتى يعملوا لهم ما يريدون ، ولكن هل يستطيعون إخضاع قلوبهم ، حتى تمتلئ بحبهم ؟ وعقولهم حتى ترى الحق معهم ؟

أقمت فى أندونيسيا شهراً ، نهارى فيه مع العلماء والأدباء ، وسهرى فى المحاضرات والندوات ، زرت الجامعات والمكتبات ، ووقفت فى آخر جزيرة « جاوه » على قبر الرجل الذى حمل الإسلام إلى هذه البلاد واسمه إبراهيم ، وهم يعظمونه فيقولون : (سلطان إبراهيم) .

فمن إبراهيم هذا ؟ ما وجدت ممن لقيت من الناس ، ولا فيما قرأت من الكتب من عرف من هو ولا من أين جاء . فكيف إذن دخلت هذه البلاد فى الإسلام ، حتى صار فيها اليوم دولة سكانها اليوم مائة وخمسون مليوناً ، كلهم

مسلم بالقيد الرسمى ، مسلم بالإحصاء الجغرافى ، نسأل الله أن يخلصها من مكر الملحدين ، والبانجاسيلا (المبادئ الخمسة) التى جاؤوا بها بدلاً من الأركان الخمسة للدين ، ومن كيد المكفِّرين المنفِّرين المنصِّرين الذين يدعون افتراء بالمبشرين .

إن فى تاريخ الإسلام فى أندونيسيا رجالاً أبطالا ، ما تعرفونهم ولا سمعتم بهم .

إن عنوان (رجال من التاريخ) يمكن أن يجتمع تحته كتاب من خمسمائة مجلد . نعم وأكثر من ذلك ، لا أبالغ ، ولا ألقى القول جزافاً ، صدقونى .

إن تاريخنا أعظم تاريخ ، ولكننا أمة تجهل تاريخها . هذا التاريخ الذى ليس لأمة مثله ، هذا التاريخ الذى يفيض بالحب ، والنبل والتضحية والبطولة والإيمان .

ولست أعنى التاريخ السياسى وحده ، بل التاريخ العلمى أولا . تاريخ القوم الذين باعوا نفوسهم مجاهدين فى ميدان الطروس ، بأسنة الأقلام ، وهجروا لذلك لذائذهم ، ونسوا حاجات بطونهم وغرائزهم ، واطرحوا رغبات الغنى والجاه ، وكل ما يتزاحم عليه الناس ، واستهانوا فى سبيله بكل صعب ، حتى أنهم كانوا يرحلون الإبل أربعين ليلة من مشرق الأرض من خراسان ، أو من مغربها فى الأندلس ، إلى مكة أو المدينة أو الشام أو مصر أو بغداد، فى طلب مسألة مفردة ، أو حديث واحد . أحرقوا أدمغتهم فجعلوها مشاعل للقرون الآتيات ، فسارت البشرية على ضوئها . كانوا فى عصر الحكمُ فيه حكم مطلق ، وكانت حياة الناس معلقة بكلمة ينطق بها الحاكم ، فاستطاعوا أن يجعلوا لأنفسهم بإيمانهم وعدالتهم وأخلاقهم حصانة دونها

الحصانة التى يعتز بها القضاء ويكفلها لهم القانون الآن [1] ، تاريخ المجاهدين الذين خرجوا من بيوتهم ، وفارقوا أهليهم وخلفوا دنياهم وراء ظهرانيهم ، أداء لحق الله وإعلاء لكلمة الله ، ما كانوا عادين ولا باغين ، ما كانت حربهم حرباً هجومية ولا حربا دفاعية كما نفهم اليوم من كلمة الدفاع ، فما كانت دفاعا عن أرض ولا احتل الفرس أو الروم المدينة أو مكة ، فنهدنا [2] ندافع عنها ، إنما هى حرب دفاع عن العقيدة .

أرأيتم الجائعين فى أفريقية ، الذين تسمعون أنباءهم فى الإذاعات ، وتقرؤونها فى الجرائد . . . إذا جاء من يحمل إليهم الماء والغذاء والدواء ، وما يدفع عنهم البلاء ، فوقف ظالم فى طريقه يمنعه أن يوصل ذلك إليهم ، يريد أن يميتهم فى دورهم حتى تصير هى قبورهم .

ألا تقاتله ؟

هذا ما صنع المسلمون المجاهدون . نزل عليهم المصباح الهادى فى (حراء) والدنيا تتخبط فى الظلماء ، فحملناه لينير لهم طريقهم ، فاعترضنا من يمنعنا .

قلنا : تعال فاحمل النور معنا ، تكن منا ، لك ما لنا وعليك ما علينا . قال: لا .

قلنا : فدعنا نمر ونحن نحميك من عدوك ، ونرد عنك من يعتدى عليك ، ونبذل نحن أرواحنا دونك ، لا نريد منك إلا أجرة يسيرة من مالك ، مقابل ما نبذل من دمائنا ، قال : لا .

---

(1) فقرة من مقدمة (قصص من التاريخ) .
(2) نهد : أى نهض .

فما الذى نصنعه معه إلا أن نقاتله ؟ هذا هو الجهاد .

إن تاريخنا السياسى أنظف من كل ما يماثله من تواريخ الأمم ، ولا يخلو ـ على ذلك ـ من أمور لا يحسن أن ننشئ عليها أولادنا ، أمور تقضيها طبيعة البشر الذين يخطئون ويصيبون ، ويحسنون ويسيئون ، ليسوا ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

حتى المجتمع الذى كان أسمى مجتمع بشرى ، الذى كان (ظاهرة) لم تُسْبق ولم تتكرر ، مجتمع الصحابة لم يَخْلُ من منازعات ومصادمات لم يتعمدها الصحابة ، ولكن من دس الدسائس بينهم ، وفرق بالكذب جمعهم . فلماذا ندرسها لأولادنا ؟ لماذا ، وقد كره علماؤنا الخوض فيها ؟ وكيف نسمح لمدرس غر قد يكون قليل الدين ، أن يقيم من نفسه حكمًا بين عائشة أم المؤمنين وعلى أمير المؤمنين ؟

تقولون : ما الحل ؟ لقد بصرت بالحل أيام الوحدة لما كنت قاضى دمشق ، ورئيس عمدة المدارس الشرعية التى تديرها الأوقاف [1] ، وكتبت بذلك إلى الوزير [2] ، فكلفنى وضع مناهج جديدة لهذه المدارس ، فوضعتها وأحدثت فيها أموراً ، كان منها : أنى رفعت من المنهج التاريخ السياسى ووضعت مكانه مادة سميتها : (أعلام الإسلام) . ندرس فيها مناقب العظماء ، ونكشف عن مواطن العظمة فيهم ، وأمضى الوزير ما اقترحت ، وأحسب أنه لا يزال باقياً إلى الآن .

أنا مدمن القراءة يومى كله إلا ساعات العمل ، أمضيه فى المطالعة ومحادثة الكتب ، من يوم أتقنت القراءة ، قبل سبعين سنة ، وأنا أقرأ . وأكثر

(1) أى رئيس مجلسها الأعلى .
(2) عبد الحميد السراج .

ما أولعت به التاريخ ، وذلك بعد إقامة لسانى بتعلم العربية ، وضمان آخرتى - وما تضمن إلا برحمة منه - بمعرفة الشرع . فأنا أقرأ كل ما أصل إليه من تواريخ العرب وغيرهم ، ومن المذكرات والرحلات والمشاهدات ، ولقد كتبت كتاب (قصص من التاريخ) وما ضمّ كل ما كتبت ، (ورجال من التاريخ) و (حكايات من التاريخ) التى حسب قوم أنى كتبتها للأطفال فعدوها من أدب الأطفال ، مع أنى لم أكتبها لهم ، وأسلوبها يعلو - كثيراً - عن أفهامهم .

بدأت بهذه الأنواع كلها من سنة 1930 من حين كنت (محرراً) فى جريدة (فتى العرب) ، بل لقد بدأت ، فى الفتح والزهراء سنة 1347 هـ ، وهذا الكتاب ثمرة باقية ، مما فقد .

وهذه هى الطبعة السابعة (الشرعية) لهذا الكتاب . أما الطبعات المسروقة فلا أحصيها . ومن اقترفها فسيجد عند الله حسابها .

وقد وقفت أنا على طبعها ، وعدلت فيها ، وزدت عليها شيئاً لم ينشر من قبل فى مجلة ولا صحيفة ولا كتاب ، بل لم يذع من الإذاعة ، لأنه لم يكمل ، وقد آثرت أن أنشره ناقصاً قبل أن يضيع .

وليس لأحد فى هذا الكتاب ولا فى غيره من كتبى حق من حقوق الطبع ، ومن ادعى ذلك كان كاذباً .

وكل طبعة آذن بها ويمر عليها الوقت الذى تنفد فيه عادة وعرفاً يسقط حق المأذون له فيها . أقول هذا لمَا فشا من عدوان بعض الناشرين على المؤلفين ، لا يردعهم عنه الدين ، ولا الخُلق المتين ، حتى صار همهم دنياهم لا يفكرون إلا فيها . ولا يحرصون إلا عليها ، يلبسون للمؤلف عندما يلقونه جلد الحمل

الوديع ، فإذا صار الكتاب فى أيديهم ، خلعوه فبدا من تحته شعر الذئب الكاسر ، وهذه تذكرة لمن شاء أن يذّكر ، ما سميت فيها أحداً ولا أشرت إلى أحد .

أما أنا فإن خسرت بهذا العدوان بعض المال فقد أبقى الله لى منه ما يكفينى وسآخذ حقى يوم أكون محتاجاً إليه ، لا من ريالات المعتدى ودولاراته ، بل من حسناته التى هى وحدها الطريق يومئذ إلى نجاته .

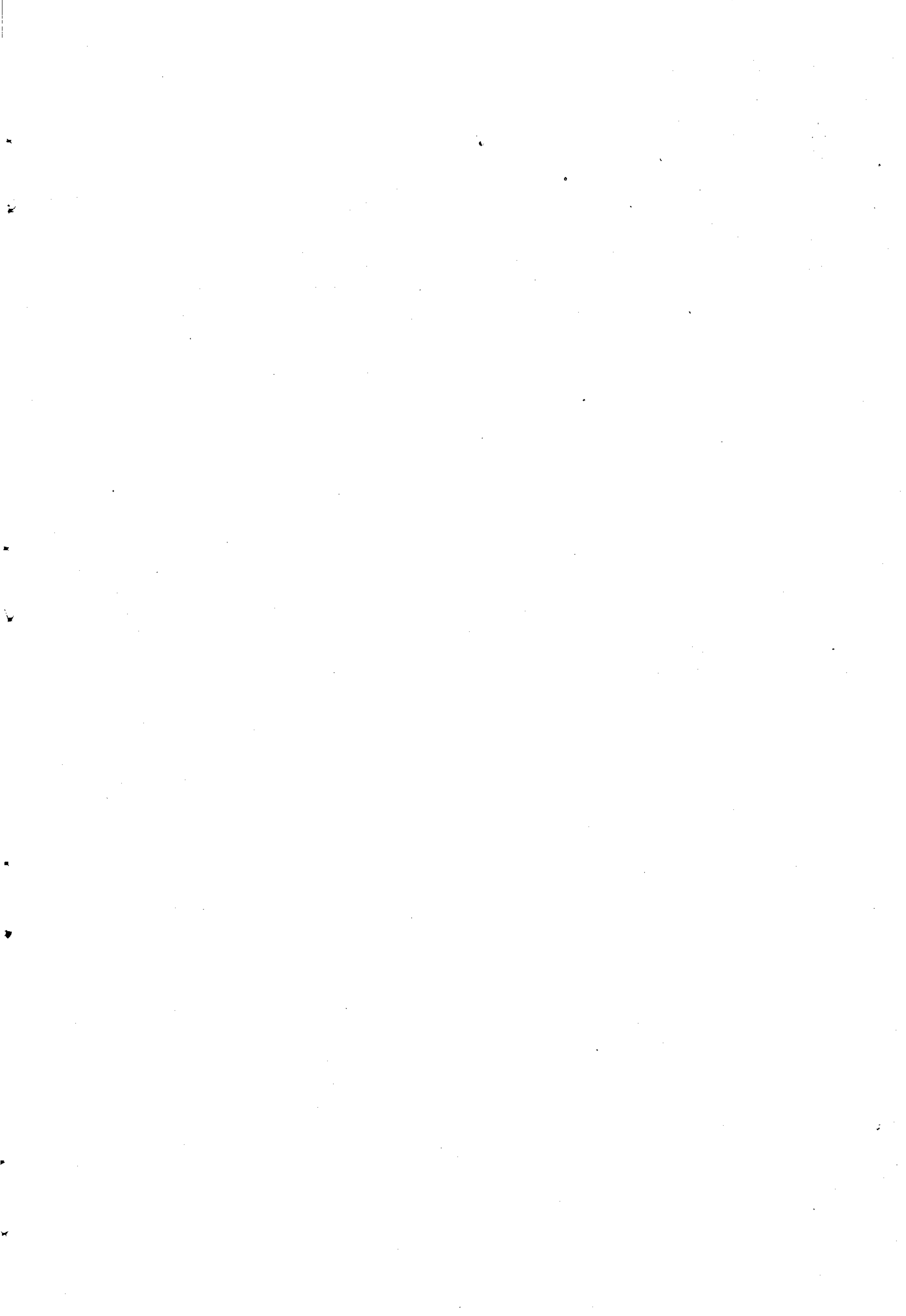
نسأل الله أن يحيى قلوبنا ، حتى نراقب ربنا ، ونذكر آخرتنا ، وأن يهدينا جميعاً : الناشرين والمؤلفين .

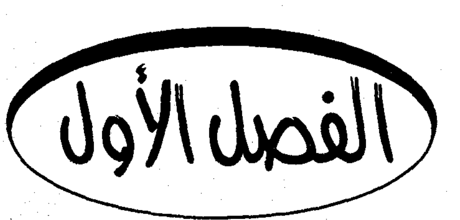
أما (دار المنارة) التى تنشر هذا الكتاب اليوم ، فهى منِّى ليست غريبة عنى ، وصاحبها ديِّن أمين على حين قلَّت فى الناس الأمانة ، وأنا لا أزكِّيه على الله ولكن أزكِّيه للناس . وأنا أعلم أنَّ هذه التزكية شهادة أنا مسؤول عنها .

أمَّا جودة الطبع ونفاسة الورق وحسن الإخراج فإنك تراه أمامك .

وبعد : فما أردتها مقدمة للكتاب ، ولكن تعريفًا بهذه الطبعة استرسل فيه القلم ، وانبسط المجال فطال المقال .

على الطنطاوى





- سيد رجال التاريخ 1
- سيد رجال التاريخ 2
- معلمة الرجال
- سيدة جليلة

من سيدات المجتمع الإسلامى

سَيّدُ رجَال التاريخ

❊ من صور الهجرة ❊

نحن الآن فى مكة والحرب قائمة بين التوحيد والشرك ، بين الإصلاح والجمود ، بين محمد وقريش ، وبذلت قريش قوَّتها ، وبذلت قريش مالها ، وقدمت دنياها كلها ، فى شىء واحد : هو أن تمنع هذاالخير عن الدنيا .

قال محمد : « **افتحوا لى الطريق لأخرج إلى الأرض الفضاء ، فأنصر الضعيف،وأنجد المظلوم ، وأعيد للبشرية كرامتها ، وللعقل سلطانه** » ، قالوا : لا

قال : « **افسحوا لرسالتى لتنطلق فى الزمان ، فإنها ليست لبلد واحد ، ولا ليوم واحد** » ، قالوا : لا ! ولكن تعال نملكك إن شئت علينا ، ونمنحك أموالنا ونجعلك سيِّد هذا البلد كلهُ . وسخر التاريخ من قريش . . . يدعوهم محمد ليعطيهم سيادة الأرض ، وزعامة الدنيا ، ويضع فى أيديهم مفاتيح الكنوز : كنوز المال ، وكنوز العلم ، ويمنحهم ما يملك كسرى وقيصر ، وهم يدعونه ليعطوه إمارة هذه القرية ، النائمة بين جبلين ، ووراء رمال الصحراء .

وانطلقوا يؤذونه ، ويتوعدونه ، لعلَّ الترهيب يفعل فيه ما لم يفعل الترغيب . رموا فى طريقه الشوك وهو ماش ، وألقوا عليه أحشاء الناقة وهو ساجد ، ورموه فى الطائف بالحجارة وأسالوا دمه ، وهزءوا به ، وسلطوا عليه سفهاءهم .

فلم يثر هذا كله غضبه ولكن أثار إشفاقه ، إشفاق الكبير على الأطفال

المؤذين ، والعاقل على المجانين ، وكان جوابه : « **اللهمَّ اهد قومى فإنَّهم لا يعلمون** » .

ولم يصرفه عن وجهته شيء ، إلاَّ إن صرف القمر عن مسيرة فى قبَّة الفلك زرَّ ردة تلقيه عليه ، أو حجر ترميه به .

وآذوا المسلمين الأولين ليفتنوهم عن دينهم ، وعذبوهم ، وكانوا يبطحون المسلم عارياً على الرمال الملتهبة التى يشوى عليها اللحم ، ويضعون عليه الصخرة الهائلة ، ويلوِّحون له بالماء ، ويقولون : اكفر برب محمد حتى نسقيك وننجيك . فيقول : أحد ! أحد ! .

وتشغله لذَّة المفاجأة ، عن لذعة العذاب ، ونشوة الأمل بالجنَّة ، ، عن شقوة الألم فى الدنيا .

احتملوا فى سبيل الله كل شيء ، الضرب ، و الجرح ، والحرق ، والجوع ، والسهر ، واستحلَوا فى سبيل الله المرائر ، واستحبوا أبغض المكاره إلى النفوس إن كان فيها رضا الله .

ودعاهم الرسول إلى ما هو أشد من هذا كله ، إلى فراق الوطن ، وترك الأهل ، وأن يمشوا فراراً بدينهم إلى بلاد ليسوا منها ، وليست منهم ، ولا لسانها لسانهم ، ولا دينها دينهم ، إلى الحبشة يجاورون فيها النصارى ، ونصارى الحبشة أولى بهم من مشركى العرب ، ولتجدن أقرب الناس مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى (1) ، فخرجوا من منازلهم وهجروا أهليهم ، ومشوا إلى الحبشة فلحقهم أذى قريش إلى الحبشة .

وأوغلت قريش فى كفرها وصدِّها وعنادها ، ولكن هل تقدر قريش أن تطفيء نور الله ؟

(1) اقرأ الآية كاملة واعرف سبب نزولها تعرف من هم النصارى المقصودون .

إن البخار الذى من طبعه الانطلاق إلى العلاء لا يحصر فى زجاجة ، وإن حصرته وجد منفذاً أو مزق الإناء ، وكذلك صنع الإسلام .

وهاجر المسلمون مرَّة ثانية ولكنها هجرة إلى ديار عربية ، إلى قرية قدر لها أن تبقى الدهر خاملة ضائعة وراء الرمال ، حتى تتشرف بمحمد ، فإذا هى أم المدائن ، وعاصمة العواصم ، منها تبع عيون الخير والهدى لتسيح فى الأرض ، فتسقيها وتعمها بالخيرات ، وإليها تنصب أنهار الملك والغنى والسلطان من كل مكان .

هاجر المسلمون جميعاً ولم يبق فى مكة إلا النبى ورجلان اثنان مرافقه فى السفر ، ووكيله فى مكة . رجلان كانا أول من أسلم . وآخر من هاجر : سيد الكهول أبو بكر وسيد الشباب علىّ .

تأخر محمد كما يتأخر الربان الشريف على ظهر الباخرة الميئوس منها فلا ينزل حتى ينزل الركاب جميعاً .

وكما يتأخر الراعى الأمين ، عند المفازة فلا يجوز حتى يجوز القطيع كله .

تأخر يحمى أتباعه ، ويستقبل بصدره الخطر .

وجاء الخطر على أشد صوره وأشكاله .

اتفق زعماء قريش على ارتكاب أكبر جريمة فى تاريخ الجنس البشرى .

جريمة لو تمت ، لما كانت فى التاريخ دمشق ولا بغداد ولا القاهرة ولا قرطبة ، ولا كانت للراشدين دولة ، ولا للأمويين ، ولا للعباسيين ، ولا فتح بنو عثمان القسطنطينية ، ولا بنى الأموى ، ولا النظامية ولا الحمراء ، ولما قامت الحضارة التى قبست منها أوربا حضارتها : من الشام فى الحروب

الصليبية ، ومن الأندلس بعد ذلك ، ولبدل التاريخ طريقه ، ولكنا اليوم على حال لا يعلمها إلا الله .

وهنا تتجلى رجولة محمد وشجاعته ، وثبات أعصابه ، وهنا يظهر نصر الله لأوليائه - حين فتح محمد الباب ، وخرج يشق صفوفهم ، يقتحم الجموع ، التي جاءت تطلب دمه ، أرادوا قتله وأراد الله حياته ، فتم ما أراد الله ، وروعتهم المفاجأة وأعمت أبصارهم ، وما عادوا إلى أنفسهم حتى كان محمد قد مضى ، وصحوا كأنَّ حلماً مرَّ بهم ، وشقواالباب ونظروا ليتوثقوا ، فرأوا فراش محمد وفيه رجل نائم ، ففركوا عيونهم وتنفسوا الصعداء .

* * *

وأدركت قريش الحقيقة بعد ما مضى محمد ، وعمَّ الصريخ مكة وضواحيها ، وخرج القرشيون فرساناً ومشاة يركضون خيولهم ، ويعدون إلى كل ناحية يتلفتون مذعورين .

ما لهم ؟ ما لهم وهم حماة الديار ، وفرسان المعارك ، قد أطار الفزع ألبابهم وصدع الذعر قلوبهم ؟ ما لكم يا ناس ؟ قالوا : خرج محمد !

وماذا تطلبون منه ؟ أخذ أموالكم ؟

قالوا : معاذ الله إنه الأمين المأمون أداها عن آخرها ؟

أجرم جريمة فأنتم تطلبونه بها ؟

قالوا : حاشا لله ، إنه أحسن الناس خلقاً ، وأطهرهم يداً .

ماذا تريدون منه ؟ قالوا : إنَّه سيجند الدنيا كلها ، لمحاربة أربابنا وأصنامنا وجهلنا وكبريائنا ، سيضطرنا إلى هدم الحجارة الجامدة ، وعبادة الله الواحد . واتباع سبيل الهدى ، والخير والسداد .

أهذا الذى تنقمون من محمد ؟

وسخر التاريخ من قريش مرة ثانية !

وعادت قريش بخزيها ، وهاجت الجزيرة ضدَّ محمد ، ووضعت الجوائز ، (مائة ناقة) لمن يأتى بمحمد حياً أو ميتاً .

وبعد أن فارق محمد وصاحبه الغار لحقهم فارس [1] وخاف أبو بكر وقال : والله ما على نفسى خفت ، ولكن عليك ، فأجاب محمد بالكلمة التى تجمع وحدها معجزات الإيمان ، مهما تعددت صورها ، من الشجاعة والتضحية والثبات ، والإيثار ، قال : لا تحزن ، إنَّ الله معنا .

إن الله مع من يكون مع الله ، إن الله ينصر من ينصره ، فلا يحزن من كان الله معه .

إن جبهة معها الله ، لا تنكسر ولو كان ضدَّها الوجود كله !

* * *

ومشى الموكب إلى الدنيا الواسعة . موكب صغير ، ولكنه أجلُّ من أعظم موكب أحست بوطئته هذه الكرة التى نمشى على ظهرها ، ولم تعرف موكباً أنبل منه قصداً وأبعد غاية ، وأخلص نية ، وأعمق فى الأرض أثراً .

موكب صغير يمشى فى الصحراء الساكنة ، لا رايات ولا أعلام ، ولا أبواق ولا طبول ، ولا تقوم له الجند على الصفين ، ولا يصفق له الناس من النوافذ ، ولكن تصفق الرمال فرحاً بالذى سيضفى عليها ثوب الخصب

(1) هو سراقة وقد تعاورت هذه الحادثة أقلام ، وأخرجت فيها (أفلام) وكتب أول من تنبه إليها ، وكتبت فيها قصة نشرت فى **الأعدد الممتازة** من (**الرسالة**) الصادر يوم 12 المحرم سنة 1354 هـ .

والنماء، وتُزهى الجبال طرباً ، بالذى سيقيم عليها أعلام النصر والعز ، وتبرز من بطن الغيب جحافل القواد والعلماء والأدباء الذين أنبتهم مسير محمد فى هذه الصحارى .

حتى أشرف على المدينة . وأقبلت جموع كالجموع التى خلفوها فى مكة .

ولكن تلك كانت للشر ، وهذه للخير . وتلك تنادى بالموت لمحمد ، وهذه تنادى بالحياة لرسول الله .

وكانت هذه نقطة التحول فى التاريخ الإسلامى .

كل ما قبلها هزائم ، وما بعدها إنما هو نصر إثر نصر . ولذلك جعلناها ابتداء تاريخنا

* * * *

ها نحن أولاء الآن على أبواب المدينة ، وقد خرجت كلها تستقبل محمداً، ولو استطاعت من الحب لفرشت له الطريق بقطع أكبادها ، حتى يمشى على قلوبها ، وكانت تنشد نشيد الاستقبال :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع

وها هم الناس يسألون : أيهم هو ؟ أيهم محمد ؟

لا يعرفونه لأنه لم يكن ملكاً ، ولا يلبس الحرير ، ولا تلوح عليه شارات الملك ، ولا يتألق على جبينه التاج ، بل كان عبداً لله متواضعاً ، يلبس ما يلبس الناس ، ويأكل ما يأكلون ، ويجوع إن جاعوا ، ويشبع إن شبعوا ، ولقد كان فى أصحاب الأغنياء الموسرون ، ولكن محمداً أحب أن يعيش فقيراً وأن

يموت فقيراً .

وحسبوا أبا بكر هو النبى ، فكانوا يسلمون عليه ، وهو يشير إلى الرسول يقول لهم بيده : ها هوذا محمد . وأقبلوا يدعونه لينزل فيهم يتسابقون على هذا الشرف الخالد .

فماذا صنع ؟ انظروا إلى لطفه ولباقته ، إنه لا يريد أن يؤذى أحداً بالرفض ، فقال : اتركوا الناقة فإنها مأمورة ، ومشت الناقة حتى بركت عند دار أبى أيوب الأنصارى .

أبو أيوب ، الذى كتب الله أن يحضر بعد حرب القسطنطينية وأن يوغل فى الهجوم يريد أن يموت فى أبعد مكان ، فمات ودفن على ضفاف البوسفور ، وبقى قبره يدعو المسلمين إلى فتحها قروناً طوالاً ، حتى كتب الله هذا الثواب للسلطان محمد الفاتح .

نحن الآن مع محمد ـ ﷺ ـ فى المدينة . إنه يؤسس الدولة الجديدة ، فيم ترونه يبدأ ؟ بمهرجان فخم يبايعونه فيه بالملك ؟ إنه لا يريد الملك ! يبنى ثكنة باحتفال عظيم ويجيش جيشاً ؟ إنه لا يبتغى العلو فى الأرض ! يفرض الضرائب ؟ لا ، ولكن يبدأ بعمارة المسجد .

إنها ظاهرة عظيمة يحسن أن يقف القارىء عندها . يبدأ بالمسجد ، كما بدىء الوحى بآية (القرآن) و (التعليم) بالقلم .

بدأ بالمسجد والمسجد فى الإسلام ، هو المعبد (رمز) الإيمان ، وهو البرلمان (رمز) العدل ، وهو المدرسة (رمز) العلم .

ولم يغصبه بل شراه بالمال وذلك (رمز) الإنصاف .

ولم يأمر ببنائه ويقعد ، بل شارك أصحابه العمل ، وحمل الحجارة بيده ،

وهذا (رمز) الديمقراطية ، وبناه من اللبن والطين ، بلا زخارف ولا نقوش وهذا (رمز) البساطة [1] .

فكان من هذه (الرموز) الإيمان والعدل والعلم والإنصاف والديمقراطية والبساطة مجموعة شعائر الإسلام .

* * * *

(1) البسيط فى اللغة الواسع المبسوط ولكنى أردت معناها الشائع .

سَيِّدُ رجَال التاريخ

*** يوم الهجرة ***

اليوم تغلق الدواوين[1] أبوابها ، وتسرح المدارس طلاَّبها ، وترفع الأعلام فى النهار ، وتوقد السرج فى الليل ، احتفاء بذكرى الهجرة ، ثمَّ يمر اليوم ، كما مرَّ الأمس ، ويمر الغد ، لا يسأل ولد أباه، ما معنى الهجرة ؟ وإلام يشير هذا اليوم ؟ ولا يحدِّث أب ولده وأهله حديث الهجرة ، لأن أكثر الآباء لا يعرفون من سيرة نبيهم وهاديهم ، إلا القليل الغامض ، الذى لا يفيد علماً ، ولا ينفى جهلاً ، ولا يأتى منه شىء .

مع أنَّ على كل رب أسرة ، أن يكون فى بيته كتاب جامع من كتب السيرة ، وأن يقرأ فيه دائماً ، وأن يتلو منه على أهله وأولاده وأن يجعل لذلك ساعة كل يوم ، لينشؤوا على معرفة سيرة الرسول الأعظم ـ ﷺ ـ فإنَّ سيرته الينبوع الصافى لطالب الفقه ، والدليل الهادى لباغى[2] الصلاح ، والمثل الأعلى للأسلوب البليغ ، والدستور الشامل لكل شُعَب الخير .

وأنا من ثلاثين سنة أكتب وأخطب فى الهجرة[3] ما انقطعت عن ذلك سنة ، ولا أزال مع ذلك ، كلما فكرت فيها بدت لى فى أخبارها ، ملاحظات وعبر ، لم تك قد بدت لى من قبل ، ونظرت إليها من جوانب جديدة ، فرأيت

(1) فى بعض البلدان .

(2) أى قاصد

(3) خطبت أول خطبة فيها سنة 1345 هـ فى الاحتفال السنوى للمدرسة الأمينية فصارت الآن ستين بدلاً من الثلاثين ، نسأل الله حسن الخاتمة .

قديمها جديداً ، فهى كالنبع الذى لا يزداد على الاستسقاء إلا غزارة وعذوبة وصفاء .

****

ومن المعروف المشاهد ، أنَّ الألفة تذهب العجب ، ونحن لا نعجب لطيران بيت ضخم من الحديد والفولاذ ، ولا لنطق صندوق صغير من المعادن والأسلاك ، لأننا ألفناه وعرفناه ، مع أن ذلك عجيب فى ذاته ، وفوق العجيب .

وكذلك نحن حين نقرأ سيرة الرسول ـ ﷺ ـ ، نمر بخبر الحادث المدهش ، فلا نكاد ، من ألفتنا إياه وتكرار سماعه ، نفكر فيه ، أو ندهش منه ، ولو سمعنا الآن أن رجلا أمياً ، لم يدخل مدرسة ، ولم يحضر حلقة علم ، ولم يتعلم القراءة ولا الكتابة ، وقام (على ذلك كله) فى قرية معتزلة فى صحراء منقطعة ، ليصلح وحده الدنيا كلها ، ويمنع الحرب منها ، وينزع سلاح الدول القوية العاتية ، ويكلفها بأن تترك دنياها وعتوها ، وأن تتبعه . . . لبلغت بنا الدهشة أبعد الغايات ! فكيف إن سمعنا بعدُ ، بأن هذا الرجل تبعه نفر قليل من الضعفاء المساكين ، وأنه حمل هو وهؤلاء النفر ، أشد أنواع الأذى الجسمى والنفسى ، فثبت وثبتوا على ذلك كله ثباتاً ليس له نظير فى تاريخ البشر .

وكيف لو سمعنا بأن هذا الرجل قد نجح ، وأنه لم تمض على دعوته ثلاثون سنة ، حت [illegible] عد ، لها أكبر دولتين فى الدنيا اليوم : روسيا وأميركا مثلاً ، واتبعتا ما جاء به ، وقبل به ، وتحمس له شعباهما ، حتى سبقا فى ذلك أتباعه الأولين .

وأنَّ هذا الرجل الأمى الذى لم يتعلم ، قد جاء بكتاب ، هو دستور ، وهو

قانون مدنى ، وهو قانون للأحوال الشخصية ، وهو قانون جزائى ، وهو قانون دولى ، وهو مذهب أخلاقى ، وفيه تاريخ ، وفيه لفتات علمية عجيبة ، وفيه رفع للنفس البشرية إلى أعلى أجواء الطهر والعبقرية والعظم، وهو بعد ذلك مكتوب بأسلوب ، لا يمكن أن يجاريه إنسان ، أو أن يجىء بمثله ، لأنه جاوز أرفع طبقات البلاغة البشرية . . .

وأن هذه الدعوة لم يكن نجاحها، فورة سريعة ، ولا كانت وثبة كنار القش، تشبُّ فى لحظة ، وتخمد فى لحظة ، بل كانت شيئاً أخلد من الخلود، وأبقى من الدهر ، وأنها ، بعد ما مرَّ عليها أربعة عشر قرناً من الزمان ، وبعدما مرَّت بأربعين ألف كيل على الأرض ، وبعدما بلغت آفاق الدنيا ، لاتزال فى نفوس أتباعها على القوة التى كانت عليها فى ابتدائها ، ولا تزال على صفائها وطهرها ، كلما علقت بها أو ضار الزمان ، انتفضت انتفاضة فعادت كما كانت .

كم يكون عجبكم من هذا الرجل ، لو ظهر مثله من جديد ؟

هذا الذى صنعه محمد ، يا أيها السادة ـ هذا هو بالضبط !

نزل عليه جبريل ، وهو منفرد فى جبل قفر ، فى قرية صغيرة متوارية فى واد ضيق ، وراء الرمال المحرقة ، والصحراء المهلكة ، فى قرية لم تسمع بها رومة ، ولم تحس بها القسطنطينية ، ولم تبالها (مدائن) كسرى ، فقال له : انهض ، انهض يا أيها الرجل ، قف وحدك فى وجه قريش فاكسر أصنامها ، وحطِّم آلهتها ، ثم أبدل العرب بانقسامهم وحدة ، وجهلهم علماً ، واجعلهم أساتذة العالم ، وحملة لواء الحضارة ، وادع كسرى وقيصر والدنيا كلها إلى الحق والخير والعدل ، فإن لم تسمع لك ، واعتدت وبغت ، فحاربها لا لتستعمر بلادها ، وتملك أعناقها فما كان النبى داعية ظلم ، ولا كان الإسلام

دين (استعمار) [1] ولا كان الجهاد ، حرب عدوان ، إنما الجهاد ، دفاع عن دعوة الحق أمام من بغى لها الأذى ، وسد على أهلها الطريق إلى الشعوب ، ومنعهم أن يحملوا إليها العلم والحضارة والخير .

حارب أهل الأرض إن حاربوك ، وجاهدهم ولو بقيت وحدك : (لا تكلف إلا نفسك) !

وكانت يا سادة [2] محن شداد ، وكانت أهوال ، ولكن محمداً احتمل ما لا تحتمله الجبال . إنَّ الواحد منا يخشى إن قال كلمة حق ، أو دعا إلى خير ، أن يناله إعراض من أمير ، أو يسمع كلمة سوء من الناس ، أو ينقص مرتبه ، أو يمزق ثوبه ، أو يشتم أو يضرب ، وسيد البشر محمد ـ ﷺ ـ ، شتمه قومه ، وآذوه ، وسخروا منه ، وقالوا عنه مجنون ، وقالوا ساحر ، وقالوا كذاب ، وكانت أم جميل بنت حرب بن أمية ، تحمل الشوك فتلقيه فى طريقه ، حتى إذا خرج تعثر به ، وهى (حمَّالة الحطب) . وكان أمية بن خلف يهمزه ويلمزه وهو (الهمزة اللمزة) . وبلغ بهم الأمر أن جاء عقبة بن أبى معيط بسلا جزور (أحشاء جمل) فألقاه فوقه وهو ساجد ، وسخروا منه : فقالوا له ، سل ربك ، أن ينزل ملكاً يدافع عنك فإنك تقوم فى الأسواق مثلنا ، وتلتمس المعاش . وقال آخر : اسقط علينا السماء كسفاً ، كما زعمت . وقال الثالث : أنا أعرف من أين تجىء بهذا القرآن ، يعلمك إياه رجل فى اليمامة ، يقال له الرحمن . . وهم خلال ذلك يضحكون ويقهقهون ، وكلما فتح فمه ليتكلم لقوه بمثل هذه الأقوال . وقال آخر : يا محمد ، لن نؤمن لك حتى تتخذ سلماً تصعد به إلى السماء ، فتأتى بالله والملائكة معك لينصروك علينا . . . فأنزل الله ـ عز

(1) بالمعنى الذى يراد اليوم ، وإن كان ما يسمونه استعماراً إنما هو فى (الحقيقة) (استخراب) وهم المخربون المدمرون ، لا المستعمرون كما يسمون التنصير والتكفير بالتبشير .
(2) كانت هذه المقالة حديثاً أذيع من إذاعة دمشق أول العهد بإنشاء الإذاعة .

وجل ـ حكاية لأقوالهم هذه : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء90 : 93].

وقالوا له ، لماذا لا ينزل علينا ملك ؟ فرد الله عليهم أن لو كان سكان الأرض ملائكة لأنزل ملكاً، ولكن فى الأرض بشراً ، فكان رسولهم بشراً مثلهم .

وكان النضر بن الحارث ، كلما قام الرسول من محله ، قعد مكانه وحدَّثهم من حديث ملوك فارس، وقال: حديثى والله أحسن من حديث محمد . وكانوا كلما جاء يتلو عليهم القرآن ، شغبوا عليه وصاحوا ، وقالوا : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت : 96] . ولما نزلت عليه آية ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر : 30] . قال أبو جهل ضاحكاً ساخراً : يا معشر قريش زبانية جهنم التى يخوفكم بها محمد تسعة عشر [1] فهل يعجز كل مئة منكم عن رجل منهم ؟ ! فنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [المدثر : 31] . وقال أبو جهل : يا معشر قريش ، هل تعرفون ما هى شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد؟ هى عجوة يثرب بالزُّبْد ، فنزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ

---

(1) اتخذ البهائية الكفرة رقم (19)رمزاً مقدساً ، وجاء المدعو رشاد خليفة يروج لضلالهم متستراً بآيات الله يضعها فى غير موضعها ، وبحساب (الجمل) الذى افتراه اليهود ، وأخذه منه أصحاب (وحدة الوجود) حتى زعم أنه عرف به متى تقوم الساعة . ضلالة بينة فاحذروها وافتراء واضح فلا تخدعوا به .

الْحَمِيمِ ﴾ [الدخان : 43] .

ولم يكفهم ذلك كله حتى قاطعوا محمداً وأصحابه ، وحبسوهم فى الشّعْبِ أمداً طويلاً لا يبيعونهم ولا يكلمونهم .

فهل ترونها أثرت هذه الأهوال كلها فى عزيمة محمد ؟ أو نقصت من إيمانه بدعوته وحماسته لها ؟ لقد عرضوا عليه معها أقوى المغريات : أن يملكوه عليهم ، وأن يعطوه الأموال ، وأن يقدموا إليه أجمل النساء ليتزوج منهن بمن شاء ، فكان موقفه بعد هذه المغريات كلها ، وهذه المصائب كلها ، أن قال لعمه أبى طالب : « **والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى لأترك هذا الأمر ما تركته** » .

فهل تعرفون فى تاريخ الجنس البشرى ، موقفاً آخر كهذا الموقف ؟

واستمر هذا كله ، وامتد ، لا يوماً ولا يومين ، ولا أسبوعاً ولا شهراً ، امتد سنواتاً طوالاً ، ولو أن رجلاً غير محمد ، لقال : (حسبى . لقد عملت ما علىَّ ، وبذلت الجهد ، فإذاً النجاح مستحيل ، وقد آن لى أن أنسحب وأقعد فى بيتى) .

ولكنَّ الانسحاب لا مكان له فى منهج محمد ، وكلمة المستحيل لا وجود لها فى معجمه ، وإذا لم ينجح فى مكة فلينتقل إلى غيرها . فإن الدعوة للدنيا كلها ، وللعصور كلها ـ وانتقل إلى الطائف ، والنقلة إلى الطائف عسرة والطريق إليها طويل ، ولكنَّ محمداً ـ ﷺ ـ لا يصرفه عن الغاية عسر المسلك ، ولا طول الطريق .

وبلغ الطائف وقصد سادة ثقيف الثلاثة لعلّه يلقى عندهم ، ما لم يلق عند زعماء مكة ، وبدأ يعرض عليهم دعوته ، فإذا أولهم يقول له : (أنا أمرط [1]

(1) أنتف وأمزق .

ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . . . وقال الثانى : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك . . . وقال الثالث : أنا لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول ، لأنت أعظم من أن أردَّ عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، فما ينبغى لى أن أكلمك !)[1] .

قال : « **أما إن رفضتم ما جئت به فاكتموه عنى**» . لجأ إلى نبلهم بعد أن يئس من عقولهم ، فما كانوا نبلاء ، وأغروا به السفهاء والعبيد ، يلحقونه ويدفعونه ، ويسبونه ويصيحون به ، حتى أخرجوه إلى طرف البلدة ، وهنا وقد بلغ الهول هذا المبلغ ، دعا رسول الله ـ ﷺ ـ دعاء ، ما تلوته مرة إلا فاضت عيناى ، وما أحسب أحداً يسمعه ويفهمه ، يملك قلبه أن يسيل من الرقة دمعاً من عينيه .

قال : « **اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ،وقلة حيلتى ،وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى .**

إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ .

إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وهنا موقف عجب من العجب ، الرسول فى هذه الحال من الشدَّة ، وفى هذا الموقف الذى يُقنط أجلد الأبطال ، رأى بادرة قبول للدعوة عند عبد ضعيف يقال له عدَّاس ، فلم يمنعه كل ما لقى من أن يبلغه دعوة الله وينصرف

(1) هذا الكلام الفارغ من المعنى ـ البعيد عن التهذيب ـ هو الذى يقول أمثاله اليوم ـ بعض من ندعوهم إلى التمسك بالدين تشابهت تفاهة الأولين والآخرين .

إليه ، وينسى ألمه وتعبه ، حتى أسلم .

هذا موقف صغير بالنسبة للرسول ، ولكنه عظيم بالنسبة إلى دعاة البشر فى كل تواريخهم .

ولا يستطيع باحث أن يلقى فى الإخلاص للدعوة ونسيان الذات فى سبيلها ، موقفاً مثله لرجل آخر غير محمد ـ ﷺ ـ .

* * *

ها هوذا قد جرَّب الدعوة فى مكة ، وفى الطائف ، فلم ينجح ، وصبر ثلاث عشرة سنة ، أربعة آلاف وستمائة وثمانين يوماً ، كل يوم من طوله وشدَّته سنة ، فهل بعد هذا مجال للصبر ؟

ألا يعذر لو ألقى السلاح ، بعد هذا كله وانسحب ؟ .

ولكن لا ! .

إن قريشاً بجهلها وحماقتها تريد أن مد النور عن الأرض كلها ، تريد أن تمنع الخير عن العصور القادمة التى ستتلقى هذا النور ، تريد أن تمنع قيام بغداد والقاهرة ، وجامع قرطبة ، والمدرسة النظامية ، تريد أن تطمس الحضارة التى جاء يقيمها محمد ، فتمتد من أقصى الغرب إلى آخر جاوه ، فماذا يصنع محمد ؟ .

يهاجر ليفتح للدعوة باباً آخر تطل منه على الدنيا .

وكان هذا الباب هو يثرب التى صارت به (المدينة المنورة) .

وسيَّر أصحابه إليها ، وتأخر هو ، لم يترك مكة دار الفزع ، إلى يثرب دار الأمان ، حتى لم يبق فيها أحد من المسلمين .

لم يترك إلا علياً ، وهو منه ، وهو كولده ، نام فى فراشه ، ليؤدى الودائع التى كانت عنده لقريش ، ولقد قلت من قبل أنى قرأت هذا الخبر مئة مرة فما انتبهت إلى ما فيه إلا تلك المرة ، حين فكَّرت فى قريش ، كيف تودع محمداً أموالها وذخائرها رغم كل ما كان بينه وبينها ، وهل يودع حزب أوراقه ووثائقه عند فرد من حزب آخر معاد له ، لولا أن محمداً كان فى أمانته ، وفى قوة خلقه ، أمة وحده ، وأنَّه كان طراز ليس له فى البشر ثان .

***

وهاجر مختفياً مع صفيِّه وخليله شيخ المسلمين أبى بكر ، لم يختف من ضعف ولا جبن ، ولكنه كان كالقائد المسافر ليدير المعركة الكبرى ، فهل يظهر نفسه ويقف على الطريق ، ليحارب فصيلة لحقت به ، فيظفر عليها ، ويعطل المعركة الكبرى ؟

إنها تنتظر محمداً معارك أكبر ، تنتظره بدر ، والفتح ، وهوزان ، والقادسية ، واليرموك ، وجبل طارق ، ومعارك الفتح الإسلامى ، التى امتدت من بعد . سلسلة مظفرة خيرة ، نثرت شهداء الحق فى كل أرض ، ونصبت راية العدل على كل جبل ، وأضاءت بالإسلام القلوب والبلاد فى كل مكان و تنتظره المعركة مع الجهل والفقر والظلم والفسوق ، وسائر الأوضار الخلقية التى جاء ليطهر المجتمع البشرى من آثارها .

ودخل المدينة لا يرفرف على رأسه علم ، ولا يمشى وراءه موكب ، ولا يقرع له طبل ، ولكن ترفرف على رأسه راية القرآن ، وتمشى وراءه العصور القوادم ، و يخفق له قلب التاريخ ما بقى فى الدنيا تاريخ .

وختمت فى تاريخ الدعوة صفحة ، وفتحت صفحة أخرى ، ومضى عهد

الضعف والأذى وبدأ عهد القوة والظفر ، وكانت الهجرة هى الحد الفاصل بين العهدين .

***

فيا أيها المسلمون .

اذكروا كلما احتفلتم بالهجرة ، أنَّها كانت هى الفصل الأول فى كتاب المكارم والمفاخر والأمجاد ، وأنَّ على المسلم كلما ضاقت به سبل النجاح فى حى أو بلد أو قطر ، أن يهاجر إلى حيث الظفر والعزَّة والحرية ، وحيث يكون ذلك كله ، وحيث تسود العدالة ويعم النور ، وحيث ينادى المنادى :

(لا إله إلا الله محمد رسول الله) ـ فذلك وطن المسلم ! .

***

مُعلمة الرّجال

هذا الحديث عن السيدة التى أثبتت للدنيا منذ أربعة عشر قرناً، أن المرأة يمكن أن تكون أعلم من الرجال ، حتى يتعلموا منها ، وأن تكون أرجل من الرجال ، حتى يقتدوا بها ، وأن تكون سياسية ، وأن تكون محاربة ، وأن تخلف فى التاريخ دوياً تتناقل أصداءه العصور . لم تتخرج فى الجامعة ، لم تكن فى أيامها الجامعات ، ولكنها كانت ، (ولا تزال كما كانت) تدرَّس آثارها فى كلية الآداب ، كما تدرس أبلغ النصوص الأدبية ، وتقرأ فتاواها فى كليات الدين ، كما تقرأ الأحاديث النبوية ، ويبحث أعمالها كل مدرس لتاريخ العرب والإسلام .

امرأة ملأت الدنيا ، وشغلت الناس ، على مر الدهور .

ذلك لأنه أتيح لها ما لم يتح لأحد ، فلقد تولاها فى طفولتها ، شيخ المسلمين وأفضلهم ، أبوها الصديق ، ورعاها فى شبابها خاتم الرسل ، وأكرم البشر زوجها رسول الله ، فجمعت من العلم والفضل والبيان ما لم تجمع مثله امرأة أخرى .

كانت امرأة ، كاملة الأنوثة ، تؤنس الزوج ، وترضى العشير . وكانت عالمة ، واسعة العلم ، تعلم العلماء ، وتفتى المفتين . وكانت بليغة ، بارعة البيان ، تبذ الخطباء ، وتُزرى باللُّسن المقاويل . وكانت لقوة شخصيتها زعيمة فى كل شىء : فى العلم ، وفى المجتمع ، وفى السياسة ، وفى الحرب . أما منزلتها فى الإسلام ، فهى أعلى منازل التقديس ، ولكن ليس فى

الإسلام تقديس لأحد يعلو به عن منزلة البشر ، أو يمنحه صفات الألوهية ، أو يعطيه العصمة المطلقة ، أو يرفعه عن أن تقال فى نقده كلمة الحق .

فهى أفضل امرأة فى الإسلام بعد خديجة وفاطمة ، أما خديجة فلأن لها مزايا قلما اجتمعت لامرأة ، لها عقل لا توازيه عقول المفكرين من الرجال ، ولها رأى ومنزلة وهى أول من رعى هذا الدين ، لما كان نبتة ضعيفة ، وماتت قبل أن تشهد كيف صارت هذه النبتة دوحة باسقة ، امتدت فى المكان ، حتى أظلت الدنيا . وامتدت فى الزمان حتى لامست فروع أغصانها حدود الخلود . أحبت محمداً وأخلصت له ، وكانت له زوجاً خير زوج ، وكانت له مثل الأم ، وكانت له درعاً من سهام الحياة . أما فاطمة فلأنها على نادر سجاياها ، وعظيم مزاياها بضعة من رسول الله ، وحسبها ذلك فضلاً على النساء .

* * *

ولقد عد الزركشى (فى الإجابة) [1] أربعين منقبة لعائشة ، لم تكن لغيرها ، تزوج الرسول نساءه كبيرات ثيبات (زواج مصلحة سياسية أو إدارية أو تعليمية ، لا كما يقول الجاهلون) ، وتزوجها بكراً ، وكانت أحبهن إليه ، وكانت آثرهن عليه . اختار الإقامة عندها لما مرض ، وتوفى بين سَحْرِها ونَحْرِها ودفن فى بيتها ، وكان ينزل عليه الوحى وهو معها ، وكان براً بها ، قام لها لما جاء الحبشة يلعبون بحرابهم فى المسجد ، فوضعت خدها على كتفه لتنظر إليهم حتى اكتفت ، وسابقها مرتين ، فسبقته أولا ، ثم لما سمنت وركبها اللحم سبقها ، وقال لها : هذه بتلك ولما دخل عليها أبو بكر ، وهى تقول للنبى ـ ﷺ ـ شيئاً مما يقوله الزوجات عند الغضب ، هم بضربها فحماها الرسول منه ، فلما خرج قال لها مباسطاً : أرأيت كيف حميتك من الرجل ؟!

(1) نشر هذا الكتاب أخى سعيد الأفغانى .

كذلك كانت معاملته ـ ﷺ ـ لأهله : معاملة إيناس وبر وانبساط ، لا كما يظن بعض الرجال ، يحسبون من الرجولة أن يبقى الرجل فى بيته عابساً باسراً مقطباً وأن يأمر زوجته أمراً عسكرياً ، وأن يبطش بها بطش الطغاة ، كلا ، ما هكذا كان رسول الله ، ولا بهذا أمر الإسلام .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى » .

ومن بره بها أن فارسياً دعاه إلى وليمة (قبل أن يضرب الحجاب على زوجات الرسول) ، فقال الرسول : وهذه معى ؟ (يقصد عائشة) قال : لا . وعاد فدعاه فقال : وهذه معى ؟ قال : لا . فدعاه الثالثة . فقال : وهذه معى قال : نعم ، فانظروا إلى هذه السماحة من الرسول . وهذه الصراحة من الرجل ، وقيسوهما بما تعرفون من أحوال الناس اليوم ، ولما نزلت آية تخيير زوجات الرسول ، بين الحرية والإنطلاق فيطلقهن رسول الله ، وبين البقاء عنده ، بلغ من حرص الرسول عليها أن قال : لا تبادرينى بالجواب ، حتى تستأمرى أبويك ، خشية أن تسرع فتختار الدنيا ، فقالت : أفيك أستأمر ؟ واختارت رسول الله ، وتبعتها بقية أمهات المؤمنين .

أما علمها فقد بلغت فيه الغاية . حتى قال أبو موسى الأشعرى : كنا أصحاب رسول الله ، إذا أشكل علينا أمر سألنا عائشة .

وكانت بلاغتها تعادل علمها . قال الأحنف : سمعت خطب أبى بكر وعمر وعثمان وعلى والخلفاء إلى يومى هذا ، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ، ولا أحسن فيه ، من فم عائشة .

وكانت كريمة النفس ، كريمة اليد ، صبرت مع الرسول على الفقر والجوع حتى كانت تمر عليها الأيام الطويلة ، وما يوقد فى بيت رسول الله نار لخبز أو طبخ ، وإنما كانا يعيشان على التمر والماء ، ولما أقبلت الدنيا على

المسلمين أتيت مرة بمائة ألف ، وكانت صائمة ففرقتها كلها ، وليس فى بيتها شىء ، فقالت لها مولاتها : أما استطعت أن تشترى بدرهم لحماً تفطرين عليه؟ قالت : لو كنت ذكرتنى لفعلت .

لم يزعجها الفقر ، ولم يبطرها الغنى ، لأنها لما عظمت نفسها ، صغرت عليها الدنيا ، فما عادت تبالى إقبالها ولا إدبارها .

وأطرف ما فى عائشة ، أنها كانت النموذج الأتم للمرأة ، للمرأة فى طبيعتها وفى طموحها ، وفى مزاياها ، وفى عيوبها .

كانت خير زوجة ، والزواج هو عمل المرأة الأول ، وإن أكبر غايات المرأة أن تكون زوجة وأن تكون أماً ، لا يغنيها عن ذلك شىء ولو حازت مالاً يملأ الأرض ، ولو نالت مجداً ينطح السماء ، ولو بلغت من العلم والرئاسة ما تتقطع دونه الأعناق ، ما أغناها ذلك كله عن الزواج ، ولا محا من نفسها الميل إليه ، ولا الرغبة فيه .

وكانت شابة جميلة ، تشعر بشبابها وجمالها ، ومحبة الرسول لها ، وتتيه بذلك على ضرَّاتها ، وتتخذ من حفصة حليفاً لها عليهن ، تصارعهن بلسانها ويدها . ولو خلا بيت من سخط المرأة حيناً ، وخلافها حيناً ، لخلا بيت رسول الله ، فليجد الأزواج فى ذلك سلوة لهم وأسوة ، فإنا طبيعة المرأة . ولكنها كانت موقرة لرسول الله ، فى رضاها وسخطها ، جاء فى الحديث أنه ـ ﷺ ـ قال لها : إنى لأعرف رضاك من سخطك . قالت : وبم ؟ قال : إن رضيت قلت : لا ورب محمد ، وإن غضبت قلت : لا ورب إبراهيم .

وكانت مدللة ، والدلال طبيعة المرأة الجميلة المحبوبة ، وهو الثمرة الأولى للجمال وللشعور بالحب ، قالت مرة لرسول الله : كيف حبك لى ؟ قال : كعقدة الحبل (أى هو متين مثلها) فكانت تسأله مرة بعد مرة ، كيف

العقدة ؟ فيقول ـ ﷺ ـ : على حالها .

وكانت تغار ، والغيرة الثمرة الثانية لذلك ، ولكنها غيرة مقبولة ، تنبِّه الحب ولا تقتله ، وتذكيه ولا تطفئه ، ورب منبه لفرسه بضربة شدّدها فقتلها ومزكٍ لناره بنفخة قواها فأطفأها .

وكانت عالمة لأن العلم لا ينافى طبيعة المرأة ، لم يمنعها كونها أنثى ، من أن تكون فيه للذكور إماماً .

ولكنها لما جاوزت حدَّها وخالفت طبعها ، ودخلت غمار السياسة ، التى يطالب بعض النساء اليوم بخوض غمارها و لا أقول لكم ماذا صنعت ، ولكن سلوا رحاب البصرة ، كم حوى بطنها من جثث ؟ سلوا الجمل المشؤوم ، كم سال على جنباته من دم ؟سلوا تلك الأرواح فيم أزهقت ؟ سلوا تلك الضحايا فيم ذهبت ؟

أنا لا أتّهم السيدة بأنها هى المسؤولة قضائياً ، عن هذه الأرواح ، ومن أنا حتى أتَّهم أم المؤمنين ؟ بل أقول إنها باشتغالها بما لم يخلقها الله له ، ولا يدعوها الإسلام إليه ، جرت هذا كله . ونحن حين نكره للمرأة السياسة ، لا نريد أن نستأثر دونها بمتعها ، ولا أن ننفرد بخيراتها ، بل نريد أن ننزهها عن أوضارها ، ونبعدها عن نارها .

وموقف آخر في حياة السيدة هو التهمة الشنيعة التى اتهمت بها ، وهى أبعد عنها ، مِن الأرض عن السماء ، السماء التى نزل منها الحكم ببراءتها بآيات نقرؤها فى صلواتنا إلى يوم القيامة ، ولم تكن إلا درساً ألقاه الله علينا فى شخص أكمل امرأة وأفضلها ، ليبتعد النساء عن مواطن الشبهات ، ولو كن تقيات نقيات ، وليعرفن أنه إذا اتهمت عائشة أم المؤمنين ، فليس فى الدنيا

امرأة هى فوق التهم .

وبعد ، فلقد مر على عائشة أربعة عشر قرناً ، ولم تعرف الدنيا امرأة مثلها، وما أظن أن كثيرات مثلها ستعرفهن هذه الدنيا .

رضى الله عنها ، وأعلى فى الجنان منازلها

❊ ❊ ❊ ❊

سيدة جليلة

من سيدات المجتمع الإسلامي الأول

يا أيها السيدات اسمعن قصة هذه السيدة .

سيدة أبوها عظيم ، وزوجها عظيم ، وهى عظيمة فى مواهبها ومواقفها غظيمة فى نفسها وفى أعمالها .

سيدة ذات (مبدأ) وفت له ، وثبتت عليه . وسيدة شاركت فى أجل الأحداث ، فى السلم وفى الحرب . سيدة كانت ربة بيت صبرت على مره ولم تبطر بحلوه . سيدة كان لها من نبل القلب ، وكبر العقل ، وثبات الأعصاب ، ما لم يكن مثله إلا للقليل من عظماء الرجال

وفى قصتها بَعْدُ عبرة للنساء ، وأمل لمن ابتليت بالفقر من الزوجات ، وإثبات لمن يحتقر النساء أن المرأة قد تكون أعقل وأنبل من الرجال ، وبيان لمن لا يريد بالمرأة إلا أن تكون متعة ، لا هَمَّ لها إلا زينتها وتبرجها ، إنها قد تترفع عن زخارف (الأزياء) ، وألاعيب النساء ، حتى تكون ركناً فى بناء الأمة ، وعوناً على تحقيق مثلها العليا .

هذه السيدة يا أيها السادة :

أبوها المسلم بعد رسول الله ، شيخ الإسلام أبو بكر ، وزوجها حوارى رسول الله ، وأول من سل سيفاً فى سبيل الله ، رائد الجهاد ، البطل السمح الكريم : الزبير . وابنها الفارس البطل الشهيد ، أمير المؤمنين : عبد الله بن الزبير .

وهى أسماء ذات النطاقين ، أسماء العظيمة ، العجوز التى وقفت يوم مقتل ابنها موقفاً لا تقوى عليه صناديد الرجال .

وهى أخت عائشة الكبرى .

أسلمت بعد سبعة عشر إنساناً، فكانت فى طليعة جيش الحق والهدى ، جيش الإسلام ، الذى ملأ الأرض نوراً ، وبايعت الرسول على الوفاء لشرعة السماء ، والثبات عليها ، وبلغ من عمق الإيمان فى نفسها ، أنها لما رأت الإيمان قد تعارض مع أقوى عواطف النفس البشرية ، مع حب الأم غلَّبت إيمانها على عاطفتها .

جاءت أمها تزورها ، وكانت مشركة لم تدخل بعد فى الإسلام ، فهشت للقائها بعد طول الفراق ، وتفتح لها قلبها ، وقفز ليكون بريقاً فى عينيها ، وابتساماً فى شفتيها ، وتحية حلوة على لسانها ، وضمة دافئة فى ذراعيها ، ثم ذكرت أن أمها مشركة، وأن رابطة الدين أقوى من رابطة النسب ، وأن الله يقول : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة: 22] فتراخت الذراعان ، وأغضت العينان ، وجمدت التحية على اللسان ، وأرسلت إلى عائشة أن اسألى رسول الله : أأصل أمى وهى مشركة وأستقبلها ؟

فقال الرسول ـ ﷺ ـ : نعم صلى أمك واستقبليها .

وعلَّمها أن الإسلام لا يحول أبداً ، دون عواطف الخير والشر ، ولا يقتل أبدًا دوافع النبل فى النفوس

***

وكان إيمانها كعقلها ، وكانت متحكمة أبداً فى أعصابها .

لما كانت الهجرة حمل أبو بكر ماله كله معه ، لا ليحرم منه أسرته ، بل ليعين به محمداً على دعوته ، التى كان يراها أولى من نفسه وأسرته .

وبلغ ذلك أبا قحافة والد أبى بكر وكان مكفوف البصر فجاء متأسفاً غضبان وقال :

ـ ما أراه إلا قد فجعكم بماله ، كما فجعكم بنفسه .

ـ قالت : لا يا جدى .

وأخذت حجارة فوضعتها فى كيس كان يضع ماله فيه ، وألقته فى صندوقه ، قالت :

ـ تعال انظر .

ووضعت يده على الكيس .

فقال : إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن .

***

وكانت الهجرة ، وهى حادث هين فى ذاته ، رجلان خرجا من مكة إلى يثرب ، يخرج مثلهما كثير كل يوم ، من كل بلد ، من يوم خلق الله الدنيا حتى يأذن فى خرابها ، ولكنه عظيم فى نتائجه ؛ لأنه لم يكن سفراً من بلد إلى بلد ، بل انتقال الدعوة من طور إلى طور ، من طور الإسرار والضعف، إلى طور الإعلان والقوة ، طور الظفر والعلاء .

وما كان لمحمد موكب تخفق فيه على رأسه الرايات ، وتقرع أمامه الطبول، وتمشى وراءه الجند ، وما كان فى موكبه إلا هو وصاحبه والدليل ، ولكن كانت تمشى فيه الملائكة ، وتحف به الرحمة ، ويهرب من أمامه

الماضى الأسود ، ويتبعه المستقبل المنير .

موكب ما مشى من مكة إلى يثرب فقط ، بل إلى دمشق والبصرة والكوفة ، ثم إلى بغداد والقاهرة ، ثم إلى قرطبة وسمرقند ودهلى [1] ، إلى الدنيا العريضة التى حمل إليها أتباع محمد الخير والهدى ، حين حملوا إليها الإسلام ثم مشى فى الزمان إلى العصور الآتيات إلى ساحات الخلود . . .

موكب كان فيه رجلان وامرأة ، امرأة نابت عن النساء حين مثلتهنَّ فى هذا الموقف العظيم ، امرأة لم تقطع معهما الطريق كله ، ولكن أمدتهما بالطعام والزاد ، وكذلك تصنع المرأة ، إذا لم تصل مع الرجل إلى كل ميدان وصل إليه، فإن لها الفضل فى إمداده وعونه ، فلولا المرأة (المرأة أماً ، والمرأة زوجاً وسكنًا) ما استطاع الرجال خوض هذه الغمرات .

كانت أسماء تعدُّ الطعام وتحمله إلى الرسول وصاحبه ، وهما فى الغار ، وتمزقت مرة سفرتها (السفرة زاد المسافر أو وعاء الزاد) فشقت نطاقها (زنارها) اثنين ، فربطتها بواحد وانتطقت (أى تمنطقت) بالآخر فسميت ذات النطاقين .

وكانت تعد لهما الطعام مرَّة ، فجاءها أبو جهل وأصحابه ، فى زهوه الباطل ، وكبره السخيف ، فسألها عن أبيها .

وكانت الهجرة سراً لا يعرفه فى مكة إلا رجل وامرأة : علىٌّ وأسماء ، فأبت أن تذيع السر ، فهددها ، فلم تخف ، فرفع يده فضربها وهى حامل .

وكذلك يفعل الجبان .

عجز عن أن يضرب الرجال فضرب امرأة حاملاً .

(1) والإنكليز يسمونها دلهى ، وقد ثبت قروناً وهى عاصمة الإسلام فى الهند ، وفيها أروع آثار الملوك المسلمين .

وكذلك يفعل الجبناء فى كل عصر .

عجز اليهود عن مواجهة الأبطال فى الحومة فواجهوا العجائز والأطفال فى دير يا سين ، ولكن ضربة أبى جهل دمرت الشرك ، وذكرى دير ياسين ستدمر صهيون .

❊ ❊ ❊

ولحقت أباها ، ودخلت فى الموكب القدسى الأنور ، موكب الهجرة ، حتى إذا قطعت الصحراء المقفرة ، وأشرفت على أوائل النخيل فى قباء ، وضعت عبد الله ، فكان أول مولود فى الإسلام ، وكان عيد ميلاده هو عيد ميلاد الحضارة واليمن والخير .

❊ ❊ ❊

يا سادتى ، لما تزوج الزبير أسماء ، لم يكن له فى الدنيا شىء لا مال ولا عقار ، ليس له إلا فرسه ، فلم يكن عليها أن تصبر على الفقر فقط ، ولا أن تروض نفسها على الحرمان ، وتخدم زوجها وحده ، بل كان عليها أن تخدم هذا الفرس تمشى تجمع له نوى التمر ، ثم تدق النوى وتعلف الفرس .

وصبرت على هذا كله ، وكانت مطيعة لزوجها ، حريصة على مرضاته .

رآها رسول الله مرة وهو على ناقته ، وهى تحمل النوى ، وهى أخت زوجته ، وزوجة ابن عمته ، فقال لناقته : اخ اخ . ينيخها ليركبها معه .

قالت : فذكرت غيرة الزبير فأبيت .

أبت أن تركب مع الرسول ، الطاهر المطهر المعصوم ، خوف سخط زوجها ، وما كان زوجها ليسخط ، ولكنها المبالغة فى مرضاته .

ولما أعطاها أبوها خادماً ترعى الفرس ، رأت نفسها قد غدت ملكة .

يا أيتها القارئة ، يا من لها زوج فقير ، فهى تتألم للحرمان ، وتكاد تذم القدر . اسمعى بقية الخبر .

إنها صبرت على هذا كله ، فكانت العاقبة أنها اغتنت ، وانصبت عليها وعلى زوجها النعم ، حتى أنه لما مات كانت تركته . . .

من يحزر كم كانت تركة الزبير ؟ كم خلف زوج أسماء بعد جمعها النوى ودقه وصبرها على الفقر ؟

خمسة ملايين درهم ومائتى ألف فقط لا غير .

لم يجمعها من الحرام ، ولا من أخذ أموال الناس ، ولا لأنه قعد فى المجلس فدرس ووعظ ، وقال : أنا حوارى رسول الله ، وابن عمته ، فأعطونى ، بل تاجر مثلما تاجر عبد الرحمن بن عوف والصحابة ، وصار كما صار الكثيرون منهم من أصحاب (الملايين) .

وكذلك كان المسلمون ، كانوا رجال دنيا ودين ، ومال وتقى ، كانوا جنًا فى النهار ، ورهباناً فى الليل .

وكان الزبير مع ذلك سمحاً كريماً ، كان له هذا المال ، وكان له ألف مملوك يشتغلون لحسابه ، ولم تجب عليه زكاة ، لأنه لم يكن يدخر شيئاً .

أما هذه السيدة الفاضلة فلم تخجل أولا من فقر زوجها ، ولم تبطر بغناه ، وبقيت كما كانت امرأة خير وبر وإحسان .

* * *

وكانت في شجاعتها أخت الرجال ، مثل حماتها صفية بنت عبد المطلب . شاركت يوم اليرموك في القتال ، وفعلت فعل الأبطال .

ولما كانت الفتنة أيام سعيد بن العاص ، واضطرب حبل الأمن ، أخذت خنجراً فجعلته على جنبها ، لتدافع به عن نفسها وبيتها ، ولو أن كل فتاة تعرف كيف تدافع عن نفسها ، لا بالخنجر ، فما نحتاج الآن إلى الخناجر ، بل بأن تمشي مرفوعة الرأس ، ثابتة النظر ، شاعرة بالكرامة ، وبأن ترد كل متعرض لها ، طامع فيها ، كما ترد الكلب العقور ، لذهب من الأرض ثلاثة أرباع الفساد .

وكانت فصيحة بينة ، أديبة شاعرة ، ولها في رثاء زوجها مقطوعات .

وهاكم موقفها العظيم حقاً ، الموقف الذي لم تقفه امرأة أخرى ، وهل سمعتم أن أما تحكم على ولدها بالموت ؟

كان عبد الله قد ملك الحجاز والعراق وفارس وخراسان ، وانقادت له مصر ، وكان له في الشام حزب ، والتقت في كفه أطراف دنيا الإسلام ، ولم يبق لبني أمية إلا قليل من الشام ، ثم تقلص هذا الملك وانتقص من أطرافه ، وضاقت دنياه باتساع دنيا بني أمية ، فلم يبق من جيشه الذي خفقت راياته على المشرق والمغرب ، إلا نفر يحيطون به في الحرم ، هذا كل ما بقي له . والمنجنيق ينزل عليه والعدو يحيط به ، وعرض عليه الفرار فأباه ، ولم يرض أن يختم هذه الحياة الطويلة ، الحافلة بالبطولات والأمجاد ، بأبشع خاتمة بل آثر أن يموت ميتة أبيه ، أن يسقط في المعركة الحمراء ، وسط المعمعة ، في الحرب الشريفة ، وأن يغسل بالدم ، ويوسد تراب الحرم .

وذهب يودع أمه ويستشيرها ، وكانت عجوزاً مكفوفة ، قد قاربت المائة ، وقال لها :

ـ يا أم ، قد خذلني الناس ، حتى أهلي وولدي ، ولم يبق لي أمل ،

والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟

وترددت الأم ، وذكرت فى لمحة مولده فى قباء ، وذكرت نشأته وقلبت حياته صفحة صفحة ، فكادت تغلبها نفسها وعاطفتها ، ثم ذكرت أن هذه الحياة التى تختارها لولدها ، حياة تسلبه مجده وكرامته ، والموت خير من حياة بلا كرامة ولا مجد . فتشددت وتثبتت وقالت :

ـ لا يتلاعبن بك صبيان بنى أمية ، عشت كريماً فمت كريماً .

أعطت الأم قرارها ، وحكمت على ولدها بالموت ، وهى تنتزع مع كل حرف من هذه الجملة قطعة من روحها ، فكأنها لم تحكم عليه وحده ، بل حكمت على نفسها أيضاً بالموت .

وضمته إليها تتحسسه وتشمه ، تأخذ من هذه اللحظات ، الذخر الوحيد الذى ستعيش به بقية أيامها .

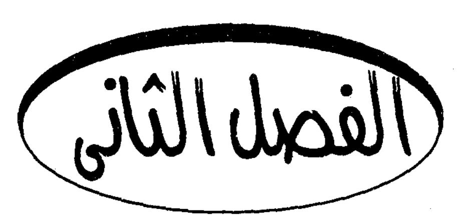
ولما انصرف أحست فى قلبها بفراغ لا يسده شىء ، شعرت أنه لم يبق لها قلب .

* * *

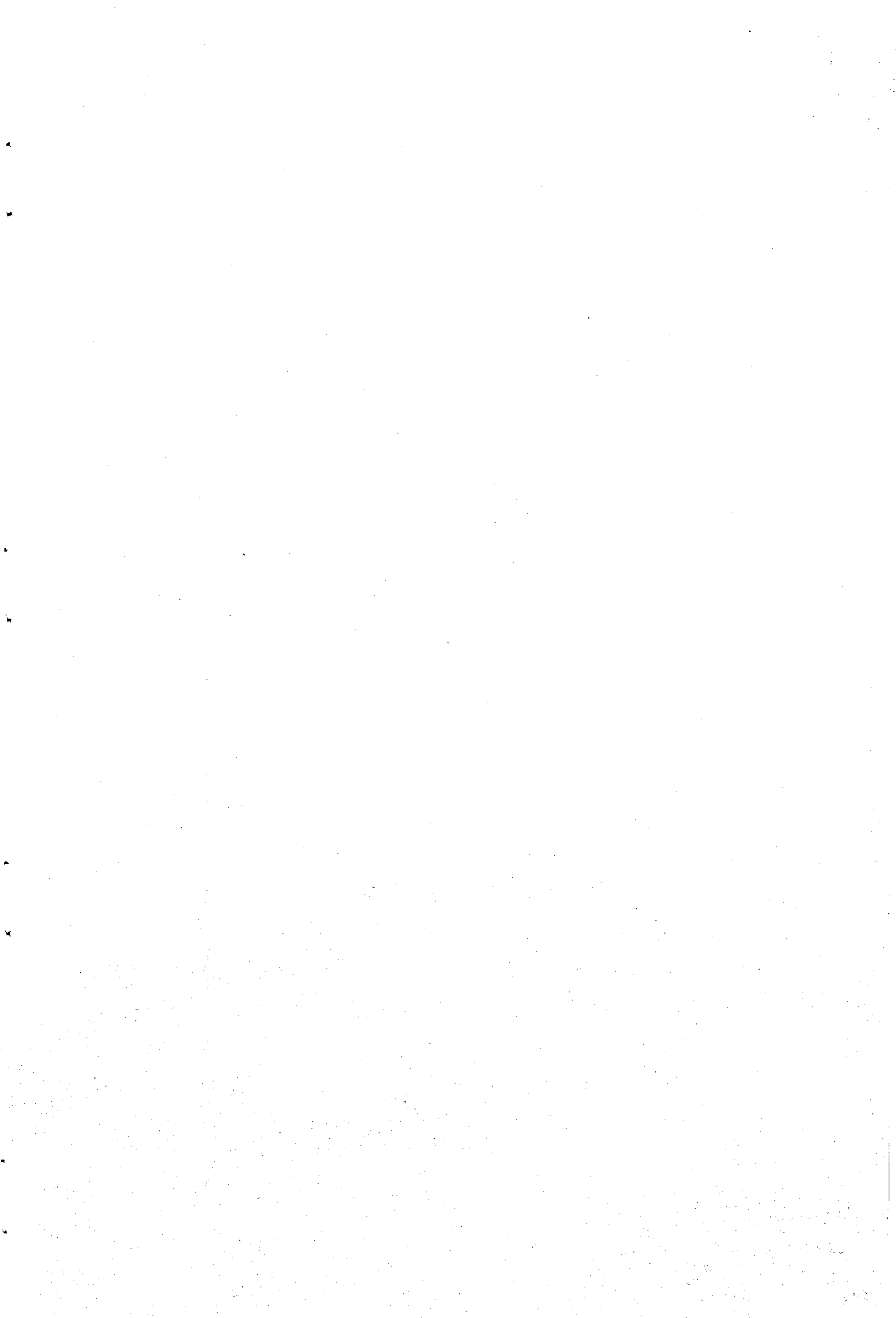
أما إن هذا الموقف لو كان لامرأة فرنسية أو إنكليزية لنظمت فيه مائة قصيدة، وألفت فيه مائة قصة ، ولكن أسماء كانت عربية مسلمة ، والعرب قد أضاعوا بيانهم وأدبهم ، مع ما أضاعوا من تراث الجدود .

هذه (أسماء) السيدة الجليلة التى يتشرف بها تاريخ الأمة الذى تكون سيرتها فيه !

* * *



- أمير المؤمنين فى الحديث
- العالم النبيل
- الفقيه الأميرال
- بانى مراكش



أميرُ المؤمنين فى الحديث

من يستطيع أن يحصى الكتب التى ألفها علماء المسلمين ؟ هذه الكتب التى أمدت المطابع فى الشرق والغرب من مائتى سنة إلى الآن ، لا تزال تطبع منها ، وما بقى مخطوطاً أكثر مما طبع ، وما ضاع من المخطوطات أكثر مما بقى ، وحسبكم أن تعلموا أن هولاكو لما دخل بغداد ألقى الكتب فى دجلة ، حتى لون حبرها ماء دجلة ، وأن الإسبان لما استرجعوا الأندلس أحرقوا الكتب حتى صارت الليالى من اللهب بيضاء ، عدا ما أضاعه التحريق والتخريق والتمزيق فكم هى إذن الكتب التى ألفها علماء المسلمين [1]؟ .

***

وبعد ، فليس فى هذه الكتب كلها ، ما هو أشهر وأفضل وأجل ، عند خاصة المسلمين وعامتهم ، من الكتاب الذى جئت اليوم أحدثكم عن صاحبه .

الكتاب الذى لا يفضل عليه المسلمون إلا كتاباً واحداً هو القرآن .

الكتاب الذى نعده ، بعد كتاب الله ، عماد ديننا ، ونجعله حجة بيننا وبين ربنا ، ونقيم عليه أمر دنيانا وآخرتنا . أما عرفتموه ؟ أى كتاب يوضع بعد القرآن مباشرة إلا صحيح البخارى . وإن كان القرآن مقطوعاً إن كل ما بين دفتيه كلام الله . وكان يكفر من أنكر منه كلمة واحدة ، وهذا على ما بذل من تحقيقه ، وما بلغ من الثقة به ، لا نقطع جزماً بأن كل ما فيه من كلام رسول الله ـ ﷺ ـ ولا نكفر من ينكر شيئاً منه كما نكفر من أنكر شيئاً من القرآن ، فإن

(1) لى بحث مفصل فى هذا الموضوع . عوانه (مع الكتب والعلماء) .

القرآن لا يعدله كتاب وإن كان حديث رسول الله فى أمور الدين لمن سمعه منه أو وصل إليه بالتواتر وحياً من عند الله كالقرآن ، ولكن القرآن وحى بلفظه ومعناه ، والحديث وحى ولفظه من عند رسول الله ـ ﷺ ـ .

***

وكان غنياً ، وكان صدراً فى كل شىء ، وكان مع ذلك من أعبد العباد ، وأزهد الزهاد ، وأشد المتواضعين ، إنه أحد أعاجيب الرجال فى تاريخ الإسلام العلمى .

وتاريخ المحدثين خاصة حافل بالرحلات وبالصبر على مشاقها ، وبالإحاطة وبالحفظ وبالتقوى وبالورع ، وما منهم إلا من شارك فى إقامة هذا البناء العظيم ، الذى لا تعرف مثله أمة فى الدنيا ، ولكن لم يبلغ أحد منهم ما بلغ البخارى ، حتى ولا (المحدث الأكبر) أحمد بن حنبل .

نعم ليس لأمة علم كعلم الحديث ، وأى أمة استطاعت أن تتبع كل كلمة قالها نبيها أو زعيمها ، وتبين مسراها خلال العصور ، ومن سمعها منه ، ومن نقلها عنه ، وما هو الطريق الذى مشت فيه ، من شخص إلى شخص ، لا فى يوم أو يومين بل فى القرون الطوال ، مع ما اضطرهم إليه من بحث أحوال الرجال ، أمانة وذاكرة ، وحسن معاملة ، وصلاح نفس ، وسيرهم وتواريخهم .

وإذا كنا نصدق أن نابليون خطب فى (استرلتز) كذا ، وأن بسمارك قال كذا ، ولم نعرف من سمع ذلك منه ومن رواه عنه ، ولعله أخذ من جريدة كاذبة ، أو مؤلف مبتدع ، فكيف نطعن بحديث نقل هذا النقل المضبوط ، بهذا السند المتصل ، على قرب الزمان بين الرسول وهؤلاء المحدثين الأولين .

إن علم الحديث من حيث السند (وهو طريق الرواية) ، قد بلغ فى الكمال ما لا زيادة عليه لمستزيد . وأعود الآن إلى البخارى .

لقد سمعتم فى حديث مضى قصة فتح بخارى على يد القائد الكبير قتيبة ، ولم يدخل المسلمون بخارى فقط ، ولكن بخارى دخلت فى الإسلام ، ولم تمض عليها مدة قصيرة حتى صارت معقلاً من أعظم معاقله . وحصناً من أكبر حصونه ، وبذلك يمتاز الفتح الإسلامى ، إنه ليس فتحاً للبلاد ، ولا استعماراً لها ولا حماية ولا وصاية ولا انتداباً ، كل هذه أشكال زائلة ، ولكنه فتح للقلوب وللبصائر حتى يصير أهل البلاد المفتوحة أحرص على الدين وأخلص له من الفاتحين ، وهذه أسرار الأخوة الإسلامية ، وأن المؤمن أخو المؤمن ، إنها (بوتقة) ذات حرارة عالية تذيب كل عنصر ، وكل جنس ، مهما كان معدنه شديداً قوياً ، فتجعل من ذلك كله سبيكة واحدة ، هى أثمن وأغلى وأشد تماسكاً وارتباطاً ، من كل عنصر تألفت منه ، ودخل فيها ، وقد حاولت فرنسا أن تقلد فما أحسنت التقليد ، أرادت أن تجعل الجزائريين فرنسيين ، بإعطائهم الجنسية الفرنسية ، ونسيت حقيقة ظاهرة ، وهى أن العربى لا يصير أبداً فرنسياً، ولكن الفارسي والصينى يصير مسلماً ، لأن الفرنسية (جنسية) و (قومية) والإسلام عقيدة ودين .

لقد ولد الإمام البخارى بعد فتح بخارى بمائة سنة ، وكان أبوه هو الذي دخل فى الإسلام ، ونشأ هو وأبوه من قبله ، وجده من قبلهما ، فى ظلال الإسلام ، وكان أبوه غنياً ، ترك له مالاً جزيلاً ، وأورثه تجارة واسعة فكان يضارب بها ، لا المضاربة فى (البُرْصات) باصطلاح اليوم ، بل شركة المضاربة بالعرف الإسلامى ، وهى أن يدفع الغنى ماله لمن يتاجر به ويكونا شريكين ، هذا بماله وذاك بعمله .

وأنا محدثكم عن أسلوبه فى التجارة لتروا كيف كان يطبق علمه على تجارته ، ومبادئه على معاملته ، لا كمن يدعى الدين والعلم بلسانه ، ويكون من فعله . . ما نسأل الله من مثله العافية .

جاءته تجارة ، فأقبل التجار فدفع له جماعة منهم خمسة آلاف دينار ربحاً فقال لهم : انصرفوا حتى أفكر وأعطيكم الجواب ، وجاءه بعدهم من دفع عشرة آلاف ، قال : إنى نويت أن أبيع أولئك ولا أحب أن أنقض نيتى ، وباع بربح خمسة آلاف وترك العشرة[1] .

وكان يكرم العلماء ويحبو السائلين ولا يرد أحداً ، ثم إنه كان يبنى من ماله الرباطات والحصون والمدارس ويدعو الناس إلى العمل فيها ، وينصب لهم الموائد ، فربما تغدى على مائدته ثلاثمائة رجل .

وبلغ من الجاه والعظمة منزلة لم تبلغها الملوك ، كلما نزل بلدة (وهو في رحلة دائمة) يخرج أهل البلد عاملتهم وخاصتهم وأمراؤهم ورعيتهم إلى استقباله من مسافة أميال ، ويرتج البلد فرحاً به ، ويزدحم الكبار على بابه ، ويتسابقون إلى سماع كلامه والأخذ عنه .

وكان (مع هذا كله) زاهداً ، متقشفاً ، مرض مرة فعرضوا ماءه (أى بوله) على الطبيب لفحصه ، وكانت هذه طريقة الفحص الطبى عندهم ، نعم ! من أكثر من ألف ومائتى سنة ! فقال هذا ماء رجل لا يأتدم فسألوه فقال : صحيح إنى ما ائتدمت (أى ما أكلت مع الخبز إداماً) منذ عشرين سنة [2] ، فأصر الطبيب عليه فصار يأكل مع الرغيف سُكَّرة .

أما تواضعه فكان أعجوبة ، وكان سباقاً إلى كل خير ، ألقى رجل وسخاً

---

(1) هذا ورع منه ، ولو أنه باع الآخر ما كان حراماً .

(2) وهو الذى يغذى على مائدته الثلاثمائة .

فى المسجد فانتظر البخارى حتى إذا رأى أن الناس لا يبصرونه ، قام فحمل الوسخ ، وألقاه خارج المسجد . وأغضبته جارية مرة ، ولم تقبل أن تترضاه . فقال : إن لم ترضنى فأنا أرضى نفسى فأعتقها . وقال : الآن أرضيت نفسى .

ولدغه زنبور مرة وهو يصلى مرات كثيرة ، فلم يترك الصلاة ، حتى إذا انتهت ، قال : انظروا أى شىء آذانى فى صلاتى !

وكان مع هذا جندياً محارباً ، بطلاً فى الرمى ، يخرج للتدريب مع تلاميذه، فلا يخيب له هدف .

تسألون الآن عن علمه .

لقد بدأ يحفظ الحديث وهو فى الكتاب ابن عشر سنين ، وكان أول أستاذ له (الداخلى) فسمعه البخارى مرة يروى عن سفيان عن أبى الزبير عن إبراهيم، فقال له : ما هكذا إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم . قال الداخلى : وما يدريك أنت يا غلام ، قال : ارجع إلى الكتاب ، فرجع فإذا هو كما قال البخارى ، قال له ليمتحنه : وكيف هو ؟ قال الزبير عن إبراهيم : وكان عمره إحدى عشرة سنة .

وقرأ كتب أهل الرأى مع سماعه الحديث .

ثم رحل فى طلب العلم ، وإذا كان الشاب اليوم يرحل بالطيارة أو الباخرة إلى أوربا ، فإن رحلات البخارى لو جمعت لزادت عن محيط كرة الأرض مرتين . قضى حياته فى رحلات دائمة ، فلم يدع محدثًا ولا عالماً ، إلا أخذ منه ما عنده ، حتى بلغ من أخذ عنه أربعة آلاف شيخ ! وكان يرحل لطلب الحديث الواحد ، حتى جمع فى هذه الذاكرة العجيبة ، ما عند المحدثين جميعاً، وكان يعيش للعلم يفكر فيه نهاره كله ، ويفكر فيه ليله ، يقوم فى الليل يشعل السراج ويكتب شيئاً أو يعلم على حديث ، ثم ينام قليلاً ، ثم يخطر له خاطر جديد ، فيقوم ، حتى أنه ليشعل السراج فى الليلة الواحدة أكثر من

عشرين مرة ، وقد أجمع علماء عصره على أنه الأستاذ الأكبر لعلم الحديث ، وكان أساتذته يرجعون إليه ، ويعرضون عليه مؤلفاتهم وقد يفخرون بأنه نظر فيها ، وصحح لهم أخطاءها ، لم يكونوا يبالون بأن يأخذوا عمن كان تلميذهم ، لأن غايتهم العلم ، لا حظ النفس ولا نيل الدنيا .

وقد تعجبون إذا سمعتم أنه حفظ مليون حديث ، وتقولون ، وكيف تبلغ أحاديث الرسول هذا العدد ؟

يا سادة ، لقد وقع فى هذا الخطأ مؤلف من أكبر مؤلفى العصر هو أحمد أمين فى فجر الإسلام ، وسبب هذا الخطأ الجهل باصطلاح المحدثين . إن الحديث له متن هو الكلام المروى عن الرسول - ﷺ - وسند وهو طريق انتقاله إلينا ، عن فلان عن فلان ، وقد يكون للمتن الواحد عشرون سنداً ، فيعد بذلك عشرين حديثاً . فمن هنا جاء هذا العدد الضخم .

وهاكم حادثاً واحداً يدلكم (إن صح) على ذاكرة البخارى العجيبة ، وهو أنه لما قدم بغداد فى شبابه ، أحب بعض المحدثين ، أن يختبروا حفظه ، فعمدوا إلى مائة حديث ، فخلطوا متونها بأسانيدها ، فوضعوا سند هذا لذاك ، وسند ذاك لهذا ، وجاؤوا بعشرة تلاميذ ، فحفظوا كل واحد ، عشراً من الأحاديث المهوشة (المشوشة) ليسألوه عنها ، فلما قعد فى الحلقة قام الأول ، فقال : أتعرف حديث كذا ، وسرد الحديث الأول ، قال : لا أعرفه ، قال : فحديث كذا . . . حتى استوفى العشرة . ثم قام الثانى . وهكذا ، حتى سردوا الأحاديث المائة ، وهو يقول : لا أعرفه ، فلما انتهوا . قال : أما الحديث الأول فروايته كذا وصوابه كذا . . . حتى أعاد المائة بخطئها وصوابها .

وهذه حادثة ثابتة وهى من أعجب حوادث الحفظ ، وليس العجيب حفظه المائة الصحيحة ، ولكن العجيب كما يقول الإمام ابن حجر حفظ المائة

المغلوطة من مرة واحدة .

عرض هذه الأحاديث كلها ثم اختار منها أصحها وأثبتها ، فوضعه فى كتابه الذى بدأه فى المسجد وبقى فى تأليفه ست عشرة سنة والذى جمع فيه 2761 حديثاً فقط .

* * *

هذا هو (صحيح البخارى) الذى اتفق المسلمون على أن كل ما فيه صحيح السند ، وأنه خير كتب الحديث ، وإن فضل بعض المغاربة صحيح مسلم في حسن تبويبه ، وترتيبه ، والذى اعتنى به أجل عناية فشرح ثلاثة شروح كبار ، أجلها شرح ابن حجر العسقلانى فى (فتح البارى) ، ثم شرح العينى ، ثم شرح القسطلانى ، والذى اختصر فى مختصرات عديدة وما زال العلماء يشتغلون به . يقبلون على الاستفادة منه والعمل به ، مع العلم بأنه إذا جاء فيه أو فى غيره ما يخالف القرآن ، مخالفة يتعذر التوفيق بينها وبين القرآن أو ما يناقض الواقع المشاهد ، نحكم بأن رسول الله - ﷺ - لم يقله ، ولكن الراوى - وإن كان عدلاً - قد توهم أو أخطأ روايته .

ولم ينج البخارى من (المحنة)[1] ، محنة خلق القرآن ، ولقد ناله منها أذى وضر ، وفارق من أجلها بلده . ومات فى سمرقند التى فتحها قتيبة ليلة عيد الفطر سنة 256 .

مات ولكن لم يمت اسمه ، ولم يمت كتابه ، وسيظل أبداً باقياً ما بقى على الأرض مسلمون .

جزاه الله عن حديث نبيه أفضل ما يجزى العلماء العاملين .

---

(1) المحنة والابتلاء والفتنة معناها كلها أو من معانيها الامتحان .

العَالِمُ النَبِيــــلُ

أحب قبل أن أشرع فى الحديث اليوم ، أن أقول كلمة لا أجد من مقالتها بداً ، هى أن أسألكم : هل يمكن أن يدخل معلم على صف اختلط فيه تلاميذ الابتدائية وطلاب الجامعة ، ثم يقول ما يفهمه الجميع ، ويرضى عنه الجميع ؟ تقولون : لا . فكيف إذن يا سادتى ... كيف أستطيع أن أرضيكم جميعاً ، ومنكم العالم ، ومنكم الأديب ، ومنكم الطالب ، ومنكم البياع الشراء ، ومنكم المرأة فى بيتها ، والعامل فى معمله ؟ وكيف أسوق الحديث [1] لكم جميعاً ؟وأنا إن سهلت الحديث ، وقصرته على قصص واضحة ، وحكايات مفهومة ، قال العلماء وطلاب الجامعة : إنه حديث تافه ، وإن سموت به وجعلته تحليلاً نفسياً ، وبحثاً علمياً ، قال العامة وقالت النساء : إنه حديث غامض ، لذلك عزمت أن أجعل بعض هذه الأحاديث للخاصة ، وبعضها للعامة ، أحرص مرة على إمتاع هؤلاء ، ومرة على أرضاء هؤلاء ، فمن وجد حديثاً من هذه الأحاديث على غير ما يريد ، فليرتقب غيره فلعله يجد فيه مراده .

***

وحديث اليوم عن عالم يختلف عن كل من كنت حدثتكم عنه من العلماء ، فليس فى التقى والصلاح كأحمد بن حنبل ، ولا فى الاجتهاد والفقه كأبى حنيفة ، ولا فى الزهد والورع كسعيد بن المسيب ، ولا فى الجرأة والصراحة كالحسن البصرى ، ولا فى الرواية والحفظ كالبخارى ، ولكنه يمتاز بشىء

(1) أعنى حديث الإذاعة .

غير هذا كله ، بالنبل والسيادة ، والشخصية الاجتماعية القوية ، وأنه رجل بلاط ، ورجل دين ، في وقت معاً ، سيطر على أقوى الخلفاء العباسيين ، عقلاً : المأمون ، وأقواهم جسماً : المعتصم ، وكان له عليه سلطان عجيب ، وكانت كلمته لديه هي القانون ، ولطالما سخر هذه المنزلة لرد المظالم ، ورفع الأذى ، وإقامة الحق ، ولطالما استنقذ بها أناساً من تحت سيف الجلاد ، ولكن على هذا كله كان يعمل على نصر مذهب المعتزلة وإيذاء أئمة السنة .

هو أحمد بن أبى دؤاد .

وهاكم بعضاً من مواقفه أسردها على سبيل التمثيل ، لا على قصد الاستقصاء . كانت الدولة قسمين ، تركية وعربية ، والجيش جيشين : أتراكاً وعرباً ، وكان زعيم الأتراك على عهد المعتصم ، (وهو الذى فتح هذا الباب ، وزرع هذا السم ، وجاء بالأتراك) كان زعيم الأتراك الأفشين ، فاعتد على أبى دلف (وكان من أكبر زعماء العرب) ذنوباً ، حكم عليه فيها بالقتل ، وبلغ الخبر ابن أبى دؤاد فذهب إليه ، وما كان من عادته أن يزوره ، فأرادوا إدخاله البهو الكبير حتى يفرغ الأفشين فيستقبله فأبى ودخل مجلسه ، وأبو دلف مقيد فى وسطه ، والسياف على رأسه ، والأفشين يقرِّعه ويشتمه ، وأبو دلف ـ إن كنتم لا تعرفونه ـ هو بطل العرب ، الفارس الجواد الممدح الذى قال فيه العكَوَّك الشاعر :

إنما الدنيا أبو دلف ... بين بادية ومحتضره
فإذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

فراح ابن أبى دؤاد يستعطف الأفشين ، ويلِّين قلبه ، ليعفو عن أبى دلف ، وهو لا يزداد إلا عتواً ، فلما رأى الجد منه ، وعلم أنه إن خرج قُتل أبو دلف ،

أقدم على أمر عظيم ، لا يقدم عليه غيره فقال له : إلى متى أستعطفك وأسألك وأنت تأبى ؟! إنى رسول المعتصم إليك ، يأمرك ألا تحدث بأبى دلف حدثاً ، وإن مسه سوء أو قتل ، فإنه قاتلك به . وقال للحاضرين : اشهدوا على أنى بلَّغته رسالة أمير المؤمنين ، والقاسم (أى أبو دلف) حى معافى ، وتركه وقد صار وجهه بلون الزعفران ، وذهب من فوره إلى المعتصم ، فقال له : لقد بلغت رسالة عنك ما أرسلتنى بها ، وأخبره الخبر ، فقال له المعتصم : نعم ما فعلت ، وكف يد الأفشين عن أبى دلف [1] .

***

وغضب المعتصم مرة على خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، الفارس العربى البطل ، ابن الفارس العربى البطل ، الذى قال الشاعر فى رثاء أبيه ، هذه القصيدة النادرة المثال ، المنسوبة لصريع الغوانى ومطلعها :

أحــق أنـه أودى يـــزيـــد ... تبيـن أنه الناعـى المشيـد

ومنها :

أحامى الملك والإسلام أودى ... فما للأرض ويحك لا تميد

تأمل هـل ترى الإســلام مالـت ... دعائمه وهل شاب الوليد ؟

وتشفع فيه فلم يشفعه المعتصم ، فجلس دون مجلسه المعتاد ، فقال له المعتصم : مجلسَك يا أبا محمد ! قال : ما ينبغى لى أن أجلس فيه ، لأن الناس يظنون إن جلست فيه أن لى من أمير المؤمنين ما أشفع به فأشفع ، قال :

(1) ومن كتب له أن يزور اليوم آثار (سر من رأى) ، وهى من أعظم الآثار الإسلامية لأنها مدينة طول الباقى من أنقاضها نحو خمسين كيلاً ، وفيها شارع عرضه مئة ذراع وطوله نحو عشرة أكيال ، رأى البلد قسمين ، القسم التركي وفيه المسجد الجامع ومنارته الملوية العجيبة ، القسم العربى وفيه مسجد أبى دلف ، هذا البطل الزعيم الكريم الذى أنقذه من القتل ابن أبى دؤاد واقرؤوا ما كتبته عن سر من رأى فى كتابى (بغداد) وفى (الذكريات) التى نشرتها (دار المنارة) .

عد إلى موضعك . قال : مشفعاً أو غير مشفع؟ قال : بل مشفعاً . قال : إن الناس لا يعلمون أنك عفوت عنه حتى تخلع عليه ، فأمر فخلع عليه ، قال : يا أمير المؤمنين ، إن له رواتب ستة أشهر فمر له بها تقم مقام الجائزة . فأمر له بها ، فخرج والخلع عليه والمال بين يديه ، فناداه رجل : مرحباً بك يا سيد العرب ، قال : اسكت ويحك : سيد العرب ابن أبى دؤاد .

وغضب المعتصم مرة على رجل من أهل الجزيرة ، وجاء به ليقتل على ذنب أتاه ، فتكلم فيه ابن أبى دؤاد ، ثم غلبه البول - ولا مؤاخذة - فخاف إن خرج ولم يستوف الكلام أن يقتل الرجل ، ولم يعد يطيق الصبر ، وكانت ثياب تلك الأيام كثيرة ، فجمع ثيابه تحته وبال فيها ! وأنقذ الرجل . فلما قام قال المعتصم : ما لثيابك مبتلة ، فسكت . فأعاد عليه . فأخبره الخبر . فكاد يغشى عليه من الضحك .

وكان المعتصم يرد الشيء اليسير يُسأله ، فيدخل عليه ابن أبى دؤاد فيكلمه فى أهل الثغور وأهل الحرمين وأهل المشرق فيجيبه . وسأله مرة صرف ألف ألف درهم (مليون درهم) لحفر نهر فى أقصى خرسان وجر الماء إلى بلاد هناك عطشى . قال المعتصم : وما على من هذا النهر ؟ قال : يا أمير المؤمنين إن الله يسألك عن أقصى رعيتك كما يسألك عن أهلك ومن حولك ، ولم يزل يرفق به حتى أمر بصرفها .

وله مع المعتصم لما مرض واشتد عليه المرض خبر عجيب ، إذ جاء يعوده ، ورأى الموت بين عينيه ، فشكا إليه المعتصم ما يلقى من الألم . فقال : يا أمير المؤمنين إن فى السجون آلافا من الأبرياء ، وهم وأهلوهم يدعون عليك ، ودعوة المظلوم سهم صائب ، فلو أطلقتهم لانقلبت هذه الألسنة بالدعاء لك . فأمر بإطلاقهم . قال يا أمير المؤمنين : إنهم يعودون إلى « أهليهم صفر

الأيدى ، ما معهم شيء ، فلو أمرت أن ترد عليهم أموالهم ويعطوا العطايا .
فأمر بذلك .

وله أخبار كثيرة لا يتسع لها المجال ، ولو أن كل عالم يتصل بالحاكم يسير معه هذه السيرة ، ويتخذ منزلته وسيلة لرفع الظلم ، ورد الحق ، وإقرار العدل ، لصلح الحاكم وصلح أمر الناس .

ولم يبلغ هذه المنزلة بوساطة أو شفاعة أو نسب ، ما بلغها إلا بنبوغه وعلمه . كان من أصحاب القاضي يحيى بن أكثم ، فأمره المأمون يوماً أن يجيئه هو ومن فى مجلسه ، فدخل ابن أبى دؤاد على المأمون ، ذلك اليوم ، فرأى علمه وبيانه وعقله . فما زال يقربه حتى ولاه قضاء القضاة (وزارة العدل) بدل يحيى ، ووصى به أخاه المعتصم .

وكان عالماً من أكبر علماء المعتزلة ـ والمعتزلة طائفة ربما تكون مظلومة ، قد دون التاريخ أخبارها بعد انقراضها بأيدي أعدائها ، فكذّب عليها ، ونسب إليها ، ما لم يكن منها ، ولكن إن تزيدوا عليها ، فليست مبرأة مما نسبوه إليها ، ومن ظلم وقع منها ، وبدع جاءت بها .

وكان بليغاً من أبلغ بلغاء عصره ، وكان راوية ، دخل على المأمون ، وهو يسأل عمن أسلم من الأنصار ليلة العقبة ، فعدهم جميعاً بأسمائهم وأنسابهم .

وكان شاعراً بليغاً مقل ، وقد عده دعبل فى كتابه مع الشعراء وروى له .
ومن نبله وعلو منزلته ، أن الخلفاء لم يكونوا يُبدؤون بالكلام ، وإنما يتكلمون فيجيبهم الناس . وهو أول من افتتح الكلام معهم ، وكان معهم بين الأدب والعزة ، ويكلمهم كلام الكفء ، قال له المأمون مرة : إذا جالس الخليفة عالماً فمثلك ، قال : وإن جالس العالم خليفة فمثل أمير المؤمنين . فانظروا إلى هذا الجواب العظيم ، وما فيه من الاعتزاز بكرامة العلم ، وما فيه من الأدب مع

الخلفاء . وكان يحسن التصرف ويجيد مخاطبة الملوك ، ومن قوله : ثلاثة ينبغى أن يبجلوا وتعرف أقدارهم : العلماء ، وولاة العدل ، والإخوان ، فمن استخف بالعلماء أضاع دينه ، ومن استخف بالأمراء أضاع دنياه ، ومن استخف بالإخوان أضاع مروءته .

* * *

وكان يقرب الشعراء والأدباء ، ويحميهم . وقد انقطع إليه اثنان : أحدهما أعظم شعراء العصر العباسى [1] وهو أبو تمام ، والثانى أعظم كتابه وهو الجاحظ .

وعادى رجلين كبيرين ، عادى الأول للدين . والثانى للدنيا . أما الذى عاداه للدين فأحمد بن حنبل [2] ، هو الذى سبب له الأذى ، وهو الذى كتب هذه الصفحة السوداء فى تاريخنا صفحة المحنة بخلق القرآن ، التى كانت سبة للمعتزلة ، محت من أذهان الناس مزاياهم وطمست ذكراهم .

وأما الذى عاداه للدنيا ، فهو الوزير الأديب الشاعر ابن الزيات ، وكان بينهما خصام ظاهر ، وهجاء طويل ، وكان العلو أولاً والظفر لابن الزيات ، ولما صدر المرسوم بأن يقوم له كل من فى المجلس إذا دخل ، كان ابن أبى دؤاد إذا رآه داخلا ، وقف للصلاة ، ولكنه ما زال به يسلط عليه عقله ، حتى نكب ابن الزيات ، وزال من الطريق .

* * *

وعاش ابن أبى دؤاد إلى أيام المتوكل فأصابه الفالج ، وعزل ، ولكنه بقى نبيلاً فى مرضه كما كان نبيلاً فى صحته . ولم يؤثر العزل ، ولم تؤثر النكبة فى

(1) ولست أستثنى المتنبى .

(2) وكان الحق مع أحمد بن حنبل . وهو أفضل منه ، وأجل قدراً ، وأقوم سبيلا .

نفسه ولا فى أعصابه . ولما مات رثى بمراث ندر أن يرثى بمثلها أحد ، كما مدح بمدائح ندر أن يمدح بمثلها أحد .

فمن مدائحه قول أبى تمام :

لقد أنست مساوىء كل دهر　　محاسن أحمد بن أبى دؤاد

وما سافرت فى الآفاق إلا　　ومن جدواك راحلتى وزادى

وقول مروان بن أبى الجنوب :

لقد حازت نزار كل مجد　　ومكرمة على رغم الأعادى

فقل للفاخرين على نزار　　ومنهم خندف وبنو أياد

رسول الله والخلفاء منا　　ومنا أحمد بن أبى دؤاد

ولما مات قام على قبره ثلاثة من الشعراء فقال الأول :

اليوم مات نظام الملك واللَّسَن

ومات من كان يستعدى على الزمن

وأظلمت سبل الآداب واحتجبت

شمس المكارم فى غيم من الكفن

وقال الثانى :

ترك المنابر والسرير تواضعاً　　وله منابر لو يشا وسرير

ولغيره يجبى الخراج وإنما　　تجبى إليه محامد وأجور

وقال الثالث :

وليس فتيق المسك ريح حنوطه　　ولكنه هذا الثناء المخلف

وليس صرير النعش ما تسمعونه　　ولكنه أصلاب قوم تقصف

الفقيه الأميرال [1]

نحن اليوم فى تونس ، فى تونس الخضراء ، قبل ألف ومائتى سنة بالضبط [2] .

نحن فى يوم من أيام سنة 172 للهجرة ، فى يوم مشهود ، يوم سفر طالب من طلبة العلم إلى المشرق للدرس والتحصيل .

ونحن نرى الطلاب إذا أرادوا التحصيل ، يذهبون فى أيامنا إلى الغرب ؛ لأن الغرب أرقى . أما يومئذ فكانوا يأتون من الغرب إلى الشرق ، لأن الشرق ؛ كان أرقى رقياً ، وأعظم حضارة .

ولا تعجبوا فإن الدهر دولاب ، والأيام دول ، والتاريخ شاهد ما نقول : بدأت الحضارة من الشرق ، من مصر والعراق والشام ، ثم انتقلت إلى الغرب ، إلى يونان ورومة ، ثم عادت إلى الشرق ، إلى دمشق وبغداد والقاهرة ، ثم رجعت إلى الغرب ، إلى باريس ولندن وواشنطن ، وما هى ذى بدأت تعود إلى الشرق .

ستعود بلا شك ، بفعل تلك المطامع الأشعبية ، والقنبلة الذرية ، والحرب الساحقة الماحقة التى تسعى إليها تلك الدول . . . وبفضل الذخيرة الكبرى من الخير والبطولة التى أودعها محمد ـ ﷺ ـ فى دمائنا .

---

(1) الأميرال : أصلها عربى (أمير الماء) . وهو لقب قائد الأسطول عند الأندلسيين ، المغاربة وقد كتبت اللفظ الأفرنجى لموضع المفارقة بين وضعى الفقيه والأميرال .

(2) لأنَّ هذا الحديث أذيع سنة 1372 .

عفوكم عن هذا الاستطراد ، وأعود إلى الموضوع .

هذا الشاب الذى اجتمع أهل تونس لوداعه ، عمره ثلاثون سنة ، غريب عن تونس ، أصله من نيسابور ، وولد فى ديار بكر [1] ، وذهب أبوه إلى المغرب فى الحملة التى جردها المنصور للقضاء على ثورة البرابرة ، فنشأ فى تونس وأخذ العلم عن علمائها ، حتى إذا استوفى ما عندهم ، عزم على الرحلة ، وما كانوا يرحلون لنيل المتع ، وجلب الشهادات ، بل كانوا يرحلون للعلم وحده ، وما كان سفرهم سهلاً ، ولا مريحًا ، بل كان سفراً طويلاً شاقاً يمتد الطريق فيه أشهراً طوالاً .

هكذا رحل هذا الشاب : أسد بن الفرات . فارق تونس سنة 172 وتنقل فى البلدان ، وجاب صحارى ، وركب بحاراً ، حتى وصل المدينة ، وكان للعلم مركزان ، جامعتان كبيرتان : جامعة محافظة ـ إن صح التعبير ـ تعنى بالنقل وبدراسة النصوص ، مقرها المدينة وأستاذها الأكبر مالك ، وجامعة مجددة . تميل إلى النظر العقلى ، والبحث الحقوة ، ومقرها العراق ، وأستاذها الأكبر أبو حنيفة .

فقصد جامعة المدينة ، وكانت الجامعات هى الجوامع ، ففيها حلقات العلم كله ، علوم اللسان وعلوم الدين ، ولزم الإمام مالكاً .

وكانت لمالك هيبة فى الصدور ، فلا يجرؤ أحد عليه ، وكانت طريقة تلاميذه معه الاستماع ، والإقلال من المناقشات ، فلا يفرضون الفروض ، ولا يقدرون الوقائع التى لم تقع ، ويضعون لها الأحكام ، كما يصنع علماء العراق ، بل يسألون عما وقع من الأحداث ، ولا يلحون فى السؤال ، ولم تعجب هذه الطريقة الشاب التونسى ، فجعل يفرِّع من كل مسألة مسألة ، ويلح

(1) سكنت قبائل بكر بن وائل تلك الديار من قبل الإسلام فسميت بها ونسبت إليها .

فى طرح الأسئلة عليه ، ورأى منه تلاميذ مالك هذه الجرأة ، فكانوا يحملونه أسئلتهم أيضاً ليلقيها على الإمام مالك ، حتى ضجر مالك ، وقال : إن كان كذا كان كذا ، سلسلة بنت سلسلة . إن أردت هذا فعليك بالعراق !

***

صحب مالكاً سنتين ثم أزمع الانتقال إلى الجامعة الأخرى ، جامعة العراق ، فدخل على الإمام مودعاً شاكراً وسأله أن يوصيه .

فقال له : « أوصيك بتقوى الله ، والقرآن ، والنصيحة للناس » .

ثلاث كلمات جمعت الفضائل كلها .

أما تقوى الله فرأس الأمر وملاكه ، ومن لم يكن فى قلبه تقوى لله ، لم ينفعه علم ولا عمل ؛ لأن التقوى روح العلم ، فمن كان عالماً بلا تقوى كان علمه جسداً بلا روح : جيفة ! وكان وبالاً عليه . ومن كان عاملاً بلا تقوى كان عمله رياء ، وكان حَسَنُه بالرياء قبيحاً .

وأما القرآن فعماد الدين ، وجماع العلم ، وطريق كل خير .

وأما النصيحة فهى الخلق كله ، النصيحة هى صدق القول ، وصدق المعاملة ، وأن تريد لكل امرئ ما تريد لنفسك . .

***

ورحل إلى العراق . . .

وكان الإمام أبو حنيفة قد مضى إلى رحمة الله ، وولى أستاذية مدرسته تلاميذه يقدمهم [1] أبو يوسف ومحمد .

وكان الإمام أبو يوسف فقد شغل بالقضاء . وأما الإمام محمد فقد تصدر

(1) قدم القوم يقدمهم (على وزن نصر ينصر) أى تقدمهم .

للتدريس وللبحث ، وانتهت إليه رياسة العلماء ، حتى كان من تلاميذه الإمام الشافعى ، أستاذ الإمام أحمد [1] ، فلزمه هذا الشاب المغربى ، فكان يحضر دروسه العامة ، ثم أحب أن يكون له درس خاص ، يغرف فيه ما استطاع من علم الإمام محمد ليحمله إلى بلاده ، درس خاص . .

انتبهوا ـ أرجوكم ـ وتأملوا الموقف .

أستاذ كبير له آلاف التلاميذ ، وتجيئه كل يوم عشرات المسائل ليفتى فيها ، يقدم عليه شاب غريب مجهول ، فيسأل أن يقطع له من وقته الثمين ، حصة خاصة به ، وماذا ترونه يقول له ؟

ماذا يصنع الأستاذ الكبير فى إحدى جامعات الغرب اليوم ، إن جاءه تلميذ شرقى ، فطلب منه هذا الطلب يطرده ، أو يعتذر إليه بلطف ، وإذا كان كريماً جداً ، أعطاه ساعة فى الشهر ، أو فى الأسبوع .

أما الإمام محمد ، فقد أخذ هذا الشاب المغربى إلى بيته ، وأعطاه غرفة بجنب غرفته ، وكان يسهر معه الليل ، يضع أمام التلميذ قدح ماء ، فإذا نعس نضح وجهه ليصحو .

وما طلب منه أجراً ، ولا سأله مالاً ، بل كان هو الذى يطعمه ويسقيه ؛ ذلك لأن العلم كان فى رأى أسلافنا الأولين عبادة ، وكان قربة إلى الله ، فالطالب يطلب العلم لله ، لا للشهادة ولا للدنيا ، والأستاذ يعلم العلم لله ، لا للمرتب ، ولا للمنصب .

ومن ذلك أيها السادة ـ ظهر فى تاريخنا أولئك الأئمة والأعلام ، الذين كانوا منار الهدى ، وكانوا أساتذة الأرض ، وألفوا هذه المؤلفات الكبار التى لا

(1) وليس ذلك قادحاً بالشافعى ولا أحمد فالعلماء يأخذ بعضهم عن بعض . ويطلب اللاحق ما عند السابق .

نقدر نحن اليوم على قراءتها ، فضلاً عن نسخها ، فضلاً عن تأليف مثلها[1] .

ولبث أسد بن الفرات أمداً مع الإمام محمد .

وكان أسد أول من نعرفه جمع بين مذهب مالك ومذهب أبى حنيفة ، وبين مدرسة المدينة النقلية ، ومدرسة العراق العقلية .

ثم أزمع الرحلة إلى مصر . . .

وكان يتصدر التدريس فى مصر ، عالمان من تلاميذ الإمام مالك ، أشهب وابن القاسم ، ولم يكن قد نشأ الشافعى ، وكان كلاهما مجتهداً يخالف إمامه فى بعض المسائل ، ، ولكن أشهب فيه حدَّة ، وفى لسانه طول ، وفى ابن القاسم أناة ولين .

لزم أشهب حتى سمعه يوماً يرد فى مسألة على أبى حنيفة ومالك ، بلفظة خشنة ، فغضب أسد وكان كما عهدناه صريحا جريئاً . فصرخ به على ملأ من الناس وقال له قولاً فظيعاً .

إن سمحتم رويته لكم .

قال له : ما مثلك ومثلهما [2] ، إلا كمثل رجل أتى بحرين زاخرين فبال بينهما فرغى بوله ، فقال : هذا بحر ثالث ! وفارقه إلى ابن القاسم فلزمه مدة . وجمع ما أخذه من ابن القاسم من مسائل ، وأفاض عليها من ذهنه الذى اختمرت فيه علوم تونس والمدينة والعراق ، وجعلها فى رسالة (مدوّنة) سماها الأسدية .

وأراد الطلاب نسخها فأبى ، وقال عملتها لنفسى ، فرفعوا عليه دعوى .

---

(1) كلسان العرب ، ونهاية الأرب ، وصبح **الأعشى** ، **والمبسوط والمجموع** ، وتاريخ بغداد وأمثالها ، وما أكثر أمثالها .

(2) بل هذا مثل من يتطاول فى هذه الأيام ، على العلماء الأعلام .

دعوى طريفة جداً ، حار فيها القاضى ، ثم حكم بأن الكتاب يجمع مسائل ابن القاسم ، وابن القاسم حى يستطيع المدعون أن يأخذوا منه مثل ما أخذ أسد . وحكم برد الدعوى .

رد الدعوى قضاء ؛ لأنه لم يجد نصاً ملزماً ، ولكنه توسط شخصياً . فرجا أسداً أن يعطيهم الكتاب ، ففعل وتناقلوه عنه .

وقدر الله لهذا الكتاب أن يكون أساس الفقه المالكى كله

* * *

ورجع إلى القيروان عاصمة المغرب . المدينة العربية التى أنشأها البطل الفاتح عقبة بن نافع ، وكان فى المغرب حكومة مستقلة استقلالاً داخلياً هى حكومة بنى الأغلب .

رجع بعد غيبة امتدت نحواً من عشرين سنة صرم نهاراتها ، وأحيا لياليها ، بالعلم والدرس ، ولم يضع فيها لحظة فى راحة ولا لعب . ولم يصحب فيها إلا الأئمة والعلماء . ما صحب ذا لهو ، ولا ذات جمال .

وكان عمره قد قارب الخمسين ، فجلس للتدريس والإقراء يوفى دينه . يعطى التلاميذ مثل ما أعطاه الأساتذة : لله لا لأجر أو منصب ، وصارت مدونته الكتاب الرسمى لكل مدرسة مالكية ، وأخذها عنه سحنون ، ومضى سحنون فى رحلة إلى المشرق فقرأها على ابن القاسم نفسه . وكان رأى ابن القاسم قد تبدل فى بعض المسائل ، فكتب إلى أسد ليعدل المدونة فأبى ، فأخذ الناس (مدونة) سحنون ، وصارت مرجع المذهب المالكى ، وبنيت عليها الشروح والحواشى كلها ، واشتهرت باسم مدونة سحنون ، وإن كان أصلها لأسد .

أمضى عشرين سنة فى العلم ثم جاءه المنصب ، فقلد القضاء مع أبى محرز ، وكان للمدعى الخيار فى مراجعة أحد القاضيين ، وإن كانت نظرية الإمام محمد ـ صاحب أبى حنيفة ، نابغة التشريع الإسلامى ـ أن المحكمة هى محكمة المدعى عليه ، كما هو الرأى الآن .

وكان القاضيان من قضاة الجنة إن شاء الله ، ولكن أبا محرز فيه لين ، وأسد أسد فى الحق ، ولما قام والى القيروان منصور الطبرى بثورته واستولى على القيروان ، دعاهما ليقراه على ثورته ، وبين نقائص الأمير الذى ثار عليه . أما أبو محرز فخاف ، وأما أسد فأجابه جواباً حاسماً صارماً .

❊ ❊ ❊

هذا خبر أسد طالب العلم ، وأسد الفقيه ، وأسد القاضى ، فاسمعوا الآن خبر أسد القائد الأميرال .

حكم المسلمون أطراف البحر المتوسط من نصف الساحل الشرقى إلى نصف الساحل الغربى . وكان الساحل الجنوبى كله لهم ، والشمالى تحت حمايتهم ، وفى ظلال رايتهم ، تربطهم عهود بإيطالية وصقلية ، فجاء زعيم صقلية لاجئاً إلى أمير المغرب الأمير زيادة الله ، وخبره أن حكومة صقلية نقضت العهد ، وحبست أسرى المسلمين ، وأساءت إلى الجالية الإسلامية .

وتردد الحاكم فى قبول الخبر ، وأحب أن يقف على حكم الشرع فيه ، هل يكفى هذا الإخبار لاعتبار المعاهد ة منتهية وإعلان الحرب ؟

ودعا القاضيين يستفتيهما . أما أبو محرز فلم ير ذلك كافياً ، وأما أسد فقال : إن المعاهدة إنما أبرمت على أيدى الرسل ، وإخبار الرسل كاف لنقضها .

فلما أفتاه أسد شرع يجهز الأسطول .

وطلب القاضى أسد أن يكون مع المجاهدين ، فأبى الأمير خوفاً عليه وضنًا به ، فألح وألح ، وقال : وجدتم من يسير لكم المراكب من النوتية ، وما أحوجكم إلى من يسيرها لكم بالكتاب والسنة .

فلما رأى منه الجد ، ولاه إمارة الحملة .

وكان يريد أن يكون جندياً متطوعاً ، لا يريد الإمارة فلما أعطيها ، تألم ، وقال للأمير : أبعد القضاء والنظر فى الحلال والحرام ، تعزلنى وتولينى الإمارة.

ذلك لأن القضاء كان فى عرفهم فوق الإمارة .

فقال : ما عزلتك عن القضاء ، ولكن أضفت إليك الإمارة ، فأنت قاض وأمير .

وكان أول من جمع له المنصبان .

* * *

جهز الأسطول ، وكان مؤلفاً من ثمان وتسعين قطعة حربية ، فيه جيش من عشرة آلاف راجل وتسعمائة فارس .

وخرج الناس للوداع فى ميناء سوسة ، وكان يوم لم ير المغرب مثله ، وتكلم الحاكم والخطباء ، وقام القاضى الأمير ليتكلم .

أحرزوا ماذا قال ؟

لا ، لم يَزْهُ و[illegible] ولم يملأ الجو تهديداً للعدو ، وإبراقاً وإرعاداً وفخراً عارماً ، ولكن جعل من هذا الموقف مدرسة ، وعاد مدرساً . فقال :

« والله يا معشر الناس ما ولى لى أب ولا جد ولاية قط . وما رأى أحد من

أسلافى مثل هذا قط ، وما بلغته إلاَّ بالعلم ، فعليكم بالعلم ، أتعبوا فيه أذهانكم ، وكدوا به أجسادكم ، تبلغوا به الدنيا والآخرة » .

***

كأنكم تتساءلون ، وماذا يصنع هذا الشيخ بقيادة الأسطول ؟ ومن أين له العلم بالحرب والبحر وما درس فى مدينة بحرية ، ولا مارس أمور الحرب والقتال ؟

لقد نجح يا سادة نجاحاً منقطع النظير ، وهاكم قصة تدلكم على شدة مراسه، وقوة بأسه ، وأنه ـ كاسمه ـ أسد غاب .

لما طالت أيام المعركة ، وقلت الأقوات ، تململ بعض الجند ، وتحركت عناصر الشغب والفساد ، وأحكموا أمرهم ، وعزموا على العصيان، وحفوا بالقاضى الأمير أسد بن الفرات ، وأقبل زعيمهم أسد بن قادم ، يعلن رغبة الجند فى العودة إلى ديارهم .

وهى رغبة ظاهرها الطاعة ، وباطنها الثورة ، فقابلها أسد بالحكمة أولاً وراح يبين لهم قرب النصر ، وعظم الأجر ، فما ازدادوا إلا عتواً . وتقابل الأسدان ، وتجرأ الثائر فقال : على أقل من هذا قتل الخليفة عثمان بن عفان !

ومعنى هذا إعلان الثورة ! فماذا يصنع الفقيه القاضى ؟ .

أيستخذى ويخضع ؟ ويضيع المعركة ، ويخسر النصر المرتقب ، من أجل ثورة عاصفة ، يقوم بها جند مشاغبون ؟ أم يشتد ويحزم ؟ وماذا يصنع إذا هو اختار الشدة والحزم ؟

لقد صنع أيها السادة ما لا يصنع مثله أبطال الروايات الخيالية : تناول السوط من يد أحد الحرس ، وانتصب أمام الثائر وضربه على وجهه أولاً

وثانياً . ولبسته قوة سماوية خارقة هى قوة الإيمان ، صرخ بالجند : (إلى الأمام) . وتقدمهم ، وكان الظفر ، وكان الفتح ، وكان ابتداء الدولة الإسلامية فى صقلية التى امتدت قروناً ، ولكن الثمن كان غالياً .

لقد استشهد القائد البطل الفقيه القاضى أسد بن الفرات !

هوى وهو يحمل راية النصر ، ولم يعرف له قبل .

هوى طاهر الأثواب لم تبق روضة　　غـادة ثوى إلا اشتهت أنها قبـر

عـليك سـلام الله وقفاً فإننى　　رأيت الكريم الحر ليس له قبر [1]

* * * *

(1) البيتان لأبى تمام من قصيدته التى لم يقل شاعر قصيدة فى الرثاء مثلها .

بانى مُرَّاكِش

هذا الحديث عن عبقرى من عباقرة التاريخ الإسلامى ، وعن موقعة من أعظم المواقع الحربية فى تاريخ الشرق والغرب ، ولابد لى قبل الكلام على هذا الرجل العبقرى ، وعلى هذه الوقعة الفاصلة من شىء من التمهيد التاريخى .

* * *

أعود بكم إلى القرن الخامس ، وأذهب بكم إلى صحارى المغرب الأقصى .

وقد كانت هذه الصحارى يومئذ لقبائل (زناته) فزاحمتها من الجنوب قبائل جديدة ، أقوام بعدد الحصى والرمال يعرفون بالملثمين ؛ لأنهم يتلثمون أبداً فى الحرب وفى السلم ، ويذكرون فى تعليله أن العدو أغار عليهم مرة ، وكان الرجال بعيدين عن الحى ، فلبس نساؤهم لباس الرجال ، وتلثمن وركبن الخيل ، فحسبهم العدو رجالاً ، وخاف وهرب فلزموا اللثام من ذلك اليوم تبركاً به ، وكانوا جن الحرب ، ومردة المعارك ، وكانوا عجائب فى الشجاعة والإقدام .

وكانوا فى الأصل على جهالة مطبقة ، فأحب زعيمهم أن يعلمهم الإسلام وأن ينور به قلوبهم ، فاختار فقيها من القيروان اسمه الشيخ عبد الله الجزولى ، وكان هذا الشيخ وحده سبب هداية هذه الخلائق ، ونقلها من ظلمة الجهل إلى نور الإيمان ، ومن الصحارى الإفريقية الجنوبية ، إلى ملك المغرب كله

والأندلس ، وهو الذى جعل كل واحد من الملثمين ، داعية إلى الله ، ومجاهداً فى سبيله كل[1] طاغية يقف فى وجه هذه الدعوى ، ويمنعها أن تسير ، ولم يكن سبب هذا النجاح أنه كان أعلم الناس علماً ، وأنه كان أفصحهم فصاحة ، فلقد كان فى الناس من هو أعلم منه وأبلغ ، ولكن سببه الأوحد أنه كان مؤمناً حقاً ، وكان متحمساً راغباً فى الإصلاح ، وأنه لم يكن يطلب الجاه ولا المال ولا الضياع ولا اللذات ، بل يطلب الله والدار الآخرة .

وكانوا يعرفون بالملثمين فسماهم المرابطين ، وكان هذا الفقيه هو الحاكم ، وهو الذى يصرف الأمر ، ولكنه مع ذلك لم يدع الإمارة ، بل تركها ليحى اللمتونى ، ولما مات ولى مكانه أخاه أبا بكر اللمتونى ، وتوفى هذا الفقيه بعدما أسس الأسس ، وأقام الدعائم لدولة المرابطين ، التى ظللت رايتها فيما بعد المغرب كله ، من تونس إلى البحر الأطلنطى والأندلس ، وما خص نفسه يوماً بطيب مأكل أو لين ملبس ولم يكن له أرب فى النساء . ومن هنا ترون أن عالماً واحداً يدعو إلى الله بإخلاص ، يحيى به الله أمة كاملة .

***

وانفرد أبو بكر اللمتونى بعد موت الفقيه الجزولى بالأمر ، فجاء بشاب من بنى عمه اسمه يوسف بن تاشفين فولاه قيادة شطر من الجيش أبقاه فى صحراء المغرب ، ليتم العمل الذى بدأ به الشيخ الجزولى ، وعاد هو إلى الجنوب ، إلى بلاد قومه من (لمتونة) ، لأن امرأة من قومه ظلمت فنادت : لقد ضيعنا أبو بكر.

فقال لها : لبيك . وأسرع إلى بلاده يقيم الحق والعدل فيها ويصلح من أمرها ، ويجاهد الكفار من حولها ، وبقى ابن تاشفين فى الشمال .

ولا نعرف من أين جاء ابن تاشفين ، ولا ندرى كيف نشأ ، ولا يحدثنا

(1) كلمة (كل) مفعول به لاسم الفاعل : مجاهد

التاريخ عن ذلك شيئاً ، ولا نعرفه إلا يوم ولى هذه القيادة . . ولى القيادة ، ولم يكن للمرابطين إلا الصحراء يعيشون فيها بدواً رحَّلاً ، ويسيطرون على قبائلها ، فسار بهم ابن تاشفين إلى المدن ، إلى فاس ، حاضرة المغرب ، وكبرى مدنه ، فافتتحها ، وأقام عليها أميراً يحكم بكتاب الله وسنة رسوله . ثم توجه إلى طنجة ، فى طريق ما سلكها قبله جيش ، فافتتحها وأقام عليها أميراً . وما زال يفتح المدن ، مدينة بعد مدينة ، حتى فتح مدن المغرب الأقصى كلها ، ثم ملك الجزائر ، ثم توجه إلى تونس فغلب عليها . وكان فى كل بلدة أمير يظلم الناس ، وحكومة تعيث فى الأرض فساداً ، فجعلها كلها حكومة واحدة ، من تونس إلى البحر . . البحر الذى بلغه من قبل الفاتح الإسلامى عقبة بن نافع فخاضه بفرسه وقال : اللهم لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً فى سبيلك ، حتى أفتح الأرض كلها أو أموت .

وعاد ابن تاشفين ، فاختار موضعاً نزهاً ، حوله جبال تطيف به من بعيد ، اسمه مراكش ، ومعناها بلغة البربر : (مرّ مسرعاً) لأنه كان مأوى للصوص وقطاع الطرق فبنى فيه مدينة مراكش ، سنة 465 هـ ؛ وعاد أبو بكر فاستقبله ابن تاشفين وأظهر له الخضوع ، ولكنه لما رأى ما بلغه من القوة والأيد ، ترك الأمر له وعاد من حيث جاء ، يجاهد فى الصحارى الجنوبية حتى مات شهيداً ، وانفرد ابن تاشفين بالأمر .

* * *

وكان ابن تاشفين هذا نحيف الجسم ، أسمر اللون ، خفيف اللحية ، دقيق الصوت ، يحسبه من يراه ويسمعه رجلا ضعيفاً مسكيناً ، فإذا خبره وجده الأسد قوة ومضاء ، والصقر حدة بصر ، وسرعة انقضاض ؛ وكان محارباً ليس له نظير ؛ وقائداً من الطبقة الأولى من القواد ، وكان خيراً عادلاً يميل إلى

أهل العلم والدين ، ويكرمهم ويجعلهم أصحابه وبطانته ، ويحكمهم فى نفسه وفى بلاده ، ويتبع حكمهم ما داموا يتكلمون بلسان الشرع ، ويحكمون بحكم الله ، وكان يحب الصفح ، ويميل إلى العفو ، مهما عظم الذنب وجلت الخطيئة ، وكان زاهداً متقشفا لم يستأثر بمطعم ولا مشرب ، ولم يرتفع فى عيشه عن عيش أفقر رعاياه ، فعاش حياته كلها لم يعرف القصور الفخمة ، ولا الموائد الحافلة ، ولا حياة السرف والترف ، لم يأكل إلا خبز الشعير ولحم الإبل ، ولم يشرب إلا لبن النياق ، وكان قوى الجسم مشدوداً شد الوتر ، وبقى على ذلك حتى قارب المائة . وكانت الألقاب فاشية فى الأندلس ، فكل من حكم فيها بلدة ، أو سيطر على ناحية من الأرض ، اتخذ أبهة الملك ، وألقاب السيادة ، وهو قد أسس دولة من أكبر دول الإسلام وبنى مدينة من أجل المدائن ، ورضي بأن يكون تابعاً للإمامة العظمى ، لأنه كان يرى رأى الإسلام ، وهو أنه لا يجوز أن يكون المسلمون إلا دولة واحدة ، وكتب إلى الخليفة العباسى يستمد منه الإمارة ، فأرسل إليه بمرسوم الولاية على المغرب ، وسمى نفسه (أمير المسلمين) ، وأعلن أنه تابع للخليفة فى بغداد .

* * *

فى هذا الوقت الذى انتقل فيه المغرب الإسلامى من الفرقة والانقسام والضعف إلى الوحدة والقوة ، وزالت على يد الفقيه الجزولى ، والقائد ابن تاشفين ، هاتيك الدويلات الصغار ، وقامت الدولة الكبيرة ، كانت الحال فى الأندلس على العكس ، فقد زالت دولة الناصر ، ودولة المنصور من بعده ، وقامت هذه الحكومات الصغيرة المتنافرة المتناحرة ، التى لا يفتأ كبيرها يغير على صغيرها ، وكل جارة منها تعتدى على جاراتها . وبلغ الأمر إلى ما هو شر من ذلكم ، إلى أن صارت كل دولة منها تستعين على أختها بالإسبان ، بالعدو المشترك ، الذى يتربص بالجميع ، ويكيد للجميع ، ولم يسلم من هذا الخزى

أحد منهم !

وأخذ الإسبان يستفيدون من هذا الخلاف ، ويأخذون من أطراف البلاد الإسلامية ، وكلما فتحوا طريقاً للعداوة بين دولتين من هذه الدول الهزيلة ، دخلوا منه يوغلون فى بلاد الإسلام ، ويتقدمون أبداً إلى الأمام [1] . وجعلت المدن تساقط فى أيديهم واحدة بعد واحدة ، فلا ينتبه المسلمون ، حتى سقطت طليطلة ، وهى قلعة الإسلام ، فكانت سقطة لها دوى رج الأندلس ، فأفاق هؤلاء الأمراء وأيقنوا أن الهوة قد تفتحت تحت أقدامهم ، وأنهم جميعاً ساقطون فيها ، إذا لم يتحدوا ويتجمعوا ، وكانوا جميعاً يدفعون الجزية للأذفونش (الفونسو ملك قشتالة) حتى كبيرهم المعتمد بن عباد الملك الشاعر ، فلما أخذ طليطلة لم يعد يرضى بالجزية ، وعزم على أخذ البلاد . فتوجهوا جميعاً تلقاء المغرب ، ورأوا أنه لا نجاة لهم إلا إذا استنجدوا بأمير المسلمين : ابن تاشفين . وكان القائم بهذا ابن عباد ، فخوفوه من طمع ابن تاشفين فى الأندلس ، واستيلائه عليها ، فقال كلمته المشهورة : أنا أعرف هذا ، ولكنى أفضل أن أرعى جمال أمير المسلمين عن أن أرعى خنازير ملك الإسبان !

وكان مرجع أمراء الأندلس لابن عباد ، فلما رأى هذا أخذوا برأيه ، وكتبوا كتاباً واحداً بلسانهم جميعاً يستقدمون به ابن تاشفين ، ولبى الطلب ، وحشد جيشاً ضخماً وجاز به البحر إلى الأندلس ، وكان الأذفونش فى حرب ابن هود أمير سرقسطة ، فلما بلغه عبور ابن تاشفين ، ترك حربه وجمع أمراء النصارى فى جيش واحد ، وتوجه ليلقى به ابن تاشفين الذى انضم إليه أمراء المسلمين جميعاً ، ومشى الجيشان إلى المعركة الفاصلة ، التى اجتمعت فيها جيوش النصرانية كلها فى جانب ، وجيوش الإسلام فى جانب ، ولم يكن الفريقان قد اجتمعا من قبل أبداً فى جيش موحد . وكان اللقاء فى سهل أفيح

---

(1) كما يصنع اليهود الآن فى لبنان (1985) .

بالقرب من مدينة بطليوس سمى (سهل الزلاقة) ، وكانت الوقعة يوم الجمعة في الخامس عشر من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، أى قبل تسعة قرون[1] .

اصطف الفريقان ، حتى لقد نقل ابن خلكان أنه لم يكن فى ذلك السهل الواسع موضع قدم لم يكن فيه جندى مستعد ، ، ولا تزال الأمداد تتوالى من الجانبين ، حتى لم يبق محارب من هؤلاء وأولئك إلا حضر المعركة .

وأخطأ ابن عباد خطيئة كادت تودى بجيوش المسلمين كلها ، خطيئة دفعته إليها شجاعته ، ونسى أن الرأى قبل شجاعة الشجعان ، ذلك أنه باشر القتال قبل أن يصل ابن تاشفين إلى الميدان واضطرب أمر الجند الإسلامى ، وأخذ الناس على غير تعبئة وغير استعداد ، فصار أمرهم فوضى ، ودهمهم فرسان النصارى ، فحطموا كل مقاومة إسلامية ، وسحقوا كل ما كان أمامهم، وسقط ابن عباد صريعاً ، قد أصابه جرح غائر ، وفر رؤساء الأندلس يائسين وظن الأذفونش أن ابن تاشفين مع المنهزمين لما رأى ذلك ابن تاشفين ، هجم بنفسه يتلقى بصدره صدمة فرسان الإسبان يحف به أبطال المغرب ، وضرب الطبول الضخمة فارتجت الأرض ، وطويت تحت أقدامهم ، ووقف الهجوم الإسبانى ، ثم شق جيش الإسبان واخترقه حتى احتل قيادة الأذفونش، فلما صار فيها عاود الإسبان الهجوم أشد وأقوى من الهجوم الأول، فانخرقت جبهة المسلمين ، ولكنهم عاودوا الهجوم واحتلوا القيادة مرة ثانية ، فهجم الإسبان ثالث مرة هجوم المستميت اليائس فترجل أمير المسلمين ابن تاشفين وهو يومئذ شيخ فى نحو الثمانين ، وترجل معه نحو أربعة آلاف من حشمه السودان ، ووقفوا كأنهم جدران الصخر ، وبأيديهم الأتراس والسيوف، وقفز واحد منهم على فرس الأذفونش ، فقبض على عنقه بيد ، وطعنه بالثانية

(1) من يوم إذاعة هذا الحديث من (إذاعة دمشق) .

بخنجره فى فخذه فاخترق الخنجر الدرع والعظم ودخل فى سرج الفرس وفرّ وفخذه معلقة بالسرج ، ووقعت الهزيمة الكبرى فى جيش الإسبان وكان النصر .

وكانت معركة من أعظم المعارك الفاصلة فى تاريخ البشر ؛ فقد اجتمعت فيها لأول مرة قوى الإسلام كلها فى الأندلس والمغرب فى وجه قوى النصرانية كلها فى إسبانيا ، وكانت معركة شديدة أظهر فيها الفريقان من البراعة والشجاعة ، ما يجرى من غرابته مجرى الأمثال ، وظهرت فيها مزايا التربية الصحراوية ، فانهزم أبطال الأندلس حتى المعتمد بن عباد فارس العصر ؛ ولم يثبت إلا بنو الصحراء ، الذين لم يفسدهم ترف الحضارة ، ولا نعيم القصور ، وبدلت مسير التاريخ ، فقضت على هاتيكم الدويلات الهزيلة المتنافرة المتناحرة التى كانت تدفع الجزية للإسبان عن يد وهى صاغرة وتستعين بهم على حرب أخواتها فى اللسان والدين ، وعادت للأندلس وحدتها تحت الراية الإسلامية الكبرى ، وكانت على وشك السقوط فأخرت هذه المعركة سقوطها أربعمائة سنة ، كل ذلك بعمل هذا الرجل النحيف الضامر الخافت الصوت ، الذى كان يومئذ شيخاً فى نحو الثمانين من عمره . هذا الشيخ البدوى البربرى الذى لم ينشأ فى المدن الكبار ، ولم يرها فى صدر حياته ، ولم يتعلم فى المدارس ولم يدخلها ، ولم يكن ينطق بالعربية ولا يكاد يفهمها ، ولم يعرف فى عمره لذة النعيم ومتع العيش ؛ ولكنه مع ذلك أقام دولة من العدم ، دولة تقيم حكم الله ، وتتبع شريعة الرسول الأعظم ـ ﷺ ـ دولة امتدت من تونس إلى الأطلنطى إلى آخر الأندلس ، ولم يدّع الاستقلال فيها ، ولا اتخذ ألقاب السلطان ، ولكنه قنع بأن يكون أميراً تابعاً اسماً للخليفة العباسى فى بغداد .

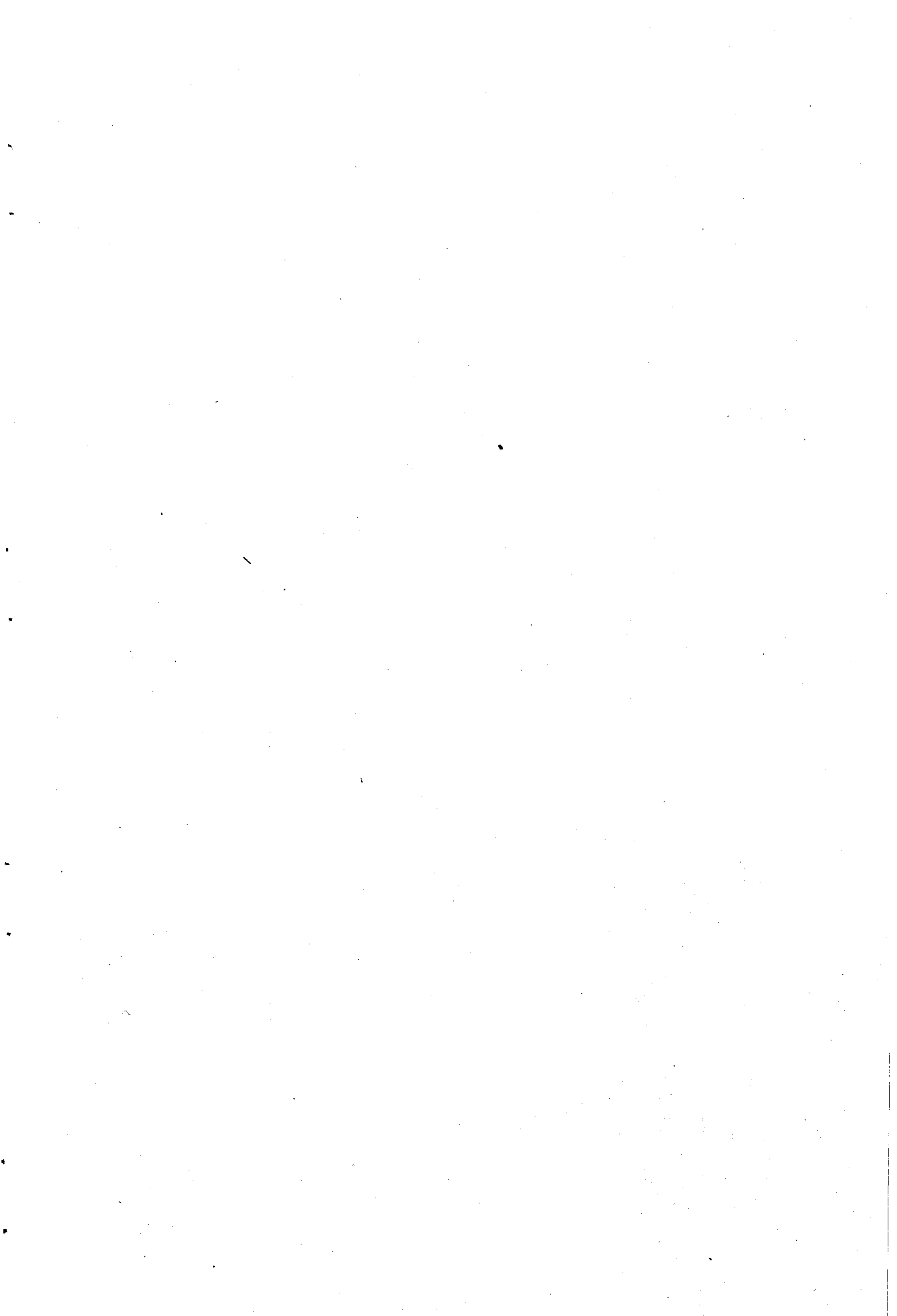
يا سادتى ويا سيداتى :

إن تاريخكم فياض بالبطولات والمفاخر والمكارم ، ولكنكم لا تكادون تعرفون تاريخكم .

* * *



- الصقر الأموى
- قراقوش المفترى عليه
- فاتح المشرق
- من ورثة الأنبياء
- الإمام الأعظم



الصَّقرُ الأموى

هل قرأتم قصص المغامرات الكبرى ، أو رأيتم أفلامها ؟ تصوروا أغرب قصة ابتكرها خيال أديب لتروا ، أن أعجب قصص الخيال لا تبلغ حقيقة هذه القصة التاريخية الواقعة التى جئت أحدثكم الليلة عنها .

قصة رجل رمته الحياة بأدهى الدواهى ، ونزلت به إلى الحضيض الذى يدعو أشد الناس أعصاباً إلى الجنون أو الانتحار ، فقفز قفزة واحدة من حضيض الإخفاق إلى ذروة الفلاح والنجاح .

* * *

وكانت دمشق فى عهد مظلم من عهودها السود ، يحكمها حكام صغار النفوس ، كبار المطامع والأهواء ، جبنوا عن المكارم والفتوح ، وجرؤوا على المعاصى والفسوق ، جمعوا بين الطغيان على الناس والعبودية للشيطان ، همهم حفلات اللهو ومجالس الطرب ، يبذرون الأموال على الشعراء للدعاية ، وعلى المغنين للذة ، وعلى النساء والخمور ، ناموا على ملذاتهم وسهر أعداؤهم ، وسكروا بنشوة السلطان ، وخمرة الهوى ، وصحا خصومهم ، واضطجعوا على فراش الملذات ، وقام مناوئوهم يستعدون ليوم النزال . . .

غفلوا عن ساهر حول الحمى   باسط من ساعدى مفترسى

حام حول الملك ثم اقتحما   ومشى فى الدم مشى الضرس [1]

أولئك هم بعض ولاة بنى أمية فى أواخر العهد بأمية ، نسى الأحفاد منهم

(1) من موشحة شوقى .

سيرة الأجداد، ونزعت أمية ثوب الجهاد ، وطوت أمية راية الفتوح ، واستكانت أمية إلى اللهو والدعة . واختفت من أفق الدولة تلك الكواكب النيرة ، وغابت من سجلاتها تلك الأسماء الكبيرة ، فلم يعد فيهم مثل معاوية ولا عبد الملك ولا الوليد ولا عمر بن عبد العزيز ، ولم يعد فى ولاتها مثل زياد والحجاج ، ولا فى قوادها قتيبة وابن القاسم ، والمهلب وطارق . واعتلى سرير الخلافة خلفاء صغار ضعاف .

ظلمت أمية وفجرت ، والظلم والفجور توأمان ، ما كان الحاكم قوياً قديراً إلا كان عادلاً ، ولا كان عاجزاً قاصراً إلا كان ظالماً يستر ضعفه عن الفضيلة بظلم الرعية .

وذاقت أمية عاقبة ظلمها :

أعد الحطب فى الخفاء ، وهيئ البارود ، ولم يبق على انبعاث النار إلا أن تقدح الشرارة الأولى . وطارت الشرارة من أقصى الأرض ، من خراسان[1]، واندلعت النار ، ولم يعد ينفع نذير الوالى البصير نصر بن سيار .

وفتشت أمية عن الرجل الذى يعيد سيرة أخلافها الأول : معاوية وعبدالملك ، ووجودته وكان مروان . . . وكان مروان كاسمه صخراً صلداً ، وكان رجلاً حقاً ، ولكنه جاء مع الأسف والدنيا مولية ، والنهار آفل ، والنار قد اندلعت وامتدت حتى وصلت ما بين المشرقين وضاعت أمية إلى الأبد .

وضاع العرب ، وما أضاعهم إلا الانقسام ، والعصبية الجاهلية ما بين قيسية ويمانية ، وتلكم مصيبة العرب أبداً ، ولو كان العرب متحدين ولو كانوا صفاً واحداً ما حكمهم أمس عبيد المعتصم من الأتراك ولا مماليك المماليك من كل أمة ، ولا غلبهم اليوم على فلسطين كلاب البشر وجراثيم الإنسانية

(1) خراسان هى الجزء الجنوبى من أفغانستان .

اليهود . . .

وحكم الفرس دولة الإسلام باسم بنى العباس .

فخلت من أمية القصور ، وامتلأت بأمية القبور ، وجفتهم أعواد المنابر ، وعانقت أجسادهم الجذوع ، وتتبعت الدولة الجديدة بنى أمية قتلاً وحرقاً وإهلاكاً ، لم يفلت منهم إلا شاب واحد ، هو البطل الذى أحدثكم عنه : عبدالرحمن بن معاوية بن هشام وأخوه الطفل الصغير ، ابن ثمانى سنين ، وخادمه بدر .

هؤلاء بقية الأسرة التى حكمت ثلث المعمور من سطح هذه الأرض ، ورفعت راية الإسلام على أقطار لم تكن تدرى ما الإسلام . كان الإسلام ممتداً من آخر حدود فارس إلى آخر حدود مصر ، فوصلته من هنا إلى الهند وتخوم الصين ، ومن هناك إلى وسط فرنسا ، ووصلت جيوشها إلى أسوار القسطنطينية وإلى جبال الحبشة .

هؤلاء الثلاثة هم بقية الشم الأماجيد من عبد الشمس ، فإن يذهبوا لا يبق فى الأرض أثر من عبد شمس ، وكانت الدنيا كلها عليهم : الدولة والجيش والناس ، كان الناس لما ذاقوا من أواخر خلفاء أمية حرباً على الأمويين جميعاً . تألبت الدنيا كلها على أمية ، ونسيت فتوح أمية ، ولكن أمية هى التى زرعت الظلم فحصدت الهلاك ، والناس ينسون فضل الأسلاف إن عم ظلم الأخلاف ، والناس يغفرون كل شىء إلا أن يتخم الحاكم بجوع الشعب ، ويشترى لذاته بألم الشعب ، ويحرم الشعب ليعطى مغنية أو شاعراً ، ثم إن الناس مع كل قائم ، فإلى أين يفر ، وماذا يصنع ؟ أين يذهب والبلدان كلها قد خضعت للسفاح من بنى العباس ، وأين يختفى والناس كلهم يدلون عليه إن عرفوه . وليس معه معين إلا غلامه بدر ، ولا مال إلا جوهرة وصلت إلى ابن

أخته ، لو أخرجها ليبيعها لعرفوه بها فقتلوه .

إنه موقف مقطوع فيه الأمل ، ولكن عبد الرحمن لم ييأس . كانت لعبدالرحمن أعصاب قدت من الفولاذ ، وبصر كأنه ينظر من وراء الغيب ، وعقل لا تدنو إلى إدراك تفكيره العقول ، رمى ببصره إلى البلدان ، فوجدها كلها مغلقة دونه ، وعرضها بذهنه حتى ألم بها كلها ، فلم يجد إلا الأندلس ، ولكنه كان فى العراق ، وأين أنت يا أندلس من العراق ؟

ولم ييأس ومشى إلى الأندلس ، ودون الأندلس صحارى وجبال ومهالك ، ودون الأندلس سدس محيط الأرض .

واعترضه الفرات فألقى بنفسه يسبح فى الفرات ومعه أخوه ، وكلت قوى الطفل ونادوه بالأمان ، فاغتر ورجع ، ولم يسمع نصح أخيه ، فذبحوه أمامه وهو يبصر ويرى ، ولم يبق معه إلا غلامه بدر .

وانطلق يمشى ، يمشى فى الليل ويختبئ فى النهار ، من قرية إلى قرية ، ومن ركن إلى ركن والطريق لا ينتهى ، وأى طريق ، طريق الأندلس يا أيها الناس . . تصوروا أن عليكم أن تمشوا من دمشق إلى بيروت بلا زاد ولا راحلة . . ! أتصورتموها ؟ فكيف بعبد الرحمن وعليه أن يمشى من أطراف العراق إلى الشام ، ومن الشام إلى مصر ، ومن مصر إلى طرابلس ، ومن طرابلس إلى تونس ، ومن تونس إلى الجزائر ، ومن الجزائر إلى أقصى المغرب ثم يعبر البحر وهو فقير ضعيف مطارد منفرد ما معه إلا غلامه بدر .

ويا ليت أن لدىّ مذكرات له فيما رأى فى طريقه وما شاهد ، إذن لكانت أعجوبة العجائب فى قصص المغامرات ولكنها لم تكتب .

ووصل الأندلس ، وكانت الأندلس فى معزل عن الدولة ، لم تدر بما جد من أحداث وما كان من انقلاب ، ولم يشغل العرب فيها أنهم مهددون من هنا

بالإسبان ، ومن هنا بالبربر ، ومن بعيد بالفرس من أنصار العباسيين ، لم يشغلهم هذا كله عن شنشنتهم الأولى ، عن الخلاف ، عن العصبية بين القيسية واليمانية ، هذا الخلاف الذى أفسد تاريخنا كله وبقى فينا ، بقيت آثاره فى لبنان إلى ما قبل قرن واحد إلى مذبحة (عين دارة) .

واستطاع هذا الطريد الشريد أن يرمى نفسه فى المعمعة وأن يكون سياسياً كأبرع سياسى فى الدنيا ، فيفرض نفسه على الناس فرضاً ، حتى انقادوا له ، وكذلك ينقاد الناس للعبقرية وللبيان ، وأن يكون قائداً كأبرع قائد فى التاريخ ، يخوض المعارك ، ويدير الحروب حتى صار سيد الأندلس .

إن سيرة عبد الرحمن الداخل ، أروع سيرة فى تواريخ الأمم للأمل الذى يذيب الصعاب كما تذيب الشمس جبلاً من الثلج ، والهمة التى تضم المشرق إلى المغرب ، والعبقرية التى تنشئ وتشيد من العدم وجوداً ضخماً . الرجل الطريد الذى استلم إرث أمية ملطخاً بالوحل ، مغموساً بالدم ، فجعله أسمى من النجم ، وأبهى من سنا الشمس [1] . الرجل الذى أنشأ دولة عاشت قرنين ونصف ، وأخرجت مثل الناصر والحكم ، وسجد على أعتابها ملوك الإفرنج والروم .

يا شباب العرب ، إن فى تاريخكم أروع أمثلة البطولة والسمو الإنسانى ، فلا تكتفوا بقراءة التاريخ ، ولكن اعملوا على أن تكتبوه بأعمالكم ، وأنا لم أحدثكم اليوم حديث عبد الرحمن الداخل ، ولكن ذكرتكم به لترجعوا فتقرؤوا تاريخه .

---

(1) وقد صنع مثل ذلك عبد العزيز . حين جاء الرياض وهى فى يد عدوه وما معه إلا رجال لا يبلغون المائة ، وتركها وهى عاصمة الجزيرة العربية التى وحدها بعد الفرقة ، وقواها بعد الضعف . وجعل منها دولة لها بين الدول مكان ، وذكرها على كل لسان .

قراقوش المفترى عليه

حدثتكم من شهور حديثاً ، صححت فيه خطأ شائعاً ، وبرأت فيه متهماً مظلوماً ، حين رددت باطل المتنبى ، وبينت حق المؤرخين فى كافور الملك العادل الذى صغره المتنبى وهو عظيم ، وسيف الدولة الذى جعله المتنبى أعدل الملوك ، وكان على براعته فى الحرب من ظَلَمة الحكام .

ولقد جئت أحدثكم اليوم عن رجل راح ضحية الأدب المفترى ، كما راح كافور بعده ضحية الشعر الظالم . هو قراقوش .

وقراقوش المسكين ، الذى صار على ألسنة الناس ، فى كل زمان وكل بلد المثل المضروب لكل حاكم فاسد الحكم ، فكلما أراد الناس أن يصفوا حكماً بالجور والفساد ، قالوا : هذا حكم قراقوش .

وهم يحرفون اسمه ، فوق تحريف تاريخه ، فيقولون : قراقاش بدل قراقوش ، وقراقوش معناها بالتركية : و النسر الأسود ـ (قوش : نسر ، قرا : أسود) .

إن قراقوش يا أيها السامعون له صورتان : صورة تاريخية صادقة ، وصورة روائية صورها عدو له من منافسيه .

والعجيب أن الصورة التاريخية الحقيقية طمست ونسيت ، والصورة الخيالية الباطلة بقيت وخلدت ، فلا يذكر قراقوش إلا ذكر الناس هذه الحكايات العجيبة ، وهذه الأحكام الغريبة ، التى نسبت إليه ، وافتريت عليه .

فمن هو قراقوش ؟ .

هو أحد قواد بطل الإسلام صلاح الدين الأيوبى ، كان من أخلص أعوانه ومن أقربهم إليه ، ، كان قائداً مظفراً ، وكان جنديًا أمينًا وكان مهندساً حربياً منقطع النظير .

وكان مثالاً كاملاً للرجل العسكرى ، إذا تلقى أمراً أطاع بلا معارضة ولا نظر ولا تأخير ، وإن أمر أمراً لم يرض من جنوده بغير الطاعة الكاملة ، بلا اعتراض ولا نظر ولا تأخير .

وكان أعجوبة فى أمانته ، لما أحس الفاطميون بقرب زوال ملكهم شرعوا يعبثون بنفائس القصر ، ويحملون منها ما يخف حمله ويغلو ثمنه ، وكان القصر مدينة صغيرة ، كدس فيها الخلفاء الفاطميون [1] خلال قرون ، من التحف والكنوز والنفائس ، ما لا يحصيه العد ، ولو أن عشرة لصوص أخذوا منه ما تخفى الثياب ، لخرج كل منهم بغنى الدهر ولم يحس به أحد .

فوكل صلاح الدين قراقوش بحفظ القصر ، فنظر فإذا أمامه من عقود الجواهر والحلى النادرة ، والكؤوس والثريات ، والبسط المنسوجة بخيوط الذهب ، ما لا مثيل له فى الدنيا ، هذا فضلاً عن العرش الفاطمى ، الذى كان فيه من أرطال الذهب ، ومن نوادر اليواقيت والجواهر ، ومن الصنعة العجيبة ما لا يقوّم بثمن [2] .

وكان فى القصر فوق ذلك من ألوان الجمال فى المئات والمئات من الجوارى المتحدرات من كل أمم الأرض ، ما يفتن العابد .

فلا فتنه الجمال ، ولا أغواه المال ، ووفى الأمانة حقها ، ولم يأخذ لنفسه شيئاً ، ولا ترك أحداً يأخذ منها شيئاً .

---

(1) كذا يدعونهم الناس وليسوا على التحقيق من الفاطميين .

(2) ومثله عرش الطاووس الذى تعتز به اليوم إيران وما هو لها ، إنما هو لشاهجهان بانى (تاج محل) أجمل بناء على هذه الأرض .

وهو الذى أقام أعظم المنشآت الحربية ، التى تمت فى عهد صلاح الدين ، وإذا ذهبتم إلى مصر ، وزرتم القلعة المتربعة على المقطم ، المطلة على المدينة ، فاعلموا أن هذه القلعة ، بل هذه المدينة العسكرية ، أثر من آثار قراقوش .

وإذا رأيتم سور القاهرة ، الذى بقى من آثاره إلى اليوم ما يدهش الناظر ، فاعلموا أن الذى بنى السور ، وأقام فيه الجامع ، وحفر البئر العجيبة فى القلعة هو قراقوش .

ولما وقع الخلاف بين ورثة صلاح الدين ، وكادت تقع بينهم الحروب ، ما كفهم ولا أصلح بينهم إلا قراقوش .

ولما مات العزيز الأيوبى ، وأوصى بالملك لابنه المنصور ، وكان صبياً فى التاسعة من عمره ، جعل الوصى عليه والمدبر لأمره قراقوش ، فكان الحاكم العادل ، والأمير الحازم ، أصلح البلاد ، وأرضى العباد .

هذا قراقوش ، فمن أين جاءت تلك الوصمةالتى وصم بها ؟ ومن الذى شوه هذه الصورة السوية ؟ .

إنها جريمة الأدب يا سادة .

لقد أساء المتنبى إلى كافور ، فألبسه وجهاً غير وجهه الحقيقى ، وأساء ابن مماتى إلى قراقوش فألبسه وجهاً غير وجهه الحقيقى .

ولم يعرف الناس من الاثنين إلا هذا الوجه المعار كوجوه الورق التى يلبسها الصبيان أيام العيد .

وابن مماتى هذا كاتب بارع ، وأديب طويل اللسان ، كان موظفاً فى ديوان صلاح الدين ، وكان الرؤساء يخشونه ويتحامونه ، ويتملقونه بالود حيناً وبالعطاء أحياناً ، ولكن قراقوش وهو الرجل العسكرى الذى لا يعرف الملق

ولا المداراة لم يعبأ به ، ولم يخش شره ، ولم يدر أن سن القلم أقوى من سنان الرمح ، وأن طعنة الرمح تجرح الجرح فيشفى ، أو تقتل المجروح فيموت ، أما طعنة القلم فتجرح جرحاً لا يشفى ولا يريح من ألمه الموت .

فألف ابن مماتى رسالة صغيرة ، سماها « الفافوش فى أحكام قراقوش » ووضع هذه الحكايات ونسبها إليه .

وصدقها الناس ، ونسوا التاريخ .

ومات قراقوش الحقيقى وعاش قراقوش الفافوش كما مات كافور التاريخ وعاش كافور المتنبى ، وكما نسى عنترة الواقع وعرف عنتر القصة .

وهذا يا سادة سلطان الأدب ، فيا أيها الأدباء ، اتقوا الله فى هذا السلطان ، ويا أيها الناس لا تخدعوا بتزييف الأدباء .

* * *

فاتح المشرق

إنَّكم لا تفهمون هذا الحديث إلا إذا وضعتم تحت أعينكم مصور العالم الإسلامى . أترون إلى هذه البلاد التى تمتد من ساحل المحيط الأطلنطى ، حتى لتكاد تتصل بساحل المحيط الهادى ، من فارس إلى الصين . إننا لم نفتح هذه البلاد لهواً ولا لعباً ، ولكن أرقنا فيها أنهاراً ، (أنهاراً حقاً) من دمائنا . وضحَّينا فيها بجبال ، (جبال حقاً) من أجسادنا . وسخَّرنا لها عبقرياتنا ، ووقفنا عليها بطولاتنا ، التى لم يعرف التاريخ إلا الأقل منها ، وبقى سائرها سراً فى ضمير الغيب ، واحتساباً عند الله .

ولكل منطقة قصة رائعة ، تقرؤها فتقول : هذه أروع قصص الفتوح ، فإذا قرأت الثانية ، رأيتها أجلُّ وأكبر . ولكل معركة قواد عباقرة تسمع أخبارهم ، فتقول : هؤلاء أعظم قواد الزمان ، فإذا سمعت أخبار قادة المعركة الأخرى قلت : هؤلاء أعظم وأقدر . وإذا أنت أمام سلسلة ذهبية لا تدرى أى حلقة فيها أثمن من الأخرى ، وأى مرحلة من مراحل الفتوح كانت أطول وأروع ؛ فتوح الشام ؟ أم العراق ؟ أم المغرب ؟ أم المشرق ؟ أم الروم والأناضول ؟ أم الأندلس وجزائر البحر ؟ .

لقد تعاقب على هذه الراية الإسلامية حتى بلغ بها الأفقين . وركزها فى المشرق والمغرب مئات من القواد ، منهم من وقف يدافع عنها ألا تتراجع ، ومنهم من رفعها بعدما كادت تميل ، وأعلاها وأعاد لها مجدها . ومنهم من مشى بها خطوات فى الطريق الوعر ، ومنهم من جزع [1] بها أقطار الأرض

(1) أى قطع .

وفتح بها الفتوح . وهذا الحديث عن قائد من هؤلاء القواد الكبار ، واحد من سادة المعارك ، وعباقرة الحروب فى التاريخ العالمى ، نابغة عبقرى من طبقة أنيبال والإسكندر ، وخالد وسعد ، وعقبة والمهلب وطارق ، ومحمد بن القاسم وصلاح الدين ونابليون .

عن الرجل الذى ضمَّ بسيفه إلى الوطن الإسلامى ، بلاداً أوسع من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنكلترا معاً ، بلاداً يسكنها أقوى شعوب العالم القديم على الحرب ، وأشدها تمرساً به ، وبراعة فيه ، وقدرة عليه .

رجل ما رفعه نسبه فقد كان من أخس قبائل العرب ، وأحطها منزلة ، من قبيلة كان يستحيى أبناؤها من الانتساب إليها ، ويضرب المثل عند ذكر الضَعَة بها ، ويرتفع العرب عن ذكرها . . من باهلة .

هو الشاب الذى اختاره الحجاج ، دون الكهول المجربين ؛ والقواد المشهورين ،ليتولى القيادة العامة لجيش المشرق ، ليكون خلفاً للقائد العظيم الذى لا أجد أحداً من قوادنا أشبه بخالد فى براعته وعبقريته منه ، المهلب [1] ، والذى عجب الناس من انتخابه لها ، و أنكروه ، ولولا خوفهم من الحجاج لعابوه وأبوه ، فلم تمض إلا مدة من الزمان حتى أثبت أنه من أقدر القواد ، وأن الحجاج كان ثاقب النظر ، صادق الفراسة ، عظيم الخبرة بالرجال .

الرجل الذى فتح من حدود إيران اليوم إلى أواخر تركستان ، والذى دخل الصين ، ولولا ما كان من الفواجع التى أودت به شاباً لفتح الهند والصين .

ألم تعرفوا بعد من هو ؟ إنه قتيبة ، قتيبة بن مسلم الباهلى .

كان مركز جيش المشرق مرو ، وكانت الفتن قد عصفت بذلك الجيش

---

(1) المهلب من أعاظم قواد الزمان ولكن أكثرنا يجهل أخباره .

الضخم الذى كان يقوده المهلب وابنه يزيد ، فلما عرضه قتيبة لم يجد فيه إلا ثلاثمائة وخمسين درعاً فالتجأ إلى آخر حمى يلتجئ إليه كل جيش فى الدنيا إلى الحمى الذى لا ينال من احتمى به ، إلى الحصن الذى لا يؤخذ من تحصن به وهو الإيمان ، فقام يخطب فى هذه البقية من جيش يزيد بن المهلب ، ويذكرهم الله ، ويرغبهم ثوابه ، ويحضهم على الجهاد ، الجهاد لإعلاء كلمة الله لا الجهاد للمال ولا للبطولة ولا للمجد ، الجهاد الذى لا يثمر إلا إحدى الحسنيين: الظفر أو الجنة .

هزَّ نفوسهم ، فطرح عنها أثقال الأحقاد والشهوات والأهواء ، فلما تخففت منها سمت بجناحين من الإيمان والإقدام ، إلى آفاق لم تكن تظن أنها تبلغها . فكانت هذه الكلمات حين مست جوانب الإيمان فى النفوس ، قد زادت الجيش عدداً إلى عدده ، وعُدداً إلى عُدده ، فإذا هو جيش جديد ، قوى ، لو رمى به المرامى لاستجاب له ، ولو قَحَمَ به البحر لاقتحمه ، ولو رام به الجبال لدكَّها . . . وكذلك تُجدَّد الجيوش تُعد للظفر .

وتوجه الجيش المؤمن على اسم الله ، لينشر الإيمان فى أرض لم ينتشر فيها . ويفيض النور على أمم لم تر بعدُ النور ، سار يصل الحلقات القديمة من سلسلة الفتوح الذهبية بحلقات جديدة ، سار ليتمم الرسالة ، ويحقق المعجزة ، ويحمل راية الإسلام مرحلة أخرى فى طريقها المرسوم ، حتى تتم رحمة الله للعالمين ، فتظلل الأرض كلها . وما هى إلا جولات حتى عجم الأعداء عوده ، وعرفوا أى سهم ماض رماهم به الحجاج ، فأقبلوا يتسابقون إلى الطاعة ، وجعلت تتساقط على قدميه التيجان ، وجاء ملك الطالقان ، وملك الصغانيان ، من ملوك الترك ، فقدَّما إليه مفاتيح من الذهب على وسائد من الحرير ، رمزاً للاستسلام بلا قيد ولا شرط ، وتبعهما الملك الكبير الداهية نيزك طرخان ،

ملك باذغيس (فى طرف الأفغان اليوم) فخضع له ، وتقدَّمت جيوشه ، فلم تلق معارضة تذكر ، حتى وقفت للمعركة الكبرى فى بيكند على أبواب بخارى، وقد تحالفت أمم الترك كلها على قتيبة ، وحصرته فانقطعت أخبار الجيش عن الحجاج ، شهرين كاملين ، حتى يئس ولم يبق لديه إلا اللجوء إلى الله ، وكذلك يا أيها السامعون يرفع الناس وجوههم إلى السماء ، كلما ضاقت عليهم سبل الأرض ، فيرون باب السماء مفتوحاً أبداً ، وإن غلقت عليهم أبواب الأرض كلها ، فأمر الخطباء بالدعاء لهم على المنابر .

وكان لقتيبة جواسيس فى جيش العدو ، فأغروا كبيرهم بأن يكون معهم على قتيبة ، وشروه على أن يغشه فجاءه وقال : أخلنى . فاختلى به ، وما معهما إلا واحد من القواد . فقال الجاسوس : إنَّ العدو كثير ، وإنَّ الحجاج قد عزلك وبعث آخر فى مكانك ، وأنا أرى أن تنسحب بالجيش . قال : أما كثرة العدو ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . وأما عزلى فأنا أقاتل لله لا للحجاج ، وأما أنت فقد خنت . وقرره فأقر فضرب عنقه ، وقال للقائد : لم يسمع هذا إلا أنا وأنت، وإن فهت به لألحقنك بالخائن.

وكانت المعركة ، واشتدت ، وصدقوا الحملة ، حتى زلزلت المدينة ، واضطرب جيش الأعداء ، فطلبوا الصلح ، وكانت المعاهدة . ولكنه لم يكد يرجع عنهم حتى نقضوا المعاهدة ، فعاد إليهم وصدمهم صدمة صدعت قلوبهم، وكانت الهزيمة وفتحت بيكند ، وأصابوا فيها من الأسلحة والعدد والأموال والكنوز ، ما لا يعلم عدده إلا الله ، وتولى قسمتها ابن وألان العدوى وكان يسميه الأمين ابن الأمين .

واسمعوا هذا الخبر عن أخلاق أولئكم الجند ، لتعلموا أنهم إنما غلبوا الأمم

وفتحوا الأرض بهذه الأخلاق .

طلب أحد القواد من ابن وألان أن يحفظ له نصيبه من الغنائم . قال : ابعث به إلى مكان كذا فترى رجلاً فادفعه إليه ، وأنا أضمنه ، وانتظره ابن وألان ، فتأخر ، فظن أنه عدل عن إيداعه فانصرف ، وجاء جندى من تغلب ، فلما وصل الرسول رآه فوضع المال وانصرف ، فلما لم ير الجندى أحداً ، أخذ المال إلى منزله ، واحتاج القائد إلى شيء من المال فطلبه من ابن وألان ، فقال : لم آخذ منك شيئاً ، قال : بل أخذته ، واختصما وشاع الخبر حتى بلغ الجندى فجاء يسأل القائد : وما مالك ؟ وما علامته ؟ قال : علامته كذا ، قال : هو عندى . وجاء به فدفعه إليه لم تحل عقدة حزمه ، وأبى أن يأخذ منه شيئاً .

وكان الجندى فقيراً والمال خمسمائة ألف درهم أى نصف مليون .

* * * * *

وتوجه الجيش إلى بخارى ، إلى البلد الذى استعصى من قبل على الفاتحين، فلم يُقدر عليه . فكتب إلى الحجاج ، فكتب إليه الحجاج : صور لى صورة البلد ، فأرسل له مصورها . فقال : ائتها من جهة كذا ، ورسم له الخطة وهو فى العراق !

واجتمعت الترك من أقطارها ، وهجموا على جيش المسلمين حتى أزالوا الجناحين وصدموا القلب ، وبلغوا مصاف النساء وقتيبة ثابت ، يسأل : أين محمد بن واسع ؟ وكان رجلاً صالحاً يصحبه فى غزواته . قالوا هو هناك يدعو الله ويشير بإصبعه إلى السماء ، قال : لهذه الإصبع أحب إلى من مائة ألف سيف شهير ، جاء النصر . من يبايع على الموت ؟ من يبيع نفسه من الله ؟ فتقدم كثيرون ، فاختار منهم ثمانمائة فدائى مؤمن ، كل واحد منهم بجيش ؛ لأن من أراد الموت لا يموت ، ومن استعان الله لا يغلبه بشر ، ومن نادى من قلبه (الله أكبر) لا يقوى عليه قوى ، ولا يكبر كبير ، وحملوا فكان الفتح .

وغدر نيزك ومن كان أطاع من الملوك وثاروا ، وجمعوا الجيوش ، ولكن قتيبة ضربهم ضربة قاصمة ، أطاحت برؤوسهم وأعادت البلاد إلى ظل راية محمد . ومشى ، مشى إلى الإمام حتى بلغ ما لم يبلغه قائد من قبل ، ولم يصل إليه فاتح، مشى حتى فتح فى عام واحد قطرين عظيمين : خجندة (خوارزم) وسمرقند، بعد معارك يشيب لها الولدان ، ثم مشى حتى دخل كأشغر أول بلاد الصين .

***

ولا أريد أن أصف الخاتمة المروعة التى ختم بها جهاد هذا المجاهد ، والميتة الفاجعة التى ماتها هذا البطل ، والتى كانت إحدى الثمرات المريرة ، لهذه الغرسة الملعونة التى غرسها فى تاريخنا معاوية ـ رحمه الله ـ. فمن شاء فليقرأ الخبر فى تاريخ الطبرى ، والبلاذرى وفى كل تاريخ . وإنى لأختمه بأغرب قصة فى تاريخ الحروب فى العالم . قصة لم يقع لأمة مثلها ولا أظن أنها ستقع لأمة .

لقد كان من قتيبة فى فتح سمرقند المدينة العظيمة شيء من الغدر . كما قال الناس ، فلما كانت خلافة الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ، رفع إليه أهل سمرقند دعوى على الجيش الإسلامى ، يدعون فيها أن بلدهم فتح غدراً . فأمر عمر بتأليف محكمة خاصة من قاض واحد لرؤية هذه الدعوى .

وجلس القاضى إلى سارية المسجد [1] ، وأحضر المدَّعين والمدعى عليه ، القائد العام للجيش الإسلامى ، وسمع أقوالهما ثم أصدر حكماً يستطيع القضاء الإسلامى أن يفخر به على كل قضاء فى الدنيا ، حكم ببطلان الفتح لأنه كان غدراً ، ولأنه خالف قواعد الإسلام فى الحروب ، وبخروج الجيش

(1) هى فى كتابى (قصص من التاريخ) مكتوبة بقلم الأديب ، لا مروية بلسان المؤرخ .

الإسلامى منها . وإعطائها مهلة للإستعداد . ثم إعلان الحرب من جديد ، ونفذ هذا الحكم الغريب وشرع الجيش بالإنسحاب ، ولكن أهل البلد ، المدعين، الذين شدهتهم هذه العدالة الإسلامية ، والذين ذاقوا نعمة الحكم الإسلامى فى هذه السنين الطويلة ، عادوا يطلبون طوعاً واختياراً أن يبقوا تحت راية الإسلام .

بهذا الإيمان وهذه الأخلاق ، لا بسيوفنا ورماحنا فتحنا العالم ، وأفضنا عليه نور الإسلام . وبمثل هذا الإيمان وهذه الأخلاق نستعيد فلسطين ، ونحرر من الاستعمار كل بلد إسلامى ، ونكتب صفحة أمجادنا فى التاريخ مرة أخرى إن شاء الله .

* * *

مِن وَرَثَـــةِ الأنبيـــاءِ

هذه قصة عالم . عالم أخلص للعلم حتى جعل طلبه أكبر غاياته . . وغاية حياته ، وكان ـ كما قال عن نفسه ـ يمشى الأيام فى طلب الحديث الواحد . وبلغ فيه منزلة شهد مكحول الدمشقي العلامة بأنه طاف الأرض كلها فى طلب العلم ، فلم يجد أعلم منه . وكان أحد بناة هذا الصرح العلمى الذى شاده العلماء من تلاميذ محمد ـ ﷺ ـ .

وكان فى هيبته وجرأته وصراحته مع الملوك أمة وحده .

وله مواقف مع عبد الملك والوليد والحجاج تقرؤها فتحسبها من أحاديث الخيال .

رفض عطاء السلطان . فتراكمت رواتبه حتى بلغت ثلاثين ألفاً فلم يأخذ منها درهما وكان له (400) درهم يتجر بها الزيت ويعيش منها .

وكان فقيهاً ، وكان محدثاً ، وكان أديباً ، وكان شاعراً . وبقى أربعين سنة لا يسمع الأذان إلا وهو فى المسجد ، ولم يبدل مكانه من الصف الأول .

طلبه عبد الملك مرة فأرسل مدير شرطته فوقف عليه فى الحلقة وأشار بإصبعه، أن تعال ، وأدار ظهره يحسبه قد مشى خلفه ، فلما لم يره ، ظن أنه لم يبصر الإشارة ، فرجع فأشار إليه . فلما لم يرد ، قال : هيه . . أنت . . قم أجب أمير المؤمنين . قال : مالى إليه من حاجة . قال : لو كان الأمر إلىّ

لضربت عنقك . . يدعوك أمير المؤمنين ولا تجيب ؟ . . قال : إن كان يدعونى ليعطينى شيئاً فهو لك ، وإن كان لشرّ ، فإنى والله لا أحل حبوتى حتى يقضى الله ما يشاء .

ورأى الحجاج مرة يسىء الصلاة فنبهه فلم يسمع ، فرماه بكف من حصى المسجد .

وأنا محدثكم عن منقبتين فقط من مناقبه الكثيرة .

أما الأولى ، فلتروا ما كان يلقى العلماء فى سبيل عقيدتهم . كانوا يضربون ويحبسون ، ويؤذون فى أجسادهم وأموالهم ، ولا يبدلون رأياً ولا مذهباً ، ولا يبالون فى الحق أميراً ولا ملكاً .

وأما الثانية ، فلتعلموا أنهم كانوا إذا دعوا إلى خير بدؤوا فيه بأنفسهم . لم يكن العلم عندهم بضاعة للتصدير فقط ، كما هى الحال عند قوم يعظون ولا يتعظون ، ويعلمون ولا يعملون .

كان سعيد يفتى بأن الرسول - ﷺ - نهى عن بيعتين ، فلما أراد عبد الملك ابن مروان ، أن يبايع لولديه : الوليد وسليمان من بعده ، وتبعه الناس وبايعوا لم ينس سعيد فتواه ، ولم يتناسها ، ولم يجد لنفسه مخلصاً بفتوى جديدة ، ولم يقل : إنى واحد من الناس ، وقد بايعوا فلأبايعن مثلهم . ولم يخدع نفسه بهذه الخدعة الشيطانية فيقول : إن القوم إذا لم أبايع نالوا من كرامتى وحقرونى ، وأنا رمز العلم والدين فيكون التحقير للدين . ولكنه وقف موقف الحق فأبى البيعة .

وبذل له أمير المدينة أنواع الترغيب والترهيب فأبى ، فهدَّده بالجلد علنا ، وضج العلماء ، وتوسطوا الخلاف ، ففوضهم الأمير أن يفعلوا ما يريدون

فذهب وفد من كبار العلماء ، سليمان بن يسار ، وعروة بن الزبير ، وسالم بن عبد الله بن عمر . فعرضوا عليه أن يسكت فلا يقول لا ولا نعم . قال : أنا أسكت عن الحق ؟ لا . وكانوا يعلمون أنه إذا قال : « لا » فليس فى الأرض قوة تجعله يقول : « نعم » .

قالوا : فاعتزل فى بيتك أياماً حتى تمر العاصفة . قال : : أبقى فى بيتى فلا أخرج إلى الصلاة ، وأنا أسمع ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، وما سمعتها من أربعين سنة إلا وأنا فى المسجد ؟ لا .

قالوا : فبدل مكانك من المسجد ، حتى إذا جاء رسول الأمير لم يجدك فيه فقال له : لم أجده ، قال : أخوفاً من مخلوق ؟ لا . لا أتقدم عن مكانى شبراً ولا أتأخر شبراً . ودعاه الأمير فهدده بالقتل ، فقال : نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن بيعتين . . يقرر الحكم كأنه فى حلقة الدرس ، وكأن السيف ليس على عنقه . لا يسكت خوفاً من السيف ، ولا يكتم العلم ، ولا يبدل الحكم .

فأمر بأن يساق إلى ساحة العقوبات ، وجرد من ثيابه ، إلا تباناً قصيراً [1] وضرب خمسين وأخذ إلى الحبس .

وهنا حادثان طريفان جداً :

الأول : أن قتادة (العالم المشهور) أقبل عليه وهو يضرب ، فقال : إنى أخاف أن يموت ، ويذهب علمه ، وإنى أحب أن أسأله عن مسائل . فتركوه يسأله وراح سعيد يجيبه ويناقشه والدم يسيل من ظهره .

فما دريت لما قرأت الخبر . أأعجب من حرص قتادة على العلم ، وأنه لم

(1) التبان : ثوب المصارع ونحوه ، أو هو شىء كالمايوه ! .

يبال فى سبيله بهذه المجاملات ؟ أم من وقار سعيد للعلم ، وأنه لم يحفل بالأذى فى سبيله ؟ أم من هؤلاء الجلادين الذين يتركون ما هم فيه ، ويصغون إلى هذه المناقشة العلمية الغريبة ؟ .

تصوروا لو أن أعلم العلماء . وأوسعهم صدراً ، كان فى هذا المقام ، وجاء من يسأله . . .

* * *

والثانى : أن بنته صنعت له لما سجن طعاماً كثيراً ، وجاءت به . فقال لها : هذا ما يريده هشام (الأمير) أن أفتقر ويذهب مالى ، فأحتاج إلى أموالهم فيستعبدونى بها ، ولا أدرى إلى متى يمتد سجنى ، فانظرى ما كنت آكله كل يوم فى بيتى فأتينى به ، فإن العلماء لا يذلون إلا إذا احتاجوا إلى أموال الملوك[1] .

ولما بلغ عبد الملك ضربه ، كرهه ولام الأمير ثم أمر بعد بعقابه . فأوقف للناس وولى مكانه الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ، فقال سعيد لأولاده وأهله : إياكم والتعرض له بعد عزله أو الشماتة به لما ناله . إنى أدعه حتى

---

(1) هذه كلمة الحق ، وما ذل العلماء إلا يوم اتكلوا على الرواتب ، وعلى أموال الأوقاف ، وهدايا الناس ، ولقد عهدنا فى دمشق طبقة من العلماء التجار ، أحيوا فى ذلك سنة أبى حنيفة والليث وابن المبارك ، وآخرهم فقيه الشافعية فى دمشق الشيخ صالح العقاد ـ مد الله فى عمره ، ووجدت رجالاً من هذه الطبقة فى الموصل ، ومن أعجب ما وجدت إنى كنت ألقى محاضرة فى دار الإخوان فى سنة 1954 ولقيت رئيس الجماعة وهو شيخ فاضل ، ومررت فى اليوم الثانى بالسوق ، فقال لى أخى الأستاذ الصواف ، أتأكل لحماً مشوياً عند هذا اللحام ؟ وأشار إليه وقال : أتعرفه ؟ فنظرت فلم أعرفه ، فأمعنت النظر فإذا هو رئيس الجماعة ، يشتغل ويعيش من كدّه وعمله ، فأكبرته وجعلته مثلاً أضربه للناس .

ولو أنَّ العلماء استغنوا بمالهم عن أموال الناس ، وعن رواتب الدولة ، لرأيتم ما عزة العلم ، وما هيبة العلماء .

يحكم الله بيننا .

* * * *

أما المنقبة الثانية للعلماء والناس ، وهى درس اجتماعى لو حفظه الآباء لما بقى فى البيوت بنت كاسدة ، ولما بقى فى البلد شاب فاسق .

واسمعوا القصة :

نحن فى المدينة ، وفى المدينة شىء لا ندرى ما هو ؟ إن الناس قد خرجوا إلى الطريق ، والنساء قد أطللن من شقوق النوافذ ، إنهم يرقبون شيئاً ، تعالوا نسأل ماذا هنا ؟

إن الناس يرتقبون موكب رسول الخليفة ، المندوب الخاص لعبد الملك ، قادماً بمهمة لا يعرف الناس ما هى ، فهم يتخرصون ويحزرون .

لقد وصل الموكب ، وأسرع إلى المسجد ، والمسجد هو مجمع كل أمر جلل ، فيه تكون البيعة ، وفيه يستقبل الأمير ، وفيه تلتقى الوفود ، وفيه يكون القاضى وتجرى المحاكمات ، وفيه تلقى الدروس ويؤخذ العلم ، فهو البرلمان وهو القصر وهو المحكمة وهو الجامعة .

وأقبل الرسول حتى وقف على حلقة سعيد ، فأبلغه سلام أمير المؤمنين ، وأنه قادم يخطب إليه ابنته ، للوليد ولى عهد المسلمين ، وغبط الناس سعيداً على هذه النعمة ، التى نزلت عليه وعلى هذا التشريف الذى ناله ، وعلى الدنيا التى سيقت إليه ، بنته زوجة الوليد ولى عهد المسلمين اليوم ، وأمير المؤمنين غداً، وسيد البلاد الإسلامية كلها .

وارتقبوا أن يهش سعيد ويبش ، ويطير فرحاً بهذه النعمة ، ولكن موازين الناس غير ميزان سعيد ، ميزانه ميزان الشرع ، الناس يفتشون عن المال

والجاه ، ولكن سعيداً يفتش لابنته عن السعادة الزوجية ، عن الخلق والدين ، عن الطهر والفضيلة ، وماذا تفيده دنيا الوليد ، إن مهرت ابنته بهذه الدنيا دينها؟ .

إن الرجل الديِّن الحسن الخُلق الفقير ، خير للمرأة من ابن أمير المؤمنين ؛ لأن هذا يكون لها وحدها وذاك تشركها فيه الزوجات والجوارى ومن تدرى ومن لا تدرى . . .

وإذا كان لك عبد مخلص ، يحبك ويشكر فضلك ، ويطيع أمرك ، وأرسلته بأمانة ليدفعها إلى زيد فأعطاها عمراً ، هل تكون عنه راضياً ؟

كذلك أنت أيها الأب .

إنك عبد الله ، والبنت أمانة عندك ، وقد أمرك أن تعطيها لمن يماثلك فى مسلكه ومشربه ، ويرضيك دينه وخلقه ، فإن رفضته وبحثت عن الغنى . أو جعلت بنتك سلعة تباع ، فقد أسخطت ربك وآذيت بنتك .

وهل البنت فرس أو نعجة حتى تباع لمن يدفع فيها الثمن الأكبر ؟ وماذا يفيدك كثرة المهر . والزواج إذا كان موفقاً كان لها ماله وله مالها . وإن لم يكن موفقاً لم ينفع البنت ما أخذت من مال .

فكر سعيد فى هذا كله فى لحظات . والرسول واقف ينتظر جوابه ، ولا يشك فى أنه جواب الموافقة ولا يشك الناس .

وإذا بسعيد يقول : لا .

لا ! إنه رفض أن يعطى ابنته لأمير المؤمنين .

ومرت أيام ، وكان له تلميذ اسمه أبو وداعة متين الدين ، رضى الخلق ، انقطع عن الدرس ، ثم جاء فسأله فقال : مرضت زوجتى فمرضتها وعنيت

بها ، ثم توفيت فدفنتها .

فقال : هل تزوجت غيرها .

قـال : ومن يزوجنى ولا أملك إلا أربعـة دراهم ؟ فمن يزوجنى بأربعة دراهم ؟ قال سعيد : أنا .

هل سمعتم يا أيها السادة ، سعيد الذى رفض ابن أمير المؤمنين ، الذى يملك ما بين البحر الأطلنطى وجبال الصين ، يزوج أبا وداعة الذى لا يملك إلا أربعة دراهم .

وشُده الرجل وكذب أذنه وعقدت المفاجأة لسانه . . . وحسب نفسه فى منام ولكن سعيداً دعا بالشهود وعقد العقد . وذهب الرجل إلى داره وهو لا يزال فى حمى الدهشة ، وقدم عشاءه خبزاً وزيتاً و إذا بالباب يقرع .

قال : من ؟ . . قال : سعيد .

قال أبو وداعة : ومرَّ على بالى كل سعيد فى الدنيا إلا سعيد بن المسيب ؛ لأنه لم يطرق باب أحد من أربعين سنة ، ولا رُئى إلا بين بيته والمسجد .

ففتح له فقال : كرهت أن يسألنى الله عن وحدتك ولك زوجة ، فجئت بها ، ودفع العروس .

هكذا ! بلا حفلات ولا عرس ولا جهاز !

قال : رحمك الله ، ألا انتظرت حتى أحصل مالاً وأعد للعرس عدَّة .

قال : أما قلت : إن معك أربعة دراهم !

أربعة دراهم ! فعلام الحفلات ؟ وهل الزواج رباط بين روحين ، وصلة بين قلبين وبيت يضم اثنين أو هو معرض أثاث وثياب ، ومنافرة كرم واكتساب شهرة ؟ إنَّ هذه الحفلات يا ناس ، لا تخرب بيت الزوج والأب فقط ، بل تخرب

عشرين بيتاً ، تتزوج بنت عم خال امرأتك فتكلفك ثوباً يعجز عنه موردك ، فإن شريته اضطربت موازنتك ، وإن أبيت تنغص عيشك .

قال أبو وداعة :

ورأيتها أجمل امرأة وأكملها ، ولما أصبحت غدوت لأذهب ، قالت : إلى أين ؟ قلت : إلى مجلس سعيد ، فقالت : اقعد أعلمك علم سعيد .

وإذا هي عالمة محدِّثة ، و لقد كنا بَعْدُ إذا أعيت العلماء مسألة ، رجعنا إليها .

يا سادة ! إني لا أستطيع أن أحدثكم بمناقبه كلها . فلنقف عند هاتين المنقبتين، ولنأخذ منهما دروساً . . درساً للعلماء ودرساً للآباء . ورحم الله من يسمع فيعي . . ويعلم فيعمل .

* * *

الإمَامُ الأعْظَمُ

نحن ـ المسلمين ـ قانوننا هو القرآن ، وشرحه الرسمى الحديث ، ومذكرته الإيضاحية أسباب النزول والتفسير ، فمن الناس من لم يشتغل بالعلم، فهو لا يستطيع أن يفهم الحكم من القرآن والحديث ، فيرجع إلى المختصين ، كما يرجع عند إقامة الدعوى إلى المحامى ، والمختصون (وهم العلماء المجتهدون) يختلفون فى الفهم والتفسير ، وهذا شيء طبيعى ، كما أنَّ التقليد طبيعى ، إذ إنَّ من الناس من ينقطع إلى علم من العلوم فيجتهد فيه، ويقلد فى غيره ، فنحن نقلد الأطباء والمهندسين ونأخذ بأقوالهم ، بلا وقوف على دليلها ، حتى أن الصحابة أنفسهم ، كان أكثرهم مقلدين [1] ، ولم يكن يفتى فيهم إلا عدد قليل، ولكنها لم تجمع فتاواهم ،ولا فتاوى التابعين لهم ، وأول من انقطع للفتوى والاستنباط ، وجمعت أقواله وتعدد أصحابه حتى صارت له مدرسة أو مذهب هو أبو حنيفة .

فمن هو أبو حنيفة ؟

يا سادة : كان فى العراق شاب جميل غنى ، اسمه ثابت بن النعمان ، فارسى الأصل ، تقى ورع ، كان يتوضأ يوماً من النهر ، فرأى تفاحة فأكلها ، ثم خاف أن يكون أكلها حراماً [2]، فبحث عن شجرتها حتى وصل إلى صاحبها ،

---

(1) لى بحث فى الاجتهاد والتقليد والمذاهب موجود فى كتابى (فتاوى) الذى طبعته (دار المنارة) فيه تفصيل لما أجملته هنا .

(2) ولو كان فقيهاً لعلم أنها ليست حراماً .

فقال له : سامحنى، فعرفه الرجل ، وقال : لا أسامحك إلا بشرط ، هو أن عندى بنتاً صماء (طرشاء) خرساء عمياء ولا أسامحك حتى تتزوجها ، ففكر فرأى أن الدنيا موقوتة وأن عذابها بهذا الزواج أيسر من عذاب الآخرة فقال : إن لله وإنا إليه راجعون . لقد قبلت .

فزوَّجه بها ، فلما دخل عليها ، وجد فتاة كأنها القمر ، ذات فهم ودين ، فقال لأبيها : لم قلت أنها عمياء صماء خرساء ، قال : لأنها لم تر الرجال ولم تسمعهم ولم تكلمهم .

ومن هذين الزوجين الصالحين الجميلين الغنيين ، ولد صبى قدِّر له أن يكون له جمالهما وتقاهما ، وأن يكون آية الآيات ، وأعجوبة الدنيا فى الذكاء والعلم، وهو النعمان بن ثابت . هذا اسمه ، أما أبو حنيفة فكنيته ، ولم يكن له بنت اسمها حنيفة ، ولكن الحنيفة : الدواة بلغة العراق (العامية) ، كنّوه بذلك لحمله الدواة من صغره ، ودورانه على العلماء ، كذا قالوا والله أعلم .

ونشأ مرفهاً مدللاً ، أنيق الثوب ، عطر الأردان ، وكان تاجراً كبيراً ، يبيع الخز ، وكان ورعاً متعبداً بقى عشرين سنة ـ كما رووا ـ يصلى الصبح بوضوء العشاء ، ويبكى من خشية الله ، وكان كريماً : سامح مرة بعشرة آلاف ، وسألوه مرة عوناً لعالم مدين بأربعة آلاف ، فأداها كلها . وكان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وكان يجرى رواتب على كثير من العلماء . فهو رجل قد أوتى الدنيا والآخرة ، والعلم والعمل ، والغنى والكرم ، مثله فى ذلك مثل الليث بن سعد ، كان كثير الاجتماع بالعلماء ، والأخذ عنهم ، أدرك أربعة من الصحابة ، وآلافاً من التابعين ، واشتغل أوَّل أمره بعلم الكلام حتى صار المقدم فيه ، لا يقوم له أحد فى المناظرة ، حتى وقعت له واقعة صرفته إلى الفقه وهو أشرف العلوم ، وهو لب الدين ، وما التوحيد والحديث والتفسير إلا مقدمات

له ، كشرح القانون ، أما الدين فهو التوحيد والفقه . وهذه الواقعة أن امرأة سألته عن مسألة فى الطلاق فلم يعرفها ، فدلَّها على حمَّاد بن أبى سليمان فقيه عصره ، وقال لها : سليه وأخبرينى . فلما أخبرته ، لزمه ولم يعد يفارقه . لزمه عشر سنين ، ثم نازعته نفسه الرياسة ، وأن تكون له مدرسة (حلقة) مستقلة ، ولكنه أبى إجلالاً لحماد ، وغاب حماد غيبة ، فقعد مكانه فأفتى فى شهرين فى ستين مسألة ، فلما رجع أقره على أربعين وخالفه فى عشرين ، فلزمه حتى مات ، ولما مات فتشوا عمن يلى مكانه فقدموا ابنه ولكن الأدب كان أغلب عليه ، فلم يقم به ، فقدموا شيخاً من أصحابه يقال له : موسى بن أبى كثير ، فلم يقم به ، وخافوا أن تنحل حلقة حماد ، فقالوا : لو قدمتم هذا الفتى الخزاز (تاجر الخز) . فقدموا أبا حنيفة فنهض بها حتى جعل هذه الحلقة مدرسة باقية ومذهباً خالداً أبدَ الدهر .

* * * *

اجتمع حوله طائفة من التلاميذ صاروا بعد أعلام الدنيا ، وكان كل واحد منهم (مُخْصياً)[1] بناحية فإذا وردت مسألة بحثوا فيها وتناقشوا . وقد يبحثون المسألة شهراً حتى يتجه لهم الحكم فيها . فكان مجلسه (برلماناً) ولكن أعضاءه من نوابغ الدهر .

سئل وكيع بن الجراح ـ وهو شيخ الشافعى : هل أخطأ أبو حنيفة ؟ قال : كيف يقدر أبو حنيفة أن يخطئ وعنده مثل أبى يوسف وزفر ومحمد فى قياسهم واجتهادهم ، ومثل يحيى بن زكريا وحفص بن غياث وحبان ومندل فى حفظهم للحديث ومعرفتهم به ، والقاسم بن معن (ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود) فى معرفته باللغة العربية ، وداود الطائى والفضيل بن عياض

(1) أى مختصاً أو إخصائياً .

فى زهدهما وورعهما ، هؤلاء وأمثالهم هم أعضاء (البرلمان)الحنفى ، وهذا ما يمتاز به مذهب الحنفية عن المذاهب الأخرى . وهو أول من رتب الفقه فى أبواب ، ومالك إنما سار على غراره فى الموطأ .

***

وكان لأبى حنيفة (ذهنية) فقهية عجيبة ، وطريق دقيق فى استنباط الأحكام ، وبيان عللها ، بينما الذى يغلب على مالك أنه كان حافظاً للحديث يرتبه ، ويأخذ منه الحكم ، وأحمد كان محدثاً . ولم يعده المتقدمون مع أصحاب المذاهب ، والشافعى وسط بين طريقة مالك وطريقة أبى حنيفة ؛ لأنه أخذ عن مالك ، وعن الإمام محمد ، فهو تلميذ تلميذ أبى حنيفة .

وكان أبو حنيفة إذا أشكلت عليه مسألة ، قال لأصحابه : ما هذا إلا لذنب أحدثته . فيستغفر الله ويصلى حتى تتفتح له . فكان يصدر فى تفكيره عن خشية الله .

ومن الأمثلة على ذكائه وأسلوب تفكيره التشريعى ، أنَّ الضحاك لم يكن يرى التحكيم ، وكان أبو حنيفة يراه ، فدعاه إلى المناظرة فقال أبو حنيفة : إن اختلفنا فمن يحكم بيننا؟ قال : اختر ، قال : اخترت فلاناً من أصحابك ، قال : فناظرنى ، قال : لقد ناظرتك وغلبتك ، أنت جوزت التحكيم (أى بقبوله الحكم) .

وشهد الأئمة الكبار : مالك والليث والأوزاعى والشافعى ـ الشافعى لم ير أبا حنيفة ـ وسفيان وابن المبارك بأنهم لم يروا مثله أبداً .

عاش حياته كلها من كسبه يوزع المال والعلم ، ويعلم الناس الفقه والتقى والكرم ، أرادوه على الولاية مرتين : مرة أيام بنى أمية ومرة أيام بنى العباس ،

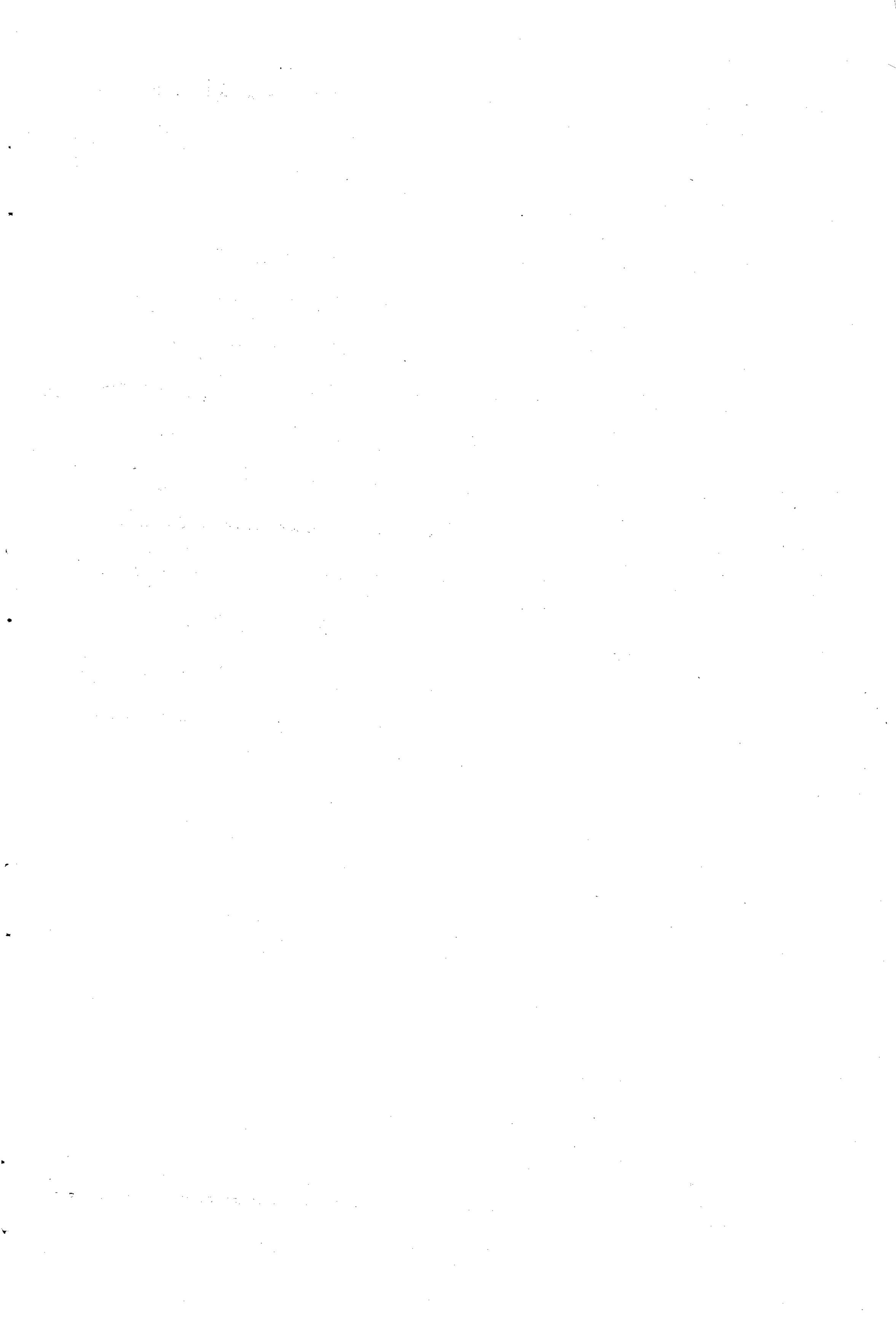
وضرب فى المرتين فرفض ، فكانت الأخيرة سبب وفاته .

* * * * *

والمذهب الحنفى اليوم ، أوسع المذاهب انتشاراً ، وأوسعها فروعاً وأقوالاً ، وهو أنفع المذاهب فى استنباط القوانين الجديدة ، والاجتهادات القضائية ، يليه فى كثرة الفروع المذهب المالكى ، وقد عرفت ذلك فى السنين التى اشتغلت فيها بوضع مشروع قانون الأحوال الشخصية ، وسبب ذلك أن المذهب الحنفى صار مذهب دولة طول مدَّة العباسيين والعثمانيين ، وهى ثلاثة أرباع التاريخ الإسلامى ، والمالكى مذهب المغرب طول هذه المدة ، فكثرت فيهما الفروع والمناقشات ، أما المذهب الشافعى فلم يكن مذهباً رسمياً إلا حقبة قصيرة أيام الأيوبيين ، بينما اقتصر المذهب الحنبلى على نجد والحجاز اليوم .

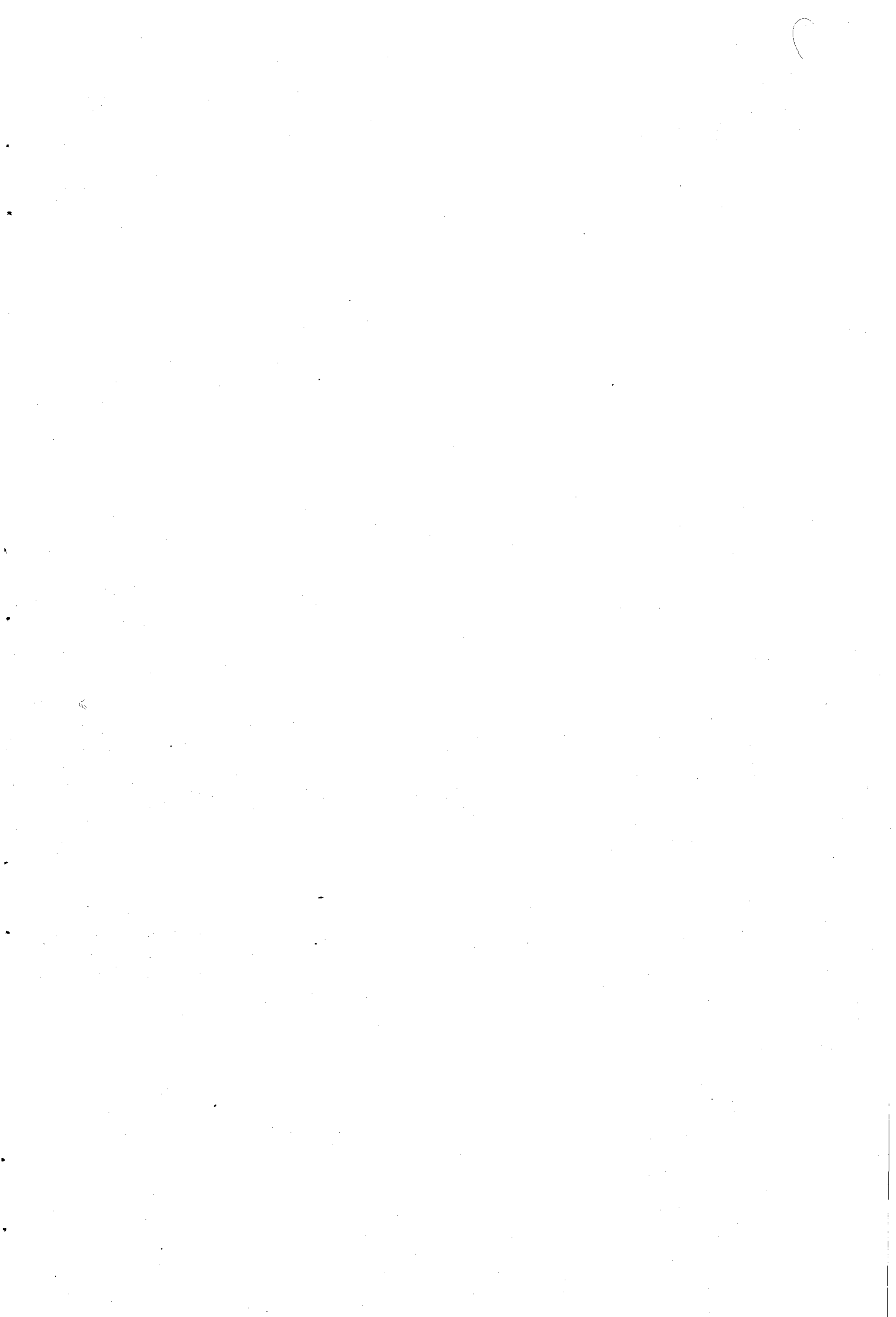
رحم الله الأئمة ومن كان قبلهم وبعدهم ممن لم يدون مذهبه ، ولم يكن أقل منهم : الليث والأوزاعى وسفيان وحماد ، ورحم أبا حنيفة ، من كان أقدمهم ، وكان أقدرهم ، ومن دعى بحق (الإمام الأعظم) .

* * * * *





- أكبر ملوك الأرض
- جمع الدين والدنيا
- ناصر السنة



أكبر ملوك الأرض

أنتقل بكم فى هذا الحديث إلى أزهر عهد من عهود الحضارة الإسلامية ، إلى أعلى ذروة فى سلسلة أمجاد العرب ، إلى الدور الذهبى ، إلى الأيام التى كانت كلها أعراساً[1] .

إلى المدينة التى شهدت من الترف والبذخ ، والعظمة والجلال ، ما لم تشهد مثله مدينة ، لا روما فى الماضى ولا باريس الآن ، إلا المدينة التى كان فيها مليونان من البشر منذ ألف ومائتى سنة . حين كانت باريز قرية أصغر من دوما ، وكانت أميركا صحراء ما فيها إلا الوحوش . . . وكانت فيها القصور التى تفتن بصحونها وأبهائها، وزخارفها ونقوشها ، وشرفاتها وقبابها ، وفيها البساتين التى جلبت إليها غرائب الأشجار ، ونوادرالأزهار ، من كل مكان . وفيها ستة آلاف حمام ، وفيها عشرون ألف مسجد ، وفى نهرها ثلاثون ألف زورق ، تميس على صفحة الماء كل عشية فيكون منها مدارس علم ، ويكون منها مجالس طرب ، ويكون منها مخادع غرام ، ويكون منها خلوات تأمل، وكان فيها ـ فى تلك الأيام ـ معامل تصنع الزجاج والورق، وتضرب النقود ، وتنسج أنواع النسيج وتطرز وتنقش . وفيها الاختراعات التى أدهشت أهل أوربا لما حملها وفود الرشيد إلى شارلمان ، حتى حسبوا أن فى الساعة جنياً يقرع أجراسها .

(1)كذلك قالوا ، وما جاء ذلك إلا من أكاذيب **قصة ألف ليلة** ، **والحق أن** أزهر عهود التاريخ ، عهد أبى بكر وعمر ، وكل خليفة قوى عادل ، **عامل بكتاب الله قائم بحقوق الرعية** ، لا طاغ ولا ظالم ، ولا عاص ولا آثم .

مدينة كانت دنيا كاملة ، فيها الخير والشر . العلم فيها ، وفيها الفسوق . والدين فيها ، وفيها اللهو والمجون ، وفيها المحدثون وفيها الصالحون ، وفيها الشعراء وفيها المغنون ، وفيها العفيفات المحصنات ، وفيها الجوارى المسافحات ، وفيها أفحش الغنى ، وفيها أفظع الفقر ، وفيها التجار وفيها الشطار ، وفيها اللصوص ، وفيها الشحاذون ، ولكل عالم لا تدرى به عوالمها الأخرى .

مدينة كانت القوافل لا تنقطع عنها لحظة من ليل أو نهار ، تحمل إليها كل ذى علم وفن ونبوغ ، وكل ذات جمال وسحر وفتون ، ويستقر فيها أحسن وأجمل ما تخرج الأرض ، من ثمرات الطبيعة ، ونتاج العقول . اختصرت فيها الدنيا فكان فيها أمم من كل جنس ولسان فى الدنيا .

تلك هى بغداد . . بغداد هارون الرشيد ، بغداد ألف ليلة وليلة ، بغداد التى صارت حلماً من الأحلام ، ووحياً لكل أديب وشاعر ، وواضع قصة أو فلم ، من تلك الأيام إلى الآن ، ومن أقصى المشرق إلى هوليود . لقد كانت بغداد سرة الدنيا وكانت قصبة الأرض ، وكانت أمل كل طامع فى المجد ، راغب فى العلم ، آمل بالغنى ، هائم بالجمال .

* * * *

لقد أشرفنا على بغداد ، فماذا فيها ؟ ماذا فى بغداد ؟ ما هذه الحشود ؟ ما هذه الجنود ؟ ما هذه الأعلام والبنود ؟ لماذا يفرش السجاد على الأرض ؟ لماذا يقوم الجند على الجوانب ؟

تعالوا نسأل :

ـ ما هذا يا عم ؟

ـ ألا تدرى ؟ إنه وفد ملك الروم . . لقد صف أمير المؤمنين على طريقه مائة وثمانين ألفاً بثياب واحدة وهيئة واحدة ، سيوفهم مشهرة ، وهم متسربلون بالحديد ، وفرش لهم ثمانية وعشرين ألف سجادة ، وأقام لهم أربعين ألف ستارة من الديباج والحرير ، وترى إذا حل الليل سلسلة من المصابيح العجيبة ، طولها أربعة فراسخ . وصف لهم فى مدخل القصر ، الوحوش المدربة من السباع والفهود لتحييهم . أما داخل القصر ، قصر الخلد ، ففيه ما لا يستطيع أن يصفه لسان .

يا سادة :

هذا هو هارون الرشيد .

الرشيد الذى كان يحكم وحده حكماً استبدادياً مطلقاً عشرين حكومة من حكومات اليوم .

الرشيد ، الذى قال للسحابة أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك .

الرشيد ، الذى كان دَخَل خزانته الخاصة 411 مليون دينار من الذهب كل سنة .

الرشيد ، الذى كان صورة من عصره ، صورة من بغداد ، التى فيها كل شىء .

هذا هو الرشيد ، الذى جعله الحظ أشهر ملوك الإسلام . انظروا إلى عمل الحظوظ ! الحظ هو الذى جعله أكبر ملوك الإسلام اسماً ، وأوسعهم ذكراً ، وأعظمهم ملكاً ، وما كان له دهاء معاوية ، ولا مضاء عبد الملك ، ولا صلاح عمر بن عبد العزيز ، ولا إصلاح الوليد ، ولا أعصاب المنصور . لا ، ولم يكن فى مواهبه ، وعظم شخصه ، من الوزن الراجح . ولقد كان مروان الثانى ،

وكان الخلفاء الذين جاؤوا قبيل انهيار الدولة العباسية ، أرجح منه وزناً، وأقوى شخصية كما يقولون ، ولكنهم جاؤوا والزمان مدبر ، وجاء هو فى إقبال الزمان .

إن أعظم حكام الإسلام حقيقة هم الذين جمعوا صلاح النفس ؛ وإصلاح الدولة ، وكانوا أهل تقى وأهل بصر ، وجمعوا التوفيق فى الدنيا والدين ، أمثال الستة الكبار : أبى بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز ونور الدين وصلاح الدين وأورانك زيب ملك الهند .

وليس الحديث عن حياة الرشيد عامة ، ولا أستطيع أن أوفى الحديث عنه فى ربع ساعة ولو كنت من السحرة أو من أرباب الكرامات . ولكن حديثى عن ناحية منه واحدة هى (الرشيد والعلماء) .

❊ ❊ ❊ ❊

وأنا مولع بتحليل النفوس ، نفوس الأحياء من الأصدقاء ، والأموات من رجال التاريخ ، وكشف خفاياها ، ورد مظاهرها المعقدة إلى عناصرها الأولى ، والذى استخلصته من تحليل نفسية الرشيد ، أن هذا التناقض الظاهر فى شخصيته ، من لهوه المفرط ، وعبادته المفرطة ، وقتله الأبرياء ، وبطشه البطشة الكبرى بالبرامكة ، إلى بكائه وسماعه المواعظ ، وحجه ماشياً من بغداد إلى عرفات ، وحرصه على الوحدة الإسلامية ، وتحالفه مع شارلمان الأجنبى ، ضد ابن عمه الأموى صاحب الأندلس ، وعزمه على الأمر العظيم كما عزم على فتح قناة السويس قبل دليسبس بأكثر من ألف سنة ، ثم رجوعه عنه لأيسر اعتراض .

الذى استخلصته أن مرجع ذلك كله إلى عقدة نفسية فيه ، هى أنه كان مؤمناً محباً فى قرارة نفسه للتقى والصلاح ، ولكنه لم يستطع أن يوفق بين

أعماله ، وبين هذه الرغبة فى الصلاح . وكانت تغريه مغريات الملك ، فيوغل فى اللذة وفى البطش ، ثم يتنبه إيمانه فيمضى أكثر أيامه تحت ثقل تأنيب الضمير ، وهذا تعليل منعه الناس أن يذكروا البرامكة أبداً بعد بطشه بهم ، فيحسب من يقرأ الخبر أنه نسيهم ، مع أنه لم ينس الحادث لحظة ، وهو يمنع الناس من الخوض فيه ليفر من نفسه . وهذا تعليل قيامه من مجلس الغناء والشراب إلى الصلاة والتهجد ، حتى ليصلى مائة ركعة كل ليلة ، فتخدع صلاته المؤرخ الثقة حتى يكذب أخبار لهوه ، كما فعل ابن خلدون .

* * * *

ومن هنا جاءت محبته لمجالسة العلماء والصالحين ، وسماعه المواعظ وبكاؤه لها ، كان يبكى بإخلاص وكان عند سماعها مستغرقاً فى الجو الدينى ، كما أنه كان عند سماع الغناء يستغرق فى الجو الدنيوى ، ولم يكن منافقاً ، ولكنه نوع كما يسميه علماء النفس ازدواج الشخصية ، موجود عند كثير من الناس ، ولكن يختلف مقداره وتختلف درجة إحساسهم به .

وكان أحياناً يشعر بحاجة إلى هذه المواعظ ، ويطلب المشايخ كما يطلب المريض الطبيب ، وأنتم تعرفون قصته ، لما اعترته إحدى هذه الحالات ، فقال لحاجبه : دلنى على عالم أسمع منه ، فأخذه إلى عالمين عظيمين فتلقياه ، كما يتلقى الرجل العادى خليفة العصر ، وتواضعا له وعظماه ، فأعطاهما الجائزة ، ولكنه لم يجد عندهما الدواء ، حتى مشى إلى الفضيل بن عياض فتلقاه كما يتلقى رجل الآخرة أحد أبناء الدنيا ، ونظر إليه بعين الشرع ، فما رأى فيه أكثر من فرد غلبته نفسه ، وعصى ربه ، فوعظه وعظاً صريحاً شديداً وأبكاه ، ورفض هديته ، وأخرجه من داره شبه مطرود ، ومع ذلك فقد سر الرشيد ووجد عنده السكينة والشفاء .

* * *

وكان العلماء معه ثلاثة أصناف : صنف يسايره ليرضيه ويأخذ من دنياه ، وهؤلاء هم الأقل ولم ينالوا منه خيراً كثيراً ، لأن المنافقين من العلماء وإن نجحوا حيناً ، لا تكون عاقبتهم إلا الخيبة وخسران الدين والدنيا .

وصنف يغلظ له القول ، ويشدد عليه الموعظة ، ويقوم بحق الله بلا مجاملة ولا رعاية لمقامه الدنيوى ، ولا يتعمدون ذلك بل يرونه الشىء الطبيعى[1] لأنهم مع الله دائماً ، قد حقروا الدنيا وكل ما فيها من جاه ومال ، فلم يعد يروعهم مُلْك مَلك ولا عظمة أمير . وهؤلاء أيضاً قلة ، ردوا عطاياه وجوائزه ، ولكن حازوا احترامه وإكباره .

والكثرة من العلماء كانوا يقولون الحق ، ولكنهم يصوغونه الصياغة المقبولة ، ويعطونه الدواء ولكن (ببرشامة) ، ويسايرونه ولكن فيما لا يضرهم فى دينهم ، ومن هؤلاء أعلام الملة:أبو يوسف والليث وهذه هى الطريقة المثلى لمعاشرة الملوك .

اختصم الرشيد وزبيدة ، ولعلها كانت تلومه على لهوه ومقارفته لذاته ، وتخوفه النار فقال لها : إنها طالق ثلاثاً إن لم يكن من أهل الجنة . ووقع فى مشكلة ، واستحضر العلماء ، فلم يجرؤ واحد على فتياه حتى جاءه الإمام الهمام : الليث بن سعد المصرى ، فوقف منه موقفاً غريباً كاد يؤدى إلى غضبه والرشيد إذا غضب لا يبصر من أمامه . سأله : هل يخاف مقام ربه ؟ قال : نعم . فأتى بالمصحف وحلفه بأوثق الأيمان : بالطلاق والعتاق والخروج من الخلافة ، أنه لم يقل إلا الحق . فلما حلف قال : أبشر يا أمير المؤمنين ، إن الطلاق لم يقع ، إن لك جنتين لا جنة واحدة ، قال تعالى : ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن : 46] .

ولأبى يوسف موقف مثل هذا .

---

(1) الطبيعى لا الطبعى كما يقول المتحذلقون ، وإن كان القياس ما يقولون .

ولم يعرف عنه أنه بطش بعالم ، وإن كاد مرة يبطش بعمر بن حبيب القاضى لما ذكر الرشيد أبا هريرة واتهمه بالكذب ، فرد عليه عمر بشدة ، فدعاه والسيف أمامه ، ليضرب عنقه ، فقال عمر : يا رب إنى دافعت عن صاحب نبيك فدافع عنى . وقال للرشيد : إذا كان الصحابة كذابين كان الدين كذباً ؛ لأنه مروى عنهم فعاد الرشيد إلى نفسه ، وعفا عنه ، وأجازه .

وله حوادث هائلة مع القاضى حفص بن غياث لما حبس وكيل السيدة زبيدة ، ومع عبد الله بن إدريس وابن المبارك وغيرهم لا يتسع المجال مع الأسف ولا للإشارة إليها .

****

وبلغ من حبه العلم أن رحل هو وو لداه الأمين والمأمون لطلب العلم وقراءة الموطأ على مالك من بغداد إلى المدينة ، كما يرحل الطلاب الموفودون اليوم ، وهذا لم يسمع عن ملك فى الشرق والغرب إلا عن صلاح الدين الأيوبى لما رحل إلى الإسكندرية لسماع الحديث . قال السيوطى : ولا أعرف لهما ثالثا .

وجعل لطلاب العلم رواتب يبلغ أعلاها أربعة آلاف دينار فى السنة ، فما عرف زمان كثر فيه العلماء كثرتهم فى زمان الرشيد ، حتى كان الولد يحفظ القرآن وهو ابن ثمانى سنين ، ويحفظ الحديث ودواوين الشعر فى الحادية عشرة ، ويناظر العلماء وهو ابن خمس عشرة سنة .

وكان للعلماء أسمى المنازل فى مجلسه وكان يدعوهم إلى مائدته الخاصة ، وصب الماء مرة بنفسه للمحدث أبى معاوية الضرير وهو يغسل يديه بعد الأكل وقال له : أتدرى من يصب عليك الماء ؟ .

قال : لا !

قال : أنا .

الرشيد ، أعظم ملوك التاريخ ، وسيد ربع العالم ، وحاكم عشرين دولة من دول اليوم . أتدرون ماذا قال العالم ؟

لم يتحرك ولم يهتز ولم ير فى ذلك إلا شيئاً عادياً فقال هادئاً : إنما أكرمت العلم يا أمير المؤمنين ، واستمر فى غسل يديه .

رحم الله أولئك الرجال .

***

يا سادة لم ينته الكلام فى الموضوع . ولكن انتهى الوقت فدعونى أختم حديثى بتلاوة فقرات من مقدمة كتاب الخراج الذى ألفه الإمام أبو يوسف للرشيد ، لتروا كيف كان يخاطب العلماء أعظم ملوك الأرض هارون الرشيد

قال :

يا أمير المؤمنين ، لقد قلدك الله أمرًا عظيماً ، ثوابه أعظم الثواب ، وعقابه أشد العقاب ، قلدك أمر هذه الأمة . . . إلى أن قال : فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة ، ولا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، فإنك إن فعلت ذلك أضعت، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب ، وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا فاختر أمر الآخرة على أمر الدينا ، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى ، وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس عندك سواء، القريب والبعيد ، واحذر فإن الحذر بالقلب وليس باللسان . . . إلى أن قال : واعمل للموقف الأعظم الذى تنخلع فيه القلوب ، وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته ، والخلق داخرون بين يديه ، ينتظرون قضاءه ، ويخافون عقوبته وكأن ذلك قد كان ، فأعد للمسألة جوابها ، فإن ما عملت قد أثبت فهو غداً عليك يقرأ ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله فى

مجمع الأشهاد .

. . . إلى أن قال : إنك راع وإن الراعى المضيع يضمن ما هلك على يديه، فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفى ربها حقها منك ، ويضيعك بما أضعت أمانتك ، وإن صلاح الناس بإقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم .

***

يا سادة : هل يستطيع أكبر عالم أن يقول مثله اليوم لأصغر أمير .

وهل يقبله الأمراء ، إن استطاعه العلماء ؟ .

رحمة الله على أولئك العلماء ، وجزاهم خيراً ، وأرانا أمثالهم .

***

جَمَعَ الدّينَ والدُّنيا

علم شامخ من أعلام الإسلام ، وإمام من أئمة الفقه الكبار ، أصحاب المذاهب المتبعة ، وأحد أفراد الدنيا علماً وذكاء ، ونبلا ورفعة ، وسخاء وكرماً، أجمعوا على أنه نظير الإمام مالك فى الفقه ، وعديله فى الاجتهاد ، وأنه كان لمصر مثل مالك للمدينة ، لا يفتى ومالك فى المدينة ،ولا يفتى وهو فى مصر ، وهو أعظم جاهاً من مالك ، وأكثر مالاً وأوسع دنيا ، بيد أن الله قيض لمالك من دون علمه ، وكتب مسائله ، وحرر مذهبه ، فصار أحد المذاهب الأربعة الباقية . وذهب مذهبه هو فيما ذهب من المذاهب التى كانت يوماً معروفة متبعة مقلدة ، وكاد ينسى اسمه فلا يعرفه إلا العلماء ، على حين يعرف أبا حنيفة ومالكًا والشافعى وأحمد كلُّ مسلم .

فهل عرفتم الآن من هو ؟

هو الذى جمع الله له الدنيا والدين ، والجاه والتقى ، وكان سيد مصر ، أمْرُه قبل أمر الولاة ، وحكمه فوق حكم القضاة ، وكان دخله من أملاكه ما بين عشرين وثمانين ألف دينار فى العام ، (ثمانين ألف ليرة ذهبية) ، ولم تجب عليه زكاة قط ؛ لأنه لم يكن يحول عليه الحول ، وعنده منها شىء .

وهو الإمام العالم الليث بن سعد .

ولد فى قرية مصريةسنة 94 للهجرة ، أى قبل أكثر من ألف وثلاثمائة سنة[1] ، ولم يشغله غنى أهله عن طلب العلم ، والرحلة به ، لا كما يرحل أكثر الطلاب الآن فى أوربا وأميركا ، بل كما يرحل السلف ، يرحلون ليتلقوا العلم

(1) من يوم أذيع هذا الحديث من إذاعة دمشق .

ويتلقوا قبله الدين والتقى والسلوك الإسلامى ، ويجتمعوا بالعلماء العاملين ، الصالحين المصلحين ، وقد أخذ عن علماء مصر ، ثمَّ حجَّ ولقى أئمة الحجاز: عطاء بن أبى رباح ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وقتادة وأمثالهم ، ثم رحل إلى العراق فأخذ عن علمائه .

وهاكم قصة طريفة من قصص دراسته :

حج هو وابن لهيعة ، قاضى مصر ومحدثها ، ولقيا العلماء معاً ، وكان من علماء الحجاز نافع مولى ابن عمر ، رآه الليث فعرفه ، ولم يكن يعرفه ابن لهيعة فتبعه حتى دخل دكان علاف ، فسلم عليه ، فقال له : من أنت ؟ قال : من قيس ؟ قال : ابن كم ؟ قال : ابن عشرين . قال : أما لحيتك فلحية ابن أربعين ، ثم قعد معه فحدثه أحاديث وأذن له أن يروى هذه الأحاديث عنه .

فرآه ابن لهيعة ، قال : من هذا ؟ قال : مولي لنا . وتعرفون أن المولى فى اللغة من أسماء الأضداد ، فالسيد مولى ، والتابع مولى ، فأوهم ابن لهيعة لئلا يشاركه الرواية عنه .

فلما رجعا إلى مصر ، صار الليث يقول : حدثنا نافع عن ابن عمر ، فأنكر عليه ذلك ابن لهيعة ، وقال : أين لقيته ؟ فضحك وقال : أما رأيت العبد الأسود الذى كان فى دكان العلاف ؟ هو ذاك !

***

وبلغ منزلة فى الحديث والفقه شهد له فيها أكابر العلماء .

قال الشافعى : الليث أفقه من مالك ولكن أصحابه لم يقوموا به . أى لم يدونوا علمه فضاع مذهبه واندثر .

وقال أحمد بن حنبل : ما فى المصريين أثبت من الليث ، وكان يقول : الليث بن سعد ، ما أصح حديثه !

وروى عنه مالك ولم يصرح ، وكل ما كان فى الموطأ من قوله (وأخبرنى من أرضى من أهل العلم) فإنما يعنى به الليث بن سعد .

وكان الشافعى يقرأ فى درسه مسائل الليث ، فمرت مسألة فقال أحد الحاضرين : أحسن والله كأنه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب هو ، فقال ابن وهيب : بل كأن مالكاً يسمع الليث يجيب فيجيب هو . والله الذى لا إله إلا هو ما رأينا أفقه من الليث .

وعرض عليه المنصور ولاية مصر فأبى وأصر على الإباء ، فقال : دلنى علىَ رجل صالح ، فقال : عثمان بن الحكم الجذامى .

أفتدرون بم كافأه عثمان ؟ لما جاءته الولاية كرهها وتألم منها ، وسأل من دل أمير المؤمنين علىّ ؟ قالوا : الليث . . فحلف ألا يكلمه أبداً ، لأنه سبب له هذا الأذى ، يعنى ولاية مصر يا أيها السامعون .

هكذا كانت أخلاق علمائنا وصلحائنا .

* * *

وقال يعقوب وزير المهدى : قال لى أمير المؤمنين لما قدم الليث بغداد : الزم هذا الشيخ فقد ثبت عند أمير المؤمنين أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه .

ومعنى ذلك بعرف العصر ، أن الخليفة أمر وزيره الأكبر بمرافقته بنفسه ، أيام زيارته (العاصمة) .

وكان له مع الخلفاء حوادث طريفة ، منها أنه جرى بين هارون الرشيد وبين بنت عمه (زوجته) زبيدة كلام ، فقال لها : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة .

ثم ندم ، فكتب إلى البلدان ، فجمع علماءها إليه ، فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم ، فاختلفوا . وبقى الليث لم يتكلم ، فسأله ، فقال : إذا أخلى

أمير المؤمنين مجلسه . فصرفهم ، فقال : أتكلم على الأمان ؟ قال : نعم ، فأمر بإحضار مصحف فأحضر ، قال اقرأ يا أمير المؤمنين سورة الرحمن فقرأها حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] .

قال : أمسك يا أمير المؤمنين ، قل : والله . .

فصعب على الرشيد أن يحلفه ، فقال : الشرط يا أمير المؤمنين . فحلفه بأشد الأيمان أنه يخاف مقام ربه . فلما حلف ، قال : هما جنتان يا أمير المؤمنين لا جنة واحدة .

فسمع التصفيق وصياح الفرح من وراء الستر .

وسأله ماذا تطلب ، قال : يا أمير المؤمنين ، أما لنفسى فقد أغنانى الله بفضله ، ولكن أطلب صلاح بلدنا ، وصلاحه بإجراء النيل وصلاح أميره .

فأمر أن يكون والى مصر وقاضيها تحت أمره ، وكان إذا رابه من أحد شيء كتب فيه فعزل :

من ذلك أن قاضى مصر إسماعيل بن اليسع لا يرى لزوم الوقف [1] ، فكتب فيه : « إنا لم ننكر عليه شيئاً ولكن له رأياً فى الوقف لا نرضاه » فورد كتاب الخليفة بعزله .

فلما جاءه العزل ، قال له : يا أبا الحارث ، لقد أتعبت نفسك ، والله لو أمرتنى بالخروج لخرجت

وكان له كل يوم أربع مجالس : مجلس يأتيه فيه الوالى ونوابه يسألونه ويسترشدون برأيه ، ومجلس لأصحاب الحديث ، ومجلس للفقه ، ومجلس لأصحاب الحاجات .

---

(1) أى أنَّه يرى جواز رجوع الواقف إن شاء وذلك مذهب أبى حنيفة لأنه عقد تبرع لا عقد معارضة ولذلك كانوا يقيمون دعوى صورية على ناظر الوقف ومتوليه ليثبتوه بحكم القاضى .

وكان يعيش معيشة الملوك ، وقد قومت ثيابه مرة ودابته بثمانية عشر ألف درهم أى بألف دينار ذهبى ، وكان لباساً [1] .

وكان إذا رحل ، رحل بثلاث سفائن : سفينة له ولأضيافه وتلاميذه ، وسفينة لعياله ، وسفينة لمطبخه وخدمه .

وقال كاتبه (سكرتيره) عبد الله بن صالح : صحبت الليث عشرين سنة ، فكان لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس ، ولا يأكل إلا الألوان الكثيرة باللحم الوافر ، وكان كل من جاءه من التلاميذ يأكل وينام وينفق على حسابه ، لا يكلفه من ماله شيئاً ، وإذا أراد السفر أعطاه نفقته وزاده [2] ! .

وكان يتخذ الفالوذج والحلوى لأصحابه ، ويضع فيها الدنانير ، ليرغبهم بذلك فى الأكل ويغنيهم !

وكانت له موائد عامة للناس ، يطعمهم فيها الهرايس بعسل النحل وسمن البقر فى الشتاء ، وباللوز والسكر فى الصيف .

وكان يعطى العلماء رواتب دائمة ، منها مائة دينار للإمام مالك ، وكتب إليه مرة أن عليه ديناً فبعث إليه بخمسمائة دينار ، وكتب إليه مرة أخرى : « إنى أريد أن أزوج بنتى فابعث لى بشىء من عصفر » . وكان يومئذ غالياً ، وكانوا يصبغون به الثياب ويسمونها المعصفرات . . . فبعث إليه بثلاثين جملاً محملة عصفراً فصبغ منه لابنته وباع منه بخمسمائة دينار ، وبقيت عنده فضلة .

ولما حج أهدى إليه مالك طبقاً فيه رطب ، فأخذه ورد الطبق وفيه ألف

---

(1) وكذلك كان أبو حنيفة ، وكثير من العلماء الموسرين من الحلال ، والله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده .

(2) وقد عرفت فى جدة رجلاً كان على هذه الصفة وكان له اطلاع على العلم ، وكانت له خزانة كتب كبيرة ، وكان بابه مفتوحاً ومائدته منصوبة ، صحبته أكثر من خمسين مرة فما وجدته حاد عن هذا هو الشيخ محمد نصيف .

دينار !

ولما احترقت دار ابن لهيعة أعطاه ألف دينار ، ووصل منصور بن عمار القاضى بألف دينار .

وأتاه مرة سائل فأمر له بدينار ، فأبطأ الغلام فجاء سائل آخر ، فقال له الأول : اسكت . فسمعه الليث ، فقال : مالك وله ؟ دعه يرزقه الله . وأمر له بدينار آخر .

قال منصور بن عمار (القاضى) : كنت يوماً عند الليث فأتته امرأة ومعها قدح فقالت : يا أبا الحارث زوجى مريض وقد وصف له العسل ، قال : اذهبى إلى الوكيل فقولى له يعطيك . فجاء الوكيل يسارّه ، فقال : اذهب فاعطها مطرا (أى مائة وعشرين رطلاً) إنها سألت بقدرها ، فأعطيناها بقدرنا .

واشترى منه قوم ثمرة بستان له ثم ندموا واستقالوه (طلبوا الرجوع عن البيع) فأقالهم ، ثم استدعاهم فأعطاهم خمسين ديناراً ، وقال : إنهم كانوا أملّوا ربحاً ، فأحببت أن أعوضهم .

***

لقد كان الليث بن سعد ، يا أيها السامعون والسامعات ، نموذجاً لطراز من العلماء ، نتمنى أن نعود فنرى أمثاله فى هذا العصر .

أن نرى علماء يكون لهم مثل هذا العلم ، وهذه الأمانة فى نقله ، وهذا العقل الكبير ، وهذه الكياسة فى معاشرة الملوك ، وهذه المنزلة وهذا الجاه ، وأن يكون لهم (خاصة) مثل هذا المال الذى يستغنون به [1] ، المال الذى يحصلونه بجدهم وكدهم ، لا الذى يجمعونه بمد أيديهم إلى الناس ، وأن يكون لهم مثل هذا الكرم

***

(1) والإسلام لا يحارب الغنى إن كان من حلال ، **ولا يحرم جمع المال** ، والغنى إن أدَّى زكاة ماله لم يكن ممن يكنز الذهب والفضة ، ولم يكن عليه عقاب .

وتوفى الليث يوم الجمعة 14 شعبان سنة 175 وعمره إحدى وثمانون سنة على التمام .

قال خالد بن عبد السلام الصدفى : شهدت جنازة الليث مع أبى ، فما رأيت قبلها ولا بعدها مثلها ، ولا أظن أنه سيكون أعظم منها أو أكثر من أهلها، ورأيت الناس كلهم في جنازته ، سواء فى الحزن ، يعزى بعضهم بعضاً ويبكون .

قلت : يا أبت ، كأن كل واحد من هؤلاء هو صاحب الجنازة !

فقال : يا بنى ، كان عالماً كريماً ، كبير العقل ، كثير الأفضال .

يا بنى ، لن ترى مثله أبداً .

* * *

ناصر السنة

هذه قصة رائعة من قصص الثبات على المبدأ ، وحمل الأذى فى سبيله ، والتضحية بالنفس والمال من أجله ، قصة رائعة حقاً ، لا أكاد أعرف بعد قصص شهداء الإسلام الأولين أروع منها .

ولست أستطيع أن أجلوها لكم حتى أمهد لها تمهيداً سريعاً .

إن تاريخنا المكتوب يا سادتى ، هو تاريخ الملوك فقط ، أما تاريخ الشعب بعاداته وأوضاعه ، وطعامه وشرابه ، وأفراحه ومآتمه . . . أما تاريخ الفكر باتجاهاته ومقوماته ، فلم يكتب . ولو كان تاريخ الفكر مكتوباً ، لقرأنا فيه أنه كان للفكر فى هذه الفترة التى أؤرخها فى هذا الحديث ، فى العصر العباسى الذهبى ، وجهتان مختلفتان : وجهة التمسك بالأثر ، والوقوف عند ظواهر الأحاديث ، وترك القياس ، إلا عند الاضطرار ، ووجهة إطلاق العقل فى البحث والقياس والنظر . وكان يمثل الوجهة الأولى المحدثون ، ومن ورائهم جمهرة الناس ، وكان يمثل الوجهة الثانية المعتزلة يؤيدهم أرباب العلوم الجديدة ، وكان النزاع بين المعسكرين نزاعاً فكرياً ، ميدانه المساجد ، وحلقات الدرس ، وسلاحه الحجج والبراهين ، حتى جاء المأمون فقرب إليه زعيم الوجهة الثانية ، وتبع مذهبه وسخر قوى الدولة لإكراه الناس عليه ، وبذلك بدأت هذه المأساة التى عرفت فى تاريخنا ، باسم (المحنة) وهى فى اللغة بمعنى الامتحان .

* * *

وأنا كلما قرأت خبر المحنة أقف عند أمور ثلاثة وأعجب منها أشد العجب .

أولها : أن المعتزلة هم أصحاب المذهب العقلي في الإسلام (راسيوناليست) وفيهم اللَسَن والبلاغة وبعد النظر وسعة المعرفة ، وإمامهم ابن أبي دؤاد من أجل رجال الإسلام فضلاً ونبلاً ، وبياناً وعقلاً ، فكيف سوغ لهم هذا العقل أن يكرهوا الناس بالقوة على قبول آرائهم على ما فيها .

وثانيها : أن المأمون وهو أعظم ملوك بني العباس في عقله وخلقه وحلمه، وفي سعة مداركه وعمق تفكيره ، وإحاطته بعلوم عصره المنقولة والمترجمة، كيف رضي لنفسه أن يوصم بالعدوان على حرية الفكر ، وكيف تصور أن الأفكار تنشر بالقوة؟ إن السلطان يستطيع أن يكره الناس على أن يخرجوا من دورهم ، ويبدلوا ثيابهم ، ولكنه لا يستطيع أن يكرههم على الخروج عن مبادئهم ، وتبديل أفكارهم .

وثالثها : المسألة التي صارت مدار الخلاف وهي مسألة لا تستحق هذه العناية وليست من أركان الدين ولا أمرنا الله بها ، ولا يسألنا يوم القيامة عنها وهي : هل القرآن مخلوق أم لا ؟ .

***

بدأت المحنة بورود كتاب المأمون ، وكان بخراسان ، على عامله في بغداد، أن يجمع العلماء الرسميين ، من قضاة وخطباء ، ويسألهم عن القرآن، فمن لم يقل أنه مخلوق عزله ، وكانوا جميعاً لا يقولون بذلك ولكن الضعف البشري ، والخوف على المنصب ، دفعهم إلى التظاهر بالموافقة ، فتركهم ، وعمد إلى جماعة ممن كان الناس يعدونهم أكابر المحدثين ، فامتحنهم فأبوا الموافقة ، فلم يستعمل المأمون القوة، ولكنه هاجمهم من نقطة الضعف فيهم وفي أكثر العلماء في عصرنا ، وهي التعارض بين أفعالهم

وأقوالهم ، وذكر ما أخذوا من أموال لا يستحقونها ، وما كانوا يعملون فى سيرهم الخاصة ، وهدد بنشر هذه الفضائح ، فخافوا فوافقوا إلا أربعة منهم ، لم يجد عليهم مطعناً فى سيرهم وأخلاقهم ، فلجأ إلى الشدة ، وأمر بوضعهم فى الحبس وإثقالهم بقيود الحديد ، فوافق اثنان ، وبقى أحمد بن حنبل ومحمد ابن نوح ، فأمر بحملهم إليه وكان فى خراسان (عند بلاد الأفغان) .

* * *

وتوفى المأمون قبل أن يصلوا كما توفى ابن نوح على الطريق فبقى أحمد وحده .

وكان جمهور العلماء وسواد الناس فى جبهة المحدثين ، ولكن لم يكد المأمون (أى الحكومة) يعلن انحيازه إلى المعسكر الآخر ومعه الأموال والمناصب والدنيا ، حتى تبعه العلماء ، رغبة أو رهبة ، ولم يثبت إلا الإمام أحمد . اختصرت فيه وحده هذه الجبهة الضخمة ، وقام وحده على المسرح ، وانصبت الأضواء كلها عليه ، وتعلقت الأنظار به ، ووقف ضده الخليفة ، وقواده ، وخزائنه ، وسلطانه ، وتعلق نصر الجبهة بثباته ، فإن هو انهزم انهارت جبهة المحدثين وتمت الغلبة للمعتزلة .

أما العامة فكانوا كما يكونون فى كل عصر : قلوبهم مع علماء الحق ولكن سيوفهم مع أمراء الباطل .

* * *

وولى المعتصم وكان رجلا قوى الجسم يستطيع أن يصارع أسداً ، ولكنه كان ضعيف العلم لا يستطيع أن يناظر أحداً ، وكان يجل أخاه المأمون ويراه مثله الأعلى فسار على طريقته ولكنه غلا حتى جاوز الحدود .

ولبث أحمد فى السجن ، وبلغ كل مبلغ من الضعف ، ومع ذلك فقد كان دائم العبادة ، حاضراً مع الله ، يصلى بأهل السجن وهو مقيد بقيود الحديد . وبعث المعتصم علماءه وقواده يناظرونه فكان يرفض الدخول فى المناظرة ويأبى الموافقة إلا بدليل من كتاب الله أو من سنة رسول الله . وحمل إلى حضرة المعتصم وجرت المناقشة أمامه ، فكان يصر على هذا الرد ، وجربوا أنواع الترغيب بالعطايا والمناصب ، وأنواع الترهيب بالتعذيب الشديد ، فلم يؤثر ذلك فيه أثراً .

وبعثوا إليه بعلماء السوء يأتونه من باب التقية ، فكان يقول : إن من قبلنا كانوا ينشرون بالمنشار فلا يرجعون . وأظهر مرة أنه لا يخاف السجن فإن داره ليست أحسن منه ، ولا الموت فإنه يتمنى الشهادة ، ولكن يخاف الضرب ، يخشى ألا يحتمل فتهزم فكرته . ما على نفسه خشى ، ولكن على المبدأ ، فقال له أحد اللصوص وكان معه فى السجن : أنا ضربت عشرين مرة ، يبلغ مجموعها آلاف الأسواط فاحتملتها فى سبيل الدنيا ، وأنت تخاف أسواطاً فى سبيل الله، إنما هما سوطان أوثلاثة ثم لا تحس شيئاً فهون ذلك عليه .

* * *

ولما عجز المعتصم نصب آلة التعذيب ومدوه عليها وضربوه ، فانخلعت كتفه من الضربة الأولى ، وانبثق من ظهره الدم فقام إليه المعتصم يقول : يا أحمد قل هذه الكلمة ، وأنا أفك عنك بيدى وأعطيك ، وهو يقول : هاتوا آية أو حديثاً .

فقال المعتصم بجلاد : شُدَّ ـ قطع الله يدك ـ فضربه أخرى . فتناثر لحمه .

وقال له المعتصم : لماذا تقتل نفسك ، مَنْ مِنْ أصحابك فعل هذا ؟

وقال له عالم من جماعة الخليفة اسمه المروزى : ألم يقل الله تعالى : ﴿ولا

تقتلوا أنفسكم ﴾ . قال أحمد : يا مروزى ، اخرج فانظر أى شيء وراء الباب فخرج إلى صحن القصر . فإذا جمع لا يحصيهم إلا الله معهم الدفاتر والأقلام. قال : أى شيء تعملون ؟ قالوا : ننظر ما يجيب به أحمد فنكتبه .

فرجع . قال : يا مروزى أنا أضل هؤلاء كلهم ؟ أقتل نفسى ولا أضل هؤلاء كلهم !

إنه لم ينس أمانة العلم وهو علي هذه الحال ، واحتمل هذا الأذى كله لأداء أمانة العلم .

وقال بعض المنافقين للمعتصم وهو قائم يكلمه : يا أمير المؤمنين أنت قائم فى الشمس وأنت صائم ؟ خافوا عليه من الشمس وهو الشديد القوى الذى يصرع أسداً ، ولم يخافوا على هذا الشيخ الضعيف وهو صائم ولحمه يتناثر من الضرب .

وجاء القائد التركى عجيف فنخسه بالسيف وقال : ويلك أنت تقدر على هؤلاء كلهم ؟

ولما عجز المعتصم قال للجلادين : اضربوا وشدوا . فكان يجىء الواحد فيضربه سوطين ، ثم يتنحى ويأتى الآخر ، حتى خلعت كتفاه ، وانفزر ظهره كله ، وغطاه الدم .

وانقطعت تكة لباسه (سراويلاته) فكاد يسقط وينكشف . ورآه الناس يحرك شفتيه ، فيقف اللباس مكانه وسألوه بعد . فقال : قلت : يا رب إن كنت تعلم أنى على الحق فلا تهتك لى سترا [1] .

---

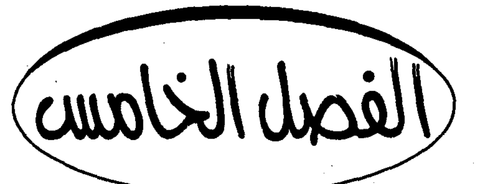
(1) خاف أن تكشف عورته وهو على هذه الحال . واستسهل ما هو فيه على كشفها ، فماذا يقول من يكشفها فى الملعب للرياضة وعلى الشط للسباحة ، والمرأة التى تكشفها للرجل الأجنبى باسم الفحص الطبى بلا ضرورة ظاهرة ، ولا حاجة قاهرة .

حتى أشرف على الموت . وخاف المعتصم أن يثور الناس إن مات ، فرفع عنه الضرب وسلمه لأهله ، بعد ما لبث فى السجن والقيود ثمانية وعشرين شهراً . وأرادوا أن يسقوه شيئاً فأبى أن يفطر ، ولم يخرج حتى أعلن أنه سامح المعتصم وكل من حضر ضربه . وبقى أثر الضرب فيه وبقيت كتفه مخلوعة حتى مات

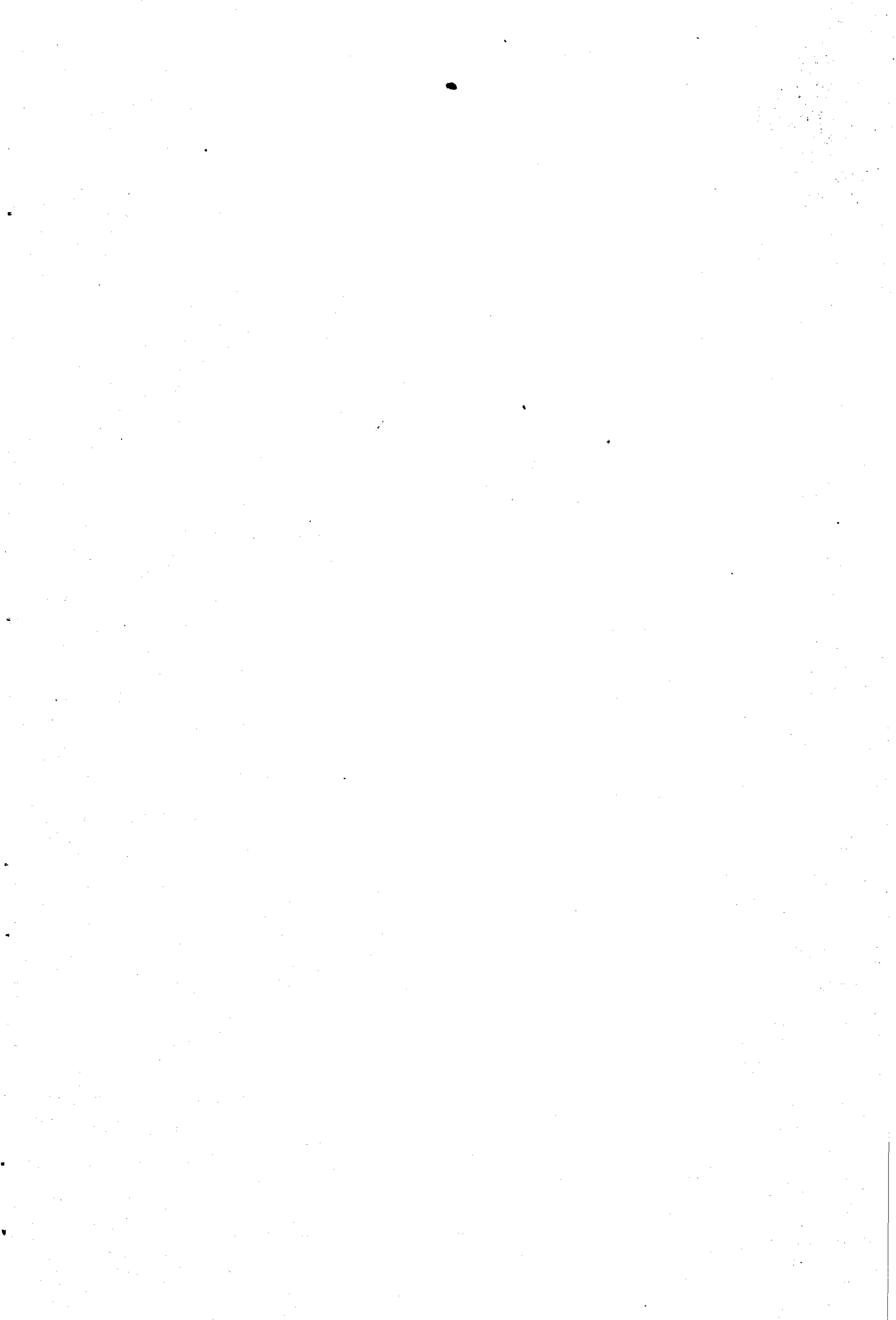
على أن المحنة لم ترفع تماماً إلاَّ أيام المتوكل ، وكانت محنة حقاً ، امتحاناً لأخلاق الرجال ولإيمانهم ولرجولتهم ، وكان الناجح فيها، وكان الأول فى هذا الامتحان العالمى التاريخى ، الإمام أحمد بن حنبل . وليت المعتزلة كانوا قد تركوا الغلو فى تحكيم العقل فيما لا يقدر على الحكم عليه ، وأصلحوا ما كان منهم من خطأ . فكانوا هم الناجحين ، فلم تكن هذه النكسة للفكر الإسلامى التى طالما أكلنا المر من ثمارها .

وثواب أحمد فى الآخرة أكبر ، ومنزلته أعلى . رحمة الله عليه .

* * *



- مفتى السلطان سليم
- الاحتفال بالمولد
- شارح القاموس
- أبو دلامة
- عائشة التيمورية



مُفتى السُّلطان سَليم

نحن الآن فى بلاط الملك العظيم الجبار ، فاتح الشام ومصر ، وناقل الخلافة إلى الترك ، الذى هدم دولاً صغيرة ، فأقام فى مكانها دولة كبيرة ، دولة قامت على السيف وحده [1] فلما صدئ السيف والتوى ، هوت وتصدعت ، وصارت أحاديث .

الملك الذى لقب بـ (ياوز) وكان ياوزًا حقاً : (صاعقة) منقضة لا يقف فى وجهها شىء ، السلطان سليم ؛ ياوز سليم ، تاسع ملوك آل عثمان ، الملك القاهر البطاش ، سفاح الدماء ، وسلاب الأرواح ، والذى أمن أهل حلب على دمائهم وأموالهم ، ثم فرض عليهم ضريبة سماها (مال الأمان) ، كادت تستغرق عامة أموالهم ، وأرسل إلى السلطان الغورى يطلب منه الدعاء، ثم أمر بقتله ، ثم قتل الجاويش الذى تجرأ فنفذ الأمر بقتله ، والذى أباد أهل الرملة كلهم لوشاية واش خبره بأنهم قتلوا جنداً من جنده .

وكان القتل أهون شىء عليه ، خنق أخوته لما خشى أن يزاحموه على الملك، وقتل سبعة عشر من أهل بيته ، وسبعة من وزرائه ، رد عليه الصدر الأعظم يونس باشا (رئيس وزرائه) كلمة ، كان الحق فيها مع الوزير ، فأمر بضرب عنقه فضربت عنقه قبل أن يتم جملته ، ودفن فى موضع مصرعه ، فى خان يونس ، بالقرب من غزة الذى بناه سميُّه يونس الدوادار .

(1) ولكنها أعزت الإسلام دهراً طويلاً ، وفتحت فتوحات عظاماً ، وكان منها ملوك كبار منهم الملك العظيم الصالح العبقرى محمد الفاتح ، الذى فتح القسطنطينية ، ثم جاء المتأخرون من ملوكها فساؤوا، ثم جاء الاتحاديون ففسقوا وأفسدوا ، ثم جاء أتاتورك فكفر وفجر ، ولم يبق ولم يذر .

ولما ترك للشراكسة فى مصر أوقافهم ، قال له رئيس وزرائه برى باشا ؛ يا مولانا ، فنى مالنا وعساكرنا فى حربهم ، وتُبْقى لهم أوقافهم يستعينون بها علينا ؟ وكانت رجل السلطان فى الركاب فأَشار إلى الجلاد ، فقطع عنق الوزير ، فصار رأسه على الأرض ، قبل أن يصير السلطان على ظهر الفرس ، حتى صار من أمثال الناس السائرة : من أراد الموت فليصر وزيرًا للسلطان سليم .

وكان الرجل إذا سمى للوزارة ، كتب وصيته ، وأعد كفنه وودع أهله ، فلا يدرى كلما ذهب ليقابل السلطان أيعود ماشياً على رجليه ، أم محمولاً على قفاه .

***

نحن الآن ـ يا أيها السادة ـ فى بلاط السلطان سليم ، وأهل الديوان الملكى فى أماكنهم ، وقلوبهم من خوف السلطان فى وجل ، لا يدرون ، أيدعو بأحدهم فيسعده ، أو يناديه فيبعده ، أو تحل به نزوة من نزواته فتقعده فلا يقوم أبداً .

فلم يرع الوزراء وأهل الديوان ، إلا دخول الشيخ المفتى عليهم ، وما كان من عادة المفتى أن يدخل الديوان وليس له فيه حاجة ، فوثبوا إليه يستقبلونه حتى أقعدوه فى صدر المجلس وقالوا له : أى شىء دعا المولى إلى المجىءإلى الديوان العالى ؟ قال : أريد أن أدخل على السلطان ، ولى معه كلام . فاستأذنوا له على السلطان فأذن له وحده ، فدخل وسلم عليه وجلس ، والسلطان ينظر إليه وقد بدت بوادر الغضب على محياه ، وسكت محنقاً يرقب ما يأتى به الشيخ الذى دخل عليه بلا دعوة ، وجلس أمامه بلا إذن ، فقال الشيخ : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان ، وقد أمرت بقتل مائة وخمسين من العمال لا يجوز قتلهم شرعاً ، فعليك بالعفو عنهم .

فطار الغضب بعقل السلطان من هذه الجرأة عليه ، ولم يعد يبصر من أمامه ، وكاد يأمر بضرب عنق الشيخ ـ والأمر بالقتل على طرف لسانه دائماً ـ ثم ضبط نفسه وأراد ردعه ، من غير قتله ، وقال له : إنك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك . وأعرض عنه ، وارتقب أن يكف الشيخ وينصرف . ولكن الشيخ قال له : بل أتعرض لأمر آخرتك وإنه من وظيفتى ، ومهما عشت فإنك ميت ، ومعروض على الله ، وواقف بين يديه للحساب ، فإن عفوت فلك النجاة ، وإلا فإن أمامك جهنم ، لا يعصمك منها ملكك ، ولا ينجيك سلطانك .

أتدرون ماذا كان ؟ لقد ذل السلطان الجبار أمام الشيخ الضعيف ، وهانت القوة أمام الحق ، وخضع ملك الزمان أمام سطوة الشرع ، ولم يعد الشيخ هو الذى يتكلم ، بل أعظم موجود عرفته هذه الدنيا : الإسلام .

وكذلك يذل أكبر جبار أمام العالم الصادع بالحق ، الذى لا يبالى إلا الله . . . وعفا السلطان عنهم جميعاً . وجالس المفتى ساعة يحدثه ويكرمه ، فلما قام ليخرج قال الشيخ : تكلمت فى أمر آخرتك ، وبقى لى كلام متعلق بالمروءة . قال السلطان : ما هو ؟

قال : هؤلاء من خدم السلطان ، فهل يليق بعرض السلطنة أن يتكففوا الناس ؟

قال : لا .

قال : فأعدهم إلى مناصبهم .

قال السلطان : نعم ، إلا أنى أعاقبهم لتقصيرهم فى خدمتهم .

قال : هذا جائز ؛ لأن التعزير مفوض شرعاً إلى رأى السلطان ، ثم سلم عليه وانصرف .

***

هذا المفتى هو المولى علاء الدين على بن أحمد الجمالى ، الذى تولى التدريس والفتوى (مشيخة الإسلام) ستاً وعشرين سنة ، على عهد السلطان بايزيد والسلطان سليم وابنه السلطان سليمان القانونى - بانى التكية الكبرى فى دمشق ، أما الصغرى القديمة فهى من بناء أبية سليم هذا - كان عالماً عاملاً ، يمضى وقته كله فى التلاوة والعبادة والدرس والفتوى ، ويصلى الصلوات الخمس مع الجماعة . وكان كريم النفس ، طيب الأخلاق ، عظيم المهابة ، صداعاً بالحق ، متخشعاً متواضعاً عفيف اللسان ؛ ما ذكر أحداً بسوء ، ولا جرت على لسانه قولة الخنا ، وكانت أنوار العبادة تتلألأ على جبينه ، وكان يحب العزلة فجعل مجلسه فى غرفة مطلة على الطريق وأدلى منها زنبيلاً (سلة) ربطه بحبل ، فمن كان له سؤال واستفتاء ، ألقى سؤاله فى الزنبيل وحرك الحبل فأخذه وأجاب عليه ، وأدلى بالجواب . فعرف بلقب (زنبيلى زاده على أفندى) .

وألقى الله هيبته فى قلب السلط مليم ، فكان يمتثل أمره ، ويجيب طلبه . ذلك حين أفهمه أن وظيفة المفتى هى المحافظة على آخرة السلطان ، كما أن وظيفة الطبيب المحافظة على صحته . أفيسكت الطبيب إن رأى الملك يتناول السم ؟ ألا ينهاه ، فإن لم ينته أمسك بيده قسراً ، وأراق الكاس جبراً ؟ فلماذا يسكت المفتى إن رأى الملك يورد نفسه جهنم ؟

وكانت له معه مواقف كثيرة ، أختتم هذا الحديث بذكر واحد منها :

لما خرج السلطان سليم إلى إدرنه خرج المفتى لوداعه وتشييعه ، فرأى فى الطريق أربعمائة رجل مشدودين بالحبال ، يسوقهم الجند ، فسأل عن حالهم ، فقالوا : إنهم خالفوا أمر السلطان ، فحكم عليهم بالقتل .

فذهب المفتى إلى السلطان فلقيه وهو راكب ، فقال له على ملأ من الناس :

ـ هؤلاء لا يحل قتلهم .

فقال السلطان : أيها الشيخ إلى متى تتدخل فى أمور السلطنة ؟ الزم حدك ، واشتغل بوظيفتك ! أما لك وظيفة تقتصر عليها ؟ أما لك عمل تعمله ؟

قال الشيخ : هذه وظيفتى وهذا عملى ، فإن سمعت نجوت ، وإلا لقيت ملكاً هو أقدر عليك منك عليهم . وأدار عنق دابته ومشى بلا تسليم ، فاحمر وجه السلطان ، وكاد يتفجر منه الدم ، ووقف على فرسه صامتاً مدة طويلة ، وهو فى غضب لم يغضب مثله ، والناس كلهم خائفون ، سكوت ، لو ألقيت إبرة على التراب لسمع صوتها .

ثم مشى فى طريقه وأمر بالعفو عن القوم .

***

هذا لتعلموا أن العظمة فى تاريخنا ، هى عظمة هؤلاء الرجال . هؤلاء العلماء الذين علموا ليعملوا ، وآمنوا فظهر إيمانهم على أقوالهم وأفعالهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، فكانوا مع الناس فى معاشهم ، ومع الملوك فى مناصبهم ، ولكن قلوبهم كانت أبداً مع الله ، لا تعمل إلا له ولا ترجو إلا إياه ، وترى الدنيا ومن عليها فى جانب الله أهون من ذرة فى الفضاء ، فلا تحفل منها بطعام ولا شراب ، ولا شهوة نفس ، ولا نشوة سلطان ، ولا تخاف فيها ملكاً ولا جباراً ؛ لأنها كانت مع الله ، فكان الله معها ، وهو ملك الملوك وقاصم الجبارين .

ولو أن عصراً خلا من أمثال هؤلاء لخلا منهم هذا العصر الذى صورت لكم اليوم صورته ، ولكنهم موجودون أبداً معجزة حية باقية لخاتم الأنبياء محمد ـ ﷺ ـ وتصديقاً لقوله : « **لا تزال طائفة من أمتى على الحق لا يضرها من خالفها حتى تقوم الساعة** » .

الاحتِفالُ بالمولِد

قلت فى الكلمة التى أذعتها يوم المولد : إن أول من ابتدع الاحتفاء به ، هو الملك المظفر ، صاحب أربل ، فكتب إلىَّ كثيرون يسألوننى ، من هو الملك المظفر ؟ وما خبره ؟ فجعلت جوابى لهم هذا الحديث .

❊❊❊

كان الملك المظفر قائداً من قواد السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وعاملاً من عماله ، أما لقب الملك فكان فى اصطلاح تلك الأيام يطلق على كل وال أو حاكم، ولو كان والى مدينة ، أو حاكم قرية ، بل لقد جرت عادة الأيوبيين ـ وهذا من قبيح عادتهم ، التى أدت إلى الانقسام المستمر ـ أن يطلقوه على الولد من أولادهم ، وهو صبى ، كما يطلق ملوك أوروبة على أبنائهم لقب (البرنس) .

وكان أبوه من شجعان التركمان ، وكان يلقب بـ (كجك) ومعنى كشك فى التركية : الصغير ، لأنه كان قصير القامة ، صغير الجسم ولكنه كان قوياً مفرط القوة جريئاً بالغ الجراءة وكان من قواد آل زنكى ، حضر الوقائع العظيمة، وفتح الفتوح الجليلة وولى أعالى العراق والجزيرة ، فسار فيها السيرة الحميدة، ووقف فيها الأوقاف ، ولما شاخ وقارب المائة ، نزل عما كان يليه، ولم يبق لنفسه إلا مدينة أربل [1] .

وكان ابنه الملك المظفر (هذا) ، يدعى كوكبورى ، ومعناه فى لسانهم (الذئب الأزرق) ، وكان منقطعاً إلى صلاح الدين ـ رحمة الله على روحه ـ

(1) ويسمونها اليوم أربيل ، وهى ولاية إلى جنب الموصل .

شهد معه المشاهد كلها ، وكان أحد قواده الكبار ، وكان من أثبتهم فى المعارك قدماً ، وأجرئهم قلباً ، وأعرفهم بفنون القتال ، ما عرف الهزيمة قط .

ولما تضعضع الجيش الإسلامى غداة معركة حطين ، وكاد ينكسر ويتمزق ، بقى ثابتاً فى الميدان مع السلطان صلاح الدين ، والملك تقى الدين صاحب حماة [1] فى قطعة صغيرة من الجيش ، وتلقوا بصدورهم هجمة الإفرنج ، ثم ردوها ، كما تتلقى صخرة الشاطئ الموجة العالية العاتية ، ثم تردها ، وعاد بذلك الجيش الإسلامى إلى مواقعه ، وكان الظفر الأبلج ، الذى لا تزال تتحدث حديثه العصور .

وفى حصار عكا ، كان له مع السلطان أشرف موقف ، يعرفه ويعرف أمثاله ، من عاد يقرأ هذه الصفحات الغر المحجلات من تاريخنا ، صفحات البطولة المعجزة التى احتواها تاريخ (الأبطال الثلاثة) : نور الدين ، وصلاح الدين ، والظاهر وأنا أوجب على كل مسلم اليوم أن يقرأها مرة ثانية ، ليجدد إيمانه بالله ، وبأن فلسطين ستعود إلينا وليعرف من أين الطريق إلى استرجاع فلسطين .

***

أما سيرة الملك المظفر فى السلم فلم تكن دون سيرته فى الحرب ، هنالك النجدة والثبات والظفر ، وهنا العدل والإحسان والكرم ، وليس ذلك عجباً ولا نادراً فى ذلك العصر ، فإن الناس ـ كما قال القائلون ـ على دين ملوكهم ، ومتى صلح الرأس صلحت الجوارح ، ومتى كان السلطان مثل صلاح الدين ، كان الأمراء مثل الملك المظفر .

لقد قرأت سيرته ، وسمعت خبره من شاهد عيان ، وعصرى [2] صادق ،

(1) أى والى حماة .
(2) عصرية أى معاصرة ، ومعاصر ، ومثلها مواطن ، لم تسمع عن العرب الأولين .

هو القاضى ابن خلكان ، فما دريت أأقرأ سيرة ملك من الملوك ، أم رئيس جمعية خيرية للمواساة والصدقات والترفيه والإحسان ، هذا هو عمله الذى يعيش له ، ويعيش منه ، ولا هم له غيره ، ولا عمل له سواه .

ولقد عرفت سير كرماء ضربوا بكرمهم الأمثلة ، ولكنهم كانوا يعطون الشعراء والمغنين والسائلين ، ويبذرون ويضعون الأموال فى غير مواضعها ، أما الملك المظفر ، فكان كرمه للناس جميعًا ، ولولا ما سن من سنن سيئة فى يوم المولد ، من اللهو والسماع ، لشهدت بأنه لم يكن له نظير .

***

لم يكن فى الدنيا شىء أحب إليه من الصدقة والبذل ، لا للشعراء فما كان للشعراء منه حظ ، ولكن للفقهاء والفقراء ، والوعاظ والمحتاجين ، وكان يجل العلماء ، ويدنى مجالسهم ، ويستسلم لهم ، ويهش للوعظ ، ويصغى للفوائد .

وكان له كل يوم قناطير من الخبز توزع توزيعاً عاماً على الفقراء ، فى أماكن خصصها لذلك فى نواحى البلدة ، فلا يطلب أحد شيئاً منه إلا أعطيه ، فكان العامة يأكلون خبزهم من ماله ، ولا يتكلفون له ، ولا يفكرون فيه .

وكان يرى الخبز حقاً لكل إنسان يأخذه مجاناً ، كالماء الهواء ، وهذه الثلاثة هى ضرورات الحياة وهى على درجات ، أما الهواء الذى لا يصبر عنه الحى لحظة ، فهو ميسور فى كل مكان ، أما الماء فيصبر عنه قليلاً ، لذلك كان كثيراً موفوراً ، وإن خلت منه مواضع ، أما الخبز فيصبر عنه أمداً أطول ، لذلك كان أقل .

وكان إذا عاد من الديوان ، وجد على بابه كل يوم طوائف من المحتاجين فيوزع عليهم الثياب الرخيصة النافعة ، التى اتخذت لدفع البرد ورد المرض ،

لا للفخفخة والفخر ، ويعطى كلا عطية صغيرة : دينارين أو ثلاثة .

ورأى المرضى الذين لا يرجى لهم شفاء (الزمنى) والعميان ، فبنى لهم أربعة مستشفيات ، وتلك هى سنة الإسلام ، شرع بها من الملوك الوليد بن عبد الملك ، ثم صارت شعار الملوك الصالحين من المسلمين ، وقرر لهم كل ما يحتاجون إليه من الفرش والحمامات والمراحيض ، والخدم والممرضين [1] ورتب لهم المطابخ تقدم لهم الطعام والشراب ، وعين لهم وعاظاً يعظونهم ويعلمونهم ، ومحدثين يقرؤون لهم ويسلونهم ، وكان يزورهم زيارات مفاجئة ، ويقف عليهم واحداً واحداً ، يسأل كلا عن طعامه وشرابه ، وما يشكو منه ، وما يشتهيه ، ويبرهم بالمال والفاكهة والطرف .

وأنشأ داراً للضيافة ، ينزل فيها كل مسافر ثلاثة أيام ، يتغدى فيها ويتعشى وإذا أراد السفر أعطوه نفقة ومعونة .

وفتح مدرسة عظيمة ، جعلها قسمين : قسماً للحنفية وقسماً للشافعية وأقام لها المدرسين ، وجعل لهم وللطلبة المرتبات والعطايا . وفتح مدرستين للصوفية !

وكان له عمال يسافرون مرتين فى السنة ، إلى البلاد الساحلية التى كانت بيد الإفرنج ، يفكون أسرى المسلمين ، ويعينوهم على العودة إلى ديارهم .

وجعل للحج بعثة رسمية ، تذهب كل سنة مع الحجاج ، تخدمهم وتتعهدهم وتعين الفقير والمنقطع منهم ، وأرسل معهم ستة آلاف دينار لفقراء الحرمين .

وكان له بمكة المآثر الجليلة ، منها أنه كان أول من أجرى الماء إلى عرفات

---

(1) أما الممرضات فلا يجوز اختلاطهن بالرجال ، والكشف على عوراتهم إلا عند الضرورة أو الحاجة الشديدة التى لها هنا حكم الضرورة .

ليلة الموقف ، وكان الحجاج يشكون قلة الماء ، وأنفق فيه النفقات الطائلة .

* * *

وكان يؤخذ عليه ، أنه كان على طريقة مبتدعة المتصوفة ، الذين يقيمون حفلات السماع ، ويتواجدون ويرقصون ، ويأتون أعمالاً ليست من الدين ، ولا يعرفها السلف ولا أوائل الصوفيين ، وكلن مولعاً بها ، يزور مدارس الصوفية التي أنشأها لهم فيُجمع له المغنون (المنشدون) فيسمع منهم ، مثل الذى تسميه إذاعة دمشق : الأناشيد الدينية ، والدين برىء منه ، ولم يسمع مثله الرسول ـ ﷺ ـ ولا الصحابة ولا التابعون ، ولا عرفوه ، ومن هذه (الأناشيد) ما لا يخلو من كفر صريح ، وسؤال الرسول ما لا يقدر عليه إلا الله ، ووصفه بما لا يوصف به إلا الله . ومنها ما هو وقاحة وسوء أدب وغزل بالرسول ووصف جماله ، وذكر للهجر والوصال [1] . . .

والدين ما كان عليه الرسول وصحبه ، ومن زعم أن فى المحدثات ما هو من الدين ، فقد نسب النقص إلى الشريعة ، وادعى بأنه زاد فى القربة والطاعة على الرسول ـ ﷺ ـ وسيصدم هذا الكلام كثيراً من السامعين ، ويرون فيه غير ما عرفوا وألفوا ، ولكنه هو الحق ، والحق أحق أن يتبع .

أعود إلى الموضوع .

قد قلت لكم : إن الملك المظفر كان أول من أظهر الاحتفاء بالمولد ، وأحيا لذلك بدعة العبيديين المدعون بالفاطميين ، فى مصر ، لما حكموها ، وأنا أنقل إليكم وصفا لذلك الاحتفاء ، نقلاً عن المؤرخ الثقة القاضى ابن خلكان ، وهو شاهد عيان ، لتروا أنه لم يكن احتفالاً دينياً ، ولم يكن مجلس عبادة وذكر ،

(1) منعت الإذاعة على أثر هذا الكلام ما يسمى (الأناشيد النبوية) فأخرج طائفة منشوراً يردون فيه عليّ ، ويحتجون عليها ، واستدلوا بأن الرسول ـ ﷺ ـ سمع قصيدة كعب بن زهير وفيها غزل ! ! .

ولا مقام طاعة وتبتل ، وإنما كان (معر ضاً) كهذه المعارض التى تقيمها دول أوربة فى هذه الأزمان ، فيه اللهو وفيه الغناء وفيه كل شيء .

كان الناس يتوافدون إلى (إربل) حتى تصير مثل أرض المحشر ، ويصحب كل منهم أهله ويحمل تجارته إن كان تاجراً ، وبدائع مصنوعاته إن كان صانعاً مبتكراً ، ويعد خطبه ومواعظه إن كان خطيباً أو واعظاً محترفاً ، وقصائده إن كان شاعراً .

ويقيم المظفر أبنية مؤقتة من الخشب ، كل واحدة بطبقات أربع أو خمس يؤجرها لمن شاء ، فإذا كان شهر صفر زينوها بأنواع الأصباغ والستائر والأوراد والصور والأعلام والأضواء ، حتى تكون أعجوبة [1] ، ويدع لنفسه وحشمه عشرين منها ، ينتقل إليها وكذلك يفعل القواد وكبار رجال الدولة .

ويكون فى الباقى جوقات[2] المغنين ، والممثلين وأصحاب الخيال (شيء مثل كراكوز) وتبطل معايش الناس ، وتتعطل المدارس إلى يوم المولد .

والملك يدور كل ليلة فيقف على المغنين وأصحاب الخيال وعلى كل بناء وقبة يتفرج ويعطى العطايا . وكان يجعل المولد سنة فى التاسع من ربيع الأول وسنة فى الثانى عشر للخلاف الوارد فى تعيين يوم مولده ـ ﷺ ـ .

❊ ❊ ❊

تبدأ الاحتفالات ليلة المولد بسَوْق عدد هائل من الإبل والبقر والغنم بالطبول والأناشيد والناس وراءها بالأعلام والمزامير والصياح حتى تذبح ويعد لحمها للولائم ، فتقام القدور ، ويعد الطعام الكثير ثم يذهب إلى المسجد فيخرج من صلاة العشاء ، بين يديه الشموع العظيمة والمشاعل والناس وراءه ،

---

(1) كما يكون فى المعارض تماماً

(2) جوقة كلمة عربية .

حتى ينتهى إلى (الخانقاه) فيقيم تلك الليلة سماعاً عظيماً ـ أى ما يسمونه اليوم ذكراً ، وما هو بالذكر ـ ويأتى الصوفية بعجائب الإنشاد والرقص والتواجد ، فإذا كان يوم المولد ، نصب له برج كبير فيجلس عليه مع رؤساء دولته ، وبرج أوطأ منه للصوفية والعلماء ، ويمر الجيش بين يديه فى عرض عظيم ، بفرسانه ورجّالته وأعلامه وراياته وطبوله ، وجماعات الصوفية والمنشدين ، وطلبة المدارس ، وعامة الناس ثم يقوم الخطباء والوعاظ ، وينشد المنشدون ، ويخلع على الجميع ويعطيهم ، ثم يدعى كل من حضر ، وهم آلاف مؤلفة ، إلى الموائد فيأكلون جميعاً .

وقد ألف له الحافظ ابن دحية رسالة فى المولد ، كانت أول مولد أُلِّف .

* * *

هذه سيرة رجل كان من أنفع الناس للناس ، ومن أعدل الملوك فى الرعية ، ومن نماذج الحكم الصالح ، وكان ذلك طبعاً فيه لا تطبعاً ، وكان يقدم إليه الطعام فيأكل منه لقمة فيستطيبه ، فيقول : ارفعوه ، وخذوه إلى فلان الفقيه أو فلان الفقير . وكان يستحسن الثوب فيخلعه ويقول : خذوه إلى فلان الصالح أو فلان المحتاج . وكان قائداً من أبرع القواد ، ومحارباً من عباقرة المحاربين ، وأسأل الله أن يغفر له إن كان من أنصار البدع فى الدين ، ومن أعوان المتصوفين المبتدعين ، توفى ليلة الأربعاء 18 رمضان سنة 630 هـ .

* * *

شـارح القـامـوس

لو سئلت : ما هو أشهر كتاب عربى ؟ لقلت : إنه القاموس ، للفيروز آبادى فقد بلغ من شهرته أن سُمِّى كل معجم قاموساً ، مع أن القاموس اسم لهذا الكتاب وحده ، وإلى جنب القاموس فى كل خزانة كتاب شرح القاموس ، الكتاب الجليل الذى يزيد فى إحاطته وشموله ، على المعجم العظيم لسان العرب .

وحديثى اليوم عن الزَّبيدى شارح القاموس ، عن الرجل الذى كان طرازاً نادراً فى العلماء . والذى كان نموذجاً للشيخ الذى جعل (المشيخة) تجارة ، وصورة للعالم المترف الثرى ، والذى بلغ من قدره أنه كان أشهر علماء الأرض فى زمانه ، ونال من الحظوة عند العامة والخاصة ، وعند الملوك والأمراء ، ما لم ينله إلا الأقل الأقل من العلماء ، والذى كان مشاركاً فى كل علم ، ملما بكل فن ، إماماً فى اللغة وفي الحديث وفى التاريخ ، وكان أديبا شاعراً ، وكان مع ذلك وقوراً مهيباً ، بشوشاً بساماً وكان مع هيبته ووقاره ، خفيف الروح ، عذب النكتة ، مستحضراً للنوادر العجيبة ، متحدثاً قليل النظير .

***

ولد فى الهند سنة 1145هـ قبل مائتين وثلاثين سنة [1] ونشأ بها ، ثم رحل فى طلب العلم كما كان يرحل العلماء فى ذلك الزمان ، وحج مراراً ، ونزل االطائف سنة 1166 فأقام بها زمناً وورد مصر سنة 1167 .

---

(1) أذيع هذا الحديث سنة 1375 هـ

وفى مصر لمع نجمه وسار اسمه ، ونال المنزلة التى وصفت لكم ، وقد اتصل أول أمره بالأمير إسماعيل كتخدا ، وألقى الله محبته وإكباره فى قلبه ، فأولاه جانبا من دنياه ، ونبه إكرام الأمير الناس إليه ، فأقبلوا عليه ، وتسابقوا إلى سماع درسه ، وحضور مجلسه ، وأهدوا إليه الهدايا الفاخرة ، فحسنت حالة ، ولبس الملابس الفاخرة ، واشترى الخيل المسوَّمة ، وكان نحيفاً ربعة مورّد الوجه ، متناسب الأعضاء ، يتخذ الزى الحجازى خلفاً لزى علماء الأزهر ، ويلبس العمامة الحجازية على القلنسوة المزركشة[1] ، ويترك لها عذبة ، فكانت غرابة زيه من أسباب زيادة الإقبال عليه ، فانتقل إلى (سويقة اللالا) وكانت يومئذ حى الأعيان والكبراء ، وفتح بيته للناس . وكان يقيم الولائم ، ويهدى إلى من يهدى إليه ، وجعل ينقل درسه من مسجد إلى مسجد، ومن حى إلى حى ، وزار بلاد الصعيد ثلاث مرات . وكان حيثما حل ، احتشد له الناس وازدحم عليه طلبة العلم والعلماء ، وتسابق إلى إكرامه ودعوته الأمراء والكبراء ، وعنى به شيخ العرب همام ، وهو كبير أعيان تلك البلاد ، ورحل إلى مدن الوجه البحرى كدمياط ورشيد والمنصورة وغيرها مراراً ، ثم تزوج وأحب زوجته حباً ما أحب مثله قيس ليلاه ، ولا العباس فَوْزَه، وعاش معها فى مثل نعيم الجنات . وشرع بشرح القاموس ، وكان كلما أتم كراريس أرسل منها إلى علماء الأقطار الإسلامية . فاشتهر قبل إكماله، فلما أكمله أولم الولائم العظيمة ، وجمع العلماء والوجهاء ، وكان احتفالاً ضخما ، لبث عمراً وهو حديث الناس .

ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب جامعه المعرف بالقرب من الأزهر ، أقام فيه خزانة كتب كان يشترى لها الكتب النادرة بأغلى الأثمان ، وقد اشترى أول نسخة من شرح القاموس بمائة ألف درهم فضة ! .

(1) لم يبق الآن من يلبسها فى الحجاز إلا الشيخ الشنقيطى سفير الأردن فى السعودية .

ولم يمنع الزبيدى ما نال من دنيا عريضة ، من الاشتغال بالعلم ، والعكوف على التصنيف ، والولع بإقراء الطلبة ، وإحياء العلوم التى اندثرت ونسيت كعلم الأنساب والأسانيد وتخاريج الحديث ، وألف فى ذلك كله كتباً جليلة .

وكان مع هذا الجاه وهذا العلم يشتغل بالوعظ وبالرقى والتمائم (الحجب) ويجيز بالأوراد والأحزاب الصوفية الطرقية ، ويوهم أنه المهدى ! .

وكان هذا إلى غريب زيه وهيئته ، إلى معرفته باللغة التركية واللغة الفارسية والكرجية ، وإتقانه أساليب معاشرة الملوك والكبراء ، وأساليب التأثير على العامة ، كان هذا من أسباب ما نال من شهرة ، وما كان له من مكانة نال بعضها بالعلم الحق ، وبعضها بهذه الأساليب !! .

****

وكانت مجالس الأمالى قد مضت وانقطعت من عهد السيوطى . الأمالى من مفاخر تاريخ العلم الإسلامى ، فأعادها ووصلها ، وشرع يملى من حفظه على طريقة السلف مجالس فى الحديث ، مبتدئاً بذكر الأسانيد والرواة والمخرجين .

وكان كلما قدم عليه قادم أملى عليه الحديث المسلسل بالأولوية ، وهو حديث الرحمة ، برواته ومخرجيه ، ويكتب له سنداً بذلك ويخبره به ، ويكتب سماع الحاضرين ، فكان الناس يعجبون من ذلك .

وكان ينظم (مسرحيات) أخرى ، أعجب تأليفاً وإخراجاً ؛ وذلك أنه كلما دعاه أحد أقام له الموائد الفاخرة ، وجمع الأهل والإخوان ، فيقبل معه خواص الطلبة ، ومعه القارئ والمستملى وكاتب الأسماء ، فيقعد على كرسى عال فيتلو القارئ ما تيسر من آيات الكتاب ثم يقرأ المستملى ، أى المعيد ، ثم

يقرأ لهم الشيخ شيئاً من الأجزاء الحديثية ، كثلاثيات البخارى أو الدارمى أو بعض المسلسلات ، وصاحب المنزل وأصحابه وأقرباؤه ، والنساء والبنات من خلف الستائر يسمعون ولا يفهمون شيئاً بالطبع ! وخلال ذلك يدار على الحاضرين بالبخور والعنبر ، وماء الورد ، ثم يختم الدرس بالصلاة على الرسول ، على النسق المعتاد وبالنغمة المعروفة ، ثم يكتب الكاتب أسماء الحاضرين حتى النساء والصبيان ويكتب الشيخ تحت ذلك (صحيح) ويمضى . . .

فكان الناس يرون رواية مسرحية عجيبة ، يتحدثون بها فتزيد من شهرة الشيخ [1] .

وطلب منه بعض شيوخ الأزهر إجازة ، فقال : لا بد من قراءة أوائل الكتب ، واتفقوا على الاجتماع في جامع شيخون ، وحضر الاجتماع أهل تلك الناحية وطلبة العلم فيها ، فالتمسوا منه بيان المعانى فانتقل من الرواية إلى الدراية ، وكان درسًا عظيما ، استمر مدة طويلة . وكان يمزج الحديث بالفقه بالعربية بالرواية ، ولم يكن ذلك معروفاً من مشايخ الأزهر فى تلك الأيام .

وأحبه بعض الأمراء الكبار مثل مصطفى بك الإسكندرانى ، وأيوب بك الدفتردار ، وسعوا إلى منزله ، وأهدوا إليه الهدايا الجزيلة ، واشترى الجوارى وعمل الأطعمة للضيوف ، وأكرم الواردين من الآفاق .

وانتقلت شهرته إلى تركيا ، فطلب إلى العاصمة (إسطنبول) فامتنع ، فرتبت له المرتبات الكبار ، وكاتبه أمراء المسلمين من الترك والحجاز واليمن والهند والشام والعراق والمغرب والسودان والجزائر ، وكثرت عليه الوفود والهدايا العجيبة منها أغنام فزان ، وهى عجيبة الخلقة يشبه رأسها رأس

(1) وكل ذلك من البدع المحدثات ، التى لم يعرفها علماء السلف ، ولا صنعها أحد من المحدثين .

العجل ، فأرسلها إلى أولاد السلطان ، فكان لها وقع عظيم ، وكذلك الببغاء والجوارى والعبيد ، فكان يرسل ذلك إلى الجهات المستغرب فيها ، ويأتيه فى مقابلها أضعافها ، وأتاه من طرائف الهند واليمن أشياء نفيسة ، منها العود والعنبر بالأرطال .

وصارت له شهرة عظيمة عند أهل المغرب ، حتى أن من يحج ولا يزوره لا يرون حجه كاملا ، وكلما ورد عليه وارد سأله عن اسمه ونسبه وبلده وأصحابه وجيرانه ، ويكتب ذلك فإذا جاءه بعدُ أحد هؤلاء الأصحاب يقول له : جارك فلان حى ؟ وأخوك فلان هل ربحت تجارته ؟ وأين عمك ، هل أكمل بناء بيته؟ .

فيقوم المغربى ويقبل يديه ورجليه ، ويرى ذلك من الكشف ![1] .

فتراهم فى أيام الحج طالعين إلى داره ، نازلين منها ، وما منهم إلا ومعه هدية أو طرفة ، ويسأله العلماء فمن ظفر منه بجواب ، ولو على ورقة بقدر الإصبع ، فكأنما ظفر بحسن الخاتمة!

وكان يعرف كيف يحمل الكبراء على احترامه ، ولما جاء حسن باشا مصر ، وذهب إليه كل كبير فيها مسلِّمًا ، لم يذهب الشيخ ، وبعث من حمل الباشا على زيارته فزاره فى داره ، وخلع عليه الشيخ فروة ثمينة لا تقدر بمال ، وقدم له حصاناً سابقاً على سرج مذهب ، وعباءة ثمنها ألف دينار ، وكان قد أعد ذلك قبل هذه الزيادة ، فكان ذلك سبباً فى علو مكانته عنده حتى صارت شفاعته لديه لا ترد ، وإن أرسل إليه كتاباً أو ورقة قبَّلها قبل أن يقرأها وأمر بإنفاذ ما فيها [2] ، وأرسل مرة إلى أحمد بك الجزار كتابا ذكر له فيه أنه المهدى المنتظر ، وسيكون له شأن عظيم ، فوقع عنده موقع الصدق لميل النفوس إلى الأمانى ، ووضع ذلك الكتاب فى عنقه مع الحجب والإحراز والتمائم ! وكان

(1) ويراه العقل والشرع من الحيل التى لا تليق بالعالم .

(2) فكانت تلك الهدية من الشيخ رشوة ظاهرة .

يسر ذلك إلى بعض من يقدم عليه ممن يدعى المعرفة بالجفر والزايرجة وهاتيك الحماقات التى كانت رائجة فى تلك الأيام ، ومن قدم عليه من جهة مصر سأله عن الشيخ الزبيدى ، فإن خبره أنه قد عرفه واجتمع به وأثنى عليه تقبله قبولاً حسناً ، وأجزل صلته ، وإن لم يكن يعرفه أو لم يمدحه رده وجفاه مهما كانت منزلته [1] .

ولما شرع بشرح الإحياء للغزالى ، بيض منه أجزاء وأرسلها إلى الروم والشام والمغرب ليشتهر كما اشتهر شرح القاموس .

* * *

ووقع له حادث ، قلب حياته قلباً ، وحوله من هذه الحياة الاجتماعية ـ التى كان مضرب المثل فيها ـ إلى عزلة وانطواء على نفسه ، ذلك هو وفاة زوجته التى أحبها الحب العظيم ، وأعطاها قلبه كله ، وقد روعه موتها وأنساه وهو العالم الجليل ، ما قد رواه وحدث من كراهية تجصيص القبور ، وإقامة القباب عليها ، فدفنها عند القبر المنسوب للسيدة رقية فى ظاهر القاهرة ، وعمل لها مقاماً عليه قبة ، ومقصورة أقام عليها الستور والقناديل ، ولازم قبرها مدة حتى كاد يجن ، وبنى بيتاً بجنب القبر أسكن فيه أمها [2] ، وأخرج الأموال الطائلة فجعلها جوائز كباراً ، يمنحها لمن يرثيها أو ينظم فيها .

وأغلق عليه بابه ، واحتجب على الناس ، وأبى أن يدخل عليه أحداً أو أن يقرأ درساً . ورد الهدايا التى كانت تجيئه ، ومنها هدية أيوب بك الدفتردار ، وهدية عظيمة بالغة القيمة من سلطان المغرب .

وقال فيها روائع الشعر ، وإذا ألهم الله طالباً من طلاب الأدب فجعل

---

(1) وبمثل عقلية هذا الباشا (انتصرت . . .) الدولة العثمانية ! .

(2) وذلك كله ممنوع شرعاً .

موضوع أطروحة يقدمها إلى جامعته رثاء الشعراء زوجاتهم ، فعدَّ من المتقدمين جريراً ، ومن المتأخرين أباظة وصدقى ، فلا ينسى الزبيدى شارح القاموس .

ومن قوله فيها القصيدة البائية البارعة ومطلعها :

أعاذل من يُرزأ كرزئىَ لم يزل ... كئيباً ويزهد بعده فى العواقب

وقوله فى قصيدة أخرى :

ما خلفت من بعدها فى أهلها ... غير البكا والحزن والأيتام

وقوله فى غيرها :

مضت فمضت عنى بها كل لذة ... تقر بها عيناى فانقطعا معا

وقوله :

زبيدة شدت للرحيل مطيها ... غداة الثلاثا ، فى غلائلها الخضر

تميس كما ماست عروس بدلها ... وتخطر تيهاً فى البرانس والأزر

سأبكى عليها ما حييت وإن أمت ... ستبكى عظامى والأضالع فى القبر

ولست بها مستبقياً فيض عبرة ... ولا طالباً بالصبر عاقبة الصبر

ولما جاء الطاعون سنة 1250 وكان خارجًا من صلاة الجمعة ، طعن فحمل إلى داره .

وذكر المصنف الذى نقل عنه الشيخ عبد الرزاق البيطار [1] فى تاريخه المخطوط :

---

(1) العالم المتفنن ، جد الأستاذ الجليل الشيخ بهجة البيطار ، وتلميذ جدنا الذى قدم مصر سنة 1250 الشيخ محمد الطندآنى أى الطنطاوى ، وعنه نقلت أكثر أخبار الزبيدى ، وقد طبع هذا الكتاب الآن .

إنه زاره فرأى أهل زوجته قد فتحوا صناديقه وخزائنه وفيها ما كان يهدى إليه ، من الغرائب العجيبة ، والتحف الثمينة ، فتناهبوها وهربوها ، من نفائس القماش ، وأنواع الشال الكشميرى ، والفراء والعباءات والطرائف النادرة ، ومما رآه كومة من ساعات الجيب الغالية لا تزال بأغلفة بلادها ما أخرجت ولا استعملت .

وفتح الشيخ عينيه فرأى ذلك فأشار مستفهمًا ، أن ما هذا ؟ ثمَّ أغمضها وقبضه اللّه إليه ، فمات .

مضى ، ولكنه خلَّف أكثر من خمسين مصنفاً ، حسبه أن يكون منها شرح إحياء علوم الدين ، وأن يكون منها تاج العروس فى شرح القاموس .

* * *

أبو دلامة

لقد أبكيتكم يوم حدثتكم حديث الشاعرة المفجوعة [1] ، والأم الثكلى عائشة ، واستدررت الدمع من أبخل العيون بالدموع ، فدعونى اليوم أضحككم كما أبكيتكم ، دعونى أحدثكم عن شاعر خفيف الروح ، طالما أضحك الخلفاء والقواد ، هو الشاعر المشهور : أبو دلامة . ولا تقولوا ـ أعنى لا يقل بعض المتنطعين منكم : وما أبو دلامة والحديث عن أعلام الإسلام[2] . فإن أعلام الإسلام كل رجل كان له فى التاريخ ذكر ، وكل امرأة كان لها فى الحياة الإسلامية أثر ، أتحدث عن الأخيار لتقتدوا بهديهم ، وربما تحدثت عن الأشرار لتعتبروا بهم ، ثم إنى أحب أن أنبه أن كل هذه الأخبار التى أحدثكم بها اليوم قد رواها المحدث الكبير الخطيب البغدادى ، والقاضى الجليل ابن خلكان ، وعنهما نقلتها إليكم ، فلا يثر على السادة العقلاء جداً ، كما ثاروا يوم حدثتكم عن الحب عند الشريف الرضى ، وأنا هنا لأتحدث عن الزاهد العابد والشاعر البليغ ، والقائد البارع ، والعالم العامل ، عن الرجال ، وعن النساء ، من كل لون وكل باب ، ولو اقتصرت على طائفة لا أتعداها لصار الحديث مملولاً ، وأنا لا أبالى أن تسبونى ، ولكنى لا أحب أن تملونى .

وبعد فمن هو أبو دلامة الذى قدمت للحديث عنه هذه المقدمة الطويلة ؟

كان كما يقول الخطيب ـ وهذا الوصف له ـ : شاعراً مطبوعًا ، كثير النوادر فى الشعر ، وكان صاحب بديهة يداخل الشعراء ويزاحمهم فى جميع فنونهم ، وينفرد فى وصف الشراب والرياض .

(1) هى الشاعرة عائشة التيمورية وسيأتى الحديث عنها .
(2) كان عنوان هذه السلسلة فى إذاعة دمشق (أعلام الإسلام) .

وزاد أبو الفرج أنه كان فاسد الدين ردىء المذهب ، ولكن الذى روج له عند الخلفاء : السفاح والمنصور والمهدى ، وجعله يتمكن عندهم ولاسيما المنصور ، ويأخذ منه على بخله جزيل العطايا ، هو صراحته وخفة روحه ، وحضور بديهته ، وسرعة جوابه على بلاغته ومتانة شعره .

وكان يضحك الخلفاء حتى فى المواطن التى لا يسوغ فى مثلها الضحك ، ماتت حمادة بنت عيسى زوجة المنصور ، وخرج الخليفة ووجوه القواد وكبار الرجال فى جنازتها ، فلما وقفوا على القبر قال المنصور لأبى دلامة يعظه ويذكره : ماذا أعددت ويحك لهذه الحفرة ـ وأشار إلى القبر ـ ؟ .

قال : حمادة بنت عيسى زوجة أمير المؤمنين .

فضحك المنصور وكل من حضر وقال له : فضحتنا ـ قبحك الله .

وخرج مع المهدى وعلى بن سليمان مرة إلى الصيد ، فرمى المهدى غزالا فأصابه ، ورمى على فأخطأ وأصاب سهمه كلباً من كلاب الصيد .

فقال أبو دلامة على البديهة :

قد رمى المهدى ظبياً ... شك بالسهم فؤاده

وعلىّ بن سليما ... ن رمى كلباً فصاده

فهنيئاً لهما كل ... امرىء يأكل زاده

فضحك المهدى حتى كاد يسقط عن سرجه ، وأجازه .

وكان ينطلق لاستدرار عطايا الخلفاء ، دخل مرة على السفاح ، فقال له : سلنى حاجتك ؟ قال : كلب صيد .

قال : ويلك ! أهذا حاجتك ؟ كلب ؟ قال : نعم .

قال : أعطوه إياه .

قال : يا أمير المؤمنين ، فكيف ألحق به ، أأعدو على رجلى ؟

قال : أعطوه فرساً . قال : فمن يخدم الفرس ؟

فأمر له بغلام ؛ قال : فإن صدت صيداً فمن يطبخه ؟

فأمر له بجارية . قال : يا أمير المؤمنين ، وهؤلاء يبيتون فى الطريق ؟

فأمر له بدار . قال : يا أمير المؤمنين ، قد صيرت فى عنقى جملة من العيال ، فمن أين أنفق عليهم ؟

فأعطاه مالاً جزيلاً ، وقال : بقيت لك حاجة ؟

قال : نعم ، تدعنى أقبل يدك . قال : أما هذه فلا .

قال : ما منعتنى حاجة أهون على منها .

قال الحافظ : فانظر إلى حذقه فى المسأله ولطفه فيها . ابتدأ بالكلب فسهل القصة ، وجعل يأتى بما يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأله ابتداء ما وصل إليه .

وولدت له بنت فغدا على المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه ولد لى الليلة بنت . قال : وما تريد ؟ قال : أريد أن يعيننى عليها أمير المؤمنين . وأنشده .

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم   قوم لقيل اقعدو ا يا آل عباس

ثم ارتقوا فى شعاع الشمس إن لكم   مجداً تليداً وأنتم أفضل الناس

قال : فهل قلت فى ابنتك شيئاً ؟ فأنشد على الفور :

فما ولدتك مريم أم عيسى   ولا رباك لقمان الحكيم

ولكن قد تضمك أم سوء   إلى لباتها وأب لئيم

قال : فماذا تحب أن أعينك ؟

قال : بملء هذه . . . وأخرج خرقة بين أصابعه .

قال المنصور : املؤوها له ، فلما فتحوها إذا هى كيس من قماش رقيق جدا متين وسع أربعة آلاف درهم .

ولما قدم المهدى من الرى دخل عليه أبو دلامة فأنشأ يقول

إنى نذرت لئن رأيتك سالماً   بقرى العراق وأنت ذو وفر

لتصلين على النبى محمد   ولتملأن دراهمًا حجرى

فقال : صلى الله على محمد ، أما الدراهم فلا .

قال : أنت أكرم من أن تفرق بينهما ثم تختار أسهلهما .

فأمر بأن يملأ حضنه دراهم .

ومن حسن تخلصه أنه دخل مرة على المهدى ، وعنده جلة القواد ووجوه بنى هاشم ، فقال له المهدى ليضحك منه : أحلف لئن لم تهج واحداً من هذا المجلس لأضربنك ضرباً مبرحًا.فجعل ينظر فى وجوه القوم ، فكلما نظر إلى واحد غمزه بأن يعطيه ، فما كان منه إلا أن هجا نفسه فقال :

ألا أبلغ إليك أبا دلامه   فليس من الكرام ولا كرامه

إذا لبس العمامة كان قرداً   وخنزيراً إذا نزع العمامه

فإن تك قد أصبت نعيم دنيا   فلا تفرح فقد دنت القيامه

فضحك القوم ، ولم يبق أحد إلا أجازه .

ومن طرائفه أنه دخل على المهدى وهو يبكى ، قال : مالك ؟

قال : ماتت أم دلامة . وأنشده قوله فيها :

وكنا كزوج من قطا فى مفازة لدى خفض عيش ناعم مونق رغد
فأفردنى ريب الزمان بفقده ولم أر شيئاً قط أوحش من فرد

فأمر له بثياب وطيب وأموال ، وخرج ، فدخلت أم دلامة على الخيزران تبكى ، وأعلمتها أن أبا دلامة قد مات ، فحزنت لها وأعطتها مالاً .

فلما دخل المهدى على الخيزران قالت : قد مات أبو دلامة . قال : بل أم دلامة التى ماتت .

قالت : كيف وقد كانت عندى ، قال : بل هو الذى كان عندى .

وعرفا الحيلة فضحكا .

وكان جبانا يفر من القتال ويحتال لذلك بشتى الحيل . واضطر مرة إلى الخروج فى جيش روح بن حاتم المهلبى لقتال الخوارج ، فكانت القصة من أعجب القصص ، فيها حل لهذه المشكلة التى استعصت على الحلول مشكلة الحرب .

كان قريباً من الأمير فى المعركة ، فغلب عليه ما ركب فى نفسه من الطمع ، وجرب إحدي حيله ، ، فقال للأمير : أما والله لو أن تحتى فرسك ومعى سلاحك لفعلت فى العدو الأفاعيل . فضحك الأمير ، وقال : والله العظيم لأدفعن إليك ذلك ، ولآخذنك بالوفاء بشرطك . ونزل عن فرسه ، وأعطاه سلاحه ، ودفعهما إليه دفعاً .

قال أبو دلامة : فلما حصل ذلك فى يدى ، وزالت عنى حلاوة الطمع قلت : أيها الأمير ، هذا مقام العائذ بك ، وقد قلت بيتين فاسمعهما ، قال : هات ، فأنشدته :

إنى استجرتك أن أقدم فى الوغى   لتطــاعن وتنــازل وضــراب

فهب السيوف رأيتهــا مشهــورة   فتركتهــا ومضيت فى الهراب

قال الأمير : سترى ما أصنع بك إن هربت . وبرز فارس من الخوارج ، بطل من الأبطال ما بارزه أحد إلا قتله . قال : اخرج إليه أبا دلامة .

قلت : الله الله أيها الأمير فى دمى . قال : والله لتخرجن .

فلما رأيت منه الجد قلت : أيها الأمير ، فإنه أول يوم من أيام الآخرة ، وآخر يوم من أيام الدنيا ، فأمر لى برغيفين ودجاجة محمرة ، فأنا والله جائع ، ما شبعت من الجوع ، فأمر له به ، وقال : وبشىء من الحلوى وفاكهة . فأخذته وبرزت عن الصف . فلما رآنى الخارجى أقبل على ، وسيفه فى يده ، وعيناه تقدان [1] ، وعليه فرو قد أصابه المطر فابتل ، وأصابته الشمس فانفتل ، فكان كأنه الوحش .

فقلت : على مهلك يا هذا ، قف نتكلم أولا ، فتوقف ، هل تقاتل من لا يقاتلك ؟

قال : لا . قلت : أتقتل رجلاً على دينك ؟ قال : لا .

قلت : فلماذاتقاتل ؟ قال : اذهب إلى لعنة الله .

قلت : لا أفعل أو تسمع منى . . قال : قل .

قلت : هل كان بيننا عداوة قط أو ثأر أو تعرفنى بحال تغضبك علىّ أو تعلم بين أهلى وأهلك ثأراً ؟ قال : لا والله . قلت : ولا أنا والله . وإنى لأهواك وأنتحل مذهبك وأدين دينك وأريد السوء لمن أراده لك .

قال : يا هذا جزاك الله خيراً ، فانصرف .

---

(1) من وقد يقد ، مثل وعد يعد .

قلت : إن معي زاداً أحب أن آكله معك ، وأريد مؤاكلتك ؛ لتتأكد المودة بيننا ؛ ويرى أهل العسكر هوانهم علينا . قال : فافعل .

فنزلنا عن أفراسنا ، وقعدنا على الأرض نأكل ، والعسكران قد ماتا من الضحك .

فلما استوفينا ودعني ، ثم قلت : إن هذا الجاهل - يعني الأمير - أن أقمت على طلب المبارزة ندبني إليك فتتعبني فانصرف راشداً . فانصرف .

ومن مجونه أنه مرض ولده ، فاستدعى طبيباً ليداويه ، وشرط له أجراً معلوماً . فلما برئ قال : والله ما عندنا شيء نعطيك ، ولكن ادع على فلان اليهودي حتى أشهد لك أنا وابني شهادة زور . فمضى الطبيب إلى قاضي الكوفة ، وهو الإمام الجليل ابن أبي ليلى ، فادعى عليه ، وأنكر اليهودي قال : لي بينة ، وذهب فأحضر أبا دلامة وولده ، وخاف أبو دلامة ألا تقبل شهادته لفسقه ؛ فأنشد في الدهليز قبل أن يدخل بحيث يسمعه القاضي :

إذا الناس غطوني تغطيت عنهم وإن بحثوا عني ففيهم مباحث

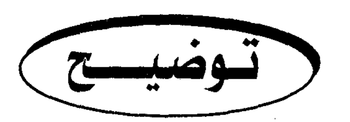
فلم يكن من القاضي إلا أن دفع للطبيب الأجرة من ماله ، وأعرض عن الدعوى .

هذه صورة شاعر ماجن ، لا أسردها لتكون قدوة للناشئين ، بل لتكون سلوة للسامعين ، وليحمد الله ذو الدين على دينه وذو الوقار على وقاره .

أردت منها أن أضحككم اليوم كما أبكيتكم بالأمس ، وكذلك ننتقل في هذه الأحاديث بين دين ودنيا ، وجد وهزل ، وعقل وقلب ، لنضرب في كل طريق، وندخل كل قلب .

وأعتذر إلى من لا يعجبه إلا الجاد النافع من الأحاديث .

* * *



كل يوم يمضى يصير تاريخياً ، وما مر من فصول هذا الكتاب إنما كان أخبار (رجال من التاريخ) البعيد ، وما سيأتى مما لم يكن فى الطبعات السابقة للكتاب هو من أخبار (رجال من التاريخ) القريب ، ضممته إليه ، وألحقته به .

فكانت هذه الطبعة حاوية بحمد الله لما ليس فى الطبعات السابقة ، أسأل الله أن ينفع بها ، وأن يثيبنى عليها .

عائشة التيمورية

جئت اليوم أحدثكم في الأدب ، وأخاطب فيكم العاطفة ، وأزجي لكم الحديث عن امرأة خلدها البيان ، امرأة ولدت سنة 1256 هجرية وماتت من نحو خمسين سنة [1] . وأنتم تعرفون ما كانت حال النساء في تلك الأيام ، كن أسيرات الجهل وضيق الفكر واستبداد الرجل ، فكان من أعجب العجب أن تنشأ فيهن شاعرة مجوّدة وكاتبة بليغة ، فاقت أدباء عصرها ، وسبقت في مضمار الرثاء العاطفي أدباء العصور كلها ، وكانت واحدة جمعت عجيبتين اثنتين : أولهما : أنها شاعرة مجودة ، والمجودات في الشعر من النساء أقل من القليل ، لا في العربية وحدها ، بل في كل ألسنة العالم ، والأدب العربي على طوله لم يعرف مائة من الشاعرات المجودات ، على حين قد عرف عشرة آلاف من مجودي الشعراء . والثانية : أنها نشأت في عصر تلك حال المرأة فيه .

وأحب أن أنبهكم إلى أن الإسلام بريء مما أصاب المرأة ، وأن التاريخ الإسلامي حافل بذكر العالمات الأديبات من النساء في عصوره كلها حتى في العصر الماضي ، وفي مكتبتي الآن أكثر من ثلاثة آلاف ترجمة لمن نبغ من نسائنا ، وفي كتب الجرح والتعديل ذكر المئات من المحدثات اللائي كن أساتذة الرجال ، وكثير من المحدثين عندما يذكرون أساتذتهم يعدون أساتذة من النساء ، وقد سمعتم في حديث الصالحية ذكر العشرات من العالمات في آل قدامة وحدهم ، ولو حسبتم العالمات النابغات من نساء المسلمين الذين اعترف لهن الرجال وجلسوا بين أيديهن وأخذوا عنهن ، وأمثالهن من نساء أمم الغرب

---

(1) من تاريخ إذاعة هذا الحديث من إذاعة دمشق سنة 1370 هـ .

كلها لرأيتم أنه ليس عندهم واحدة مقابل كل عشرة عندنا ، ونسمع بعد ذلك من يقول : إن الإسلام هو الذى صير المرأة على هذه الحال .

لا ، ولكن الإسلام أمر بالعلم ودعا إليه ، وأمر بأن تكون المرأة عفيفة شريفة محتشمة متسترة بعيدة عن مواطن الريب ومداعس الزلل ، لأن العلم الذى لا يجىء إلا بذهاب الشرف خير منه الجهل .

وبعد ، فهذه الشاعرة الأديبة الكاتبة التى شقت الطريق لأترابها والتى سبقت زمانها ، والتى كانت أعجوبة فى بيانها هى السيدة (عائشة التيمورية) أخت العلامة المحقق أحمد تيمور - رحمه الله - وعمة رائد الأقصوصة العربية ابنه محمد تيمور وأخيه كبير القصصيين اليوم محمود تيمور .

نشأت فى أسرة تركية غنية فتعلمت القراءة والكتابة فى القصر على طريقة بنات الأكابر ، فتنبهت فى نفسها الرغبة فى المطالعة والإشراف على مجالس العلم فى القصر ، ولكن أمها أرادتها على ما كان من شأن أترابها الخياطة والتطريز ، وأبت البنت إلا ما تميل إليه فطرتها ، واستمرت المعركة حتى برز الأب إسماعيل تيمور فقال لها : دعى هذه البنت للعلم ، وعليك بأختها ربيها كما تريدين ، وأحضر لها المعلمين والمعلمات ، فأخذت النحو والعروض عن فاطمة الأزهرية وستيتة الطبلاوية ، وهذا يدلكم على أنه لم يخل ذلك العصر من عالمات وأزهريات .

والصرف والفارسية عَلَى عَلى خليل رجائى ، والقرآن والخط والفقه على إبراهيم تونسى ، وحفظت عشَرات الدواوين ، وطالعت كتب الأدب حتى صارت تنظم بالعربيه والفارسية والتركية ، ولها دواوين فيها جميعاً ، ولم يكن يفوقها من شعراء عصرها إلا البارودى (ذاك أمة وحده) والساعاتى ، ولها كتابة ، منها المسجع ، ومنها المرسل ، ومنها البليغ ، وهى أول من دعا إلى

أعرف فى الشعر العربى أحدّ منها حساً ، ولا أظهر عاطفة ولا أبلغ فى إثارة الأسى ، وهى فى هذا - لا فى جودة السبك وروعة البيان - تفوق ما قالت الخنساء فى أخيها ، وما قال ابن الرومى فى ابنه ، وتفوق قصيدة التهامى المشهورة فى ولده .

بدأت القصيدة تصف روعة الخطب ولوعة الحزن فقالت :

إن سال من غرب العيون بحور
فالدهر باغ والزمان غدور
فلكل عين حق مدرار الدما
ولكل قلب لوعة وثبور
ستر السنا وتحجبت شمس الضحى
وتغيبت بعد الشروق بدور
ومضى الذى أهوى وجرعنى الأسى
وغدت بقلبى جذوة وسعير
يا ليته لما نوى عهد النوى
وافى العيون من الظلام نذير

ثم أخذت تصف كيف بدأ بها المرض فى رمضان سحراً ، ألم بها على شبابها وصغرها ، فلما أصبحوا جاؤوا بالطبيب فكتب لها الدواء وبشرها بالشفاء :

طافت بشهر الصوم كاسات الردى
سحراً وأكواب الدموع تدور

تعليم المرأة ولها في ذلك مقالات وأشعار ، وكانت تحبذ الحجاب ، وترى أنه لا يمنع من العلم والأدب ، ولها القصيدة المشهورة :

بيد العفاف أصون عز حجابي ... وبعصمتي أسمو على أترابي

وبفكرة وقادة وقريحة ... نقادة قد كملت آدابي

ما ضرني أدبي وحسن تعلمي ... إلا بكوني زهرة الألباب

ما ساءني خدري وعقد عصابتي ... وطراز ثوبي واعتزاز رحابي

ما عاقني خجلي عن العليا ولا ... سدل الخمار بلمتي ونقابي

عن طي مضمار الرهان إذا اشتكت ... صعب السباق مطامح الركاب

عاشت في سعة من العيش وإقبال ، وربيت في العز والدلال ، ولكن الدهر الذي لا يدوم على حال رماها بالنكبة التي تصدع قلوب الأبطال من الرجال ، فكيف بشاعرة من ربات الحجال مرهفة الحس رقيقة القلب تعيش بالعاطفة والحب ؟! أصابها بما لم تطق له احتمالاً ، كانت لها بنت اسمها (توحيدة) ، جمع الله لها جمال الخلق وسمو الخلق ، فياضة الأنوثة ، ساحرة الطرف ، بليغة النطق ، مهذبة الحواشي ، ما رآها أحد إلا أحبها ، وبلغت ثماني عشرة سنة وتزوجت ، فما مر على عرسها شهر حتى أصابها مرض مفاجئ فماتت .

وروعت عائشة الصدمة وشدهتها ، ولم تستطع التصبر ، ونسيت كل شيء إلا ابنتها ، وتركت كل شيء إلا الانقطاع لرثائها ، ولبثت على ذلك سبع سنين كوامل قالت فيها قصائد تبكي الصخر وتحرك الجماد ، وأثر طول البكاء في عينيها ؛ فلم تعد تبصر ، ثم ألهمها الله الصبر بعد سبع سنين ، وشُفي بصرها ، ولكنها لم تنس هذه النكبة أبداً ، وهاكم أبياتاً من قصيدة واحدة لها لا

فتنـاولت منها ابنتـــى فتغيـــــرت

وجنـــــات خد شانها التغيـيــــــر

فذوت أزاهير الحيـــاة بروضـهــا

و انقــدّ منها مائـــس ونـضـيـــر

لبست ثياب السقم فى صغر وقد

ذاقت شراب المـــوت وهْو مريــر

جاء الطبيب ضحًى وبشر بالشفا

إن الـــطـبيــب بطبـــه مغـــــرور

وصف التجـرع وهْو يزعـــم أنه

بالبـــرء من كل السقــــام بشيــــر

واسمعوا كيف استبشرت الفتاة بدواء الطبيب ، وسألته التعجيل بشفائها لأجل شبابها ، بل من أجل والدتها التى حرمت على نفسها طيب المنام :

فتنفســت للحـــزن قـــائلة له

عجـل ببرئى حيث أنت خبيــــر

وارحم شبابى إن والدتـى غــــدت

ثكلى يشير لها الجـــوى وتشيــــر

وارأف بعين حرمت طيب الكـرى

تشكو السهاد وفى الجفـــون فتور

وأمسكوا الآن بقلوبكم لا يصدعها الحزن ، وبعيونكم لا يقرحها البكاء ، واسمعوا هذا المقطع الذى بلغت فيه الشاعرة الذروة ، وسبقت فيه كل من قال مرثية عاطفية . اسمعوا البنت وقد رأت عجز الطبيب فداخل قلبها اليأس

لما رأت يأس الطبيب وعجزه ... قالت ودمعُ المقلتين غزيرُ:

أماه قد كل الطبيب وفاتنى ... مما أومل فى الحياة نصيرُ

لو جاء عراف اليمامة يبتغى ... برئى لرد الطرف وهْو حسير

يا روع روحى حلها نزع الضنى ... عما قليل ورُقُهَا ستطير

أماه قد عز اللقاء وفى غد ... سترين نعشى كالعروس يسير

وسينتهى المسعى إلى اللحد الذى ... هو منزلى وله الجموع تصير

قولى لرب اللحد رفقاً بابنتى ... جاءت عروساً ساقها التقدير

وتجلدى بإزاء لحدى برهة ... فتراك روح راعها المقدور

أماه قد سلفت لنا أمنية ... يا حسنها لو ساقها التيسير

كانت كأحلام مضت وتخلفت ... مذ بان يوم البين وهْو عسير

وتصورت الموت وانطلقت تودع أمها :

وتصوروا الأم وهى تعود إلى الدار فلا تلقى ابنتها ، وترى جهاز العرس ما زال باقيًا ولكن العروس قد أودعت حفرة باردة ، وأهيل عليها التراب ويرن

عودى إلى ربع خلا ومآثر ... قد خُلّفت عنى لها تأثيرُ

صونى جهاز العرس تذكاراً فلى ... قد كان منه أبى الزفاف سرور

جرت مصائب فُرقتى لك بعد ذا ... لبس السواد ونُفِّذ المسطور

والقبر صار لغصن قدَّى روضة ... ريحانها عند المزار زهور

أماه لا تنسى بحق بنوتى ... قبرى لئلا يحزن المقبور

وهاكم جواب الأم :

فأجبتها والدمع يحبس منطقى ... والدهر من بعد الجوار يجور :

بنتاه يا كبدى ولوعة مهجتى ... قد زال صفو شأنه التكدير

لا توصى ثكلى قد أذاب فؤادها ... حزن عليك وحرسة وزفير

فسما بغض نواظرى وتلهفى ... مُذ غاب إنسان وفارق نور

وبُقبلتى ثغراً تقضى نحبه ... فحرمت طيب شذاه وهو عطير

والله لا أسلو التلاوة والدعا ... ما غردت فوق الغصون طيور

كلا ولا أنسى زفير توجعى ... والقد منك لدى الثرى مدثور

إنى ألفت الحزن حتى أننى ... لو غاب عنى ساءنى التأخير

قد كنت لا أرضى التباعد برهة ... كيف التصبر والبعاد دهور

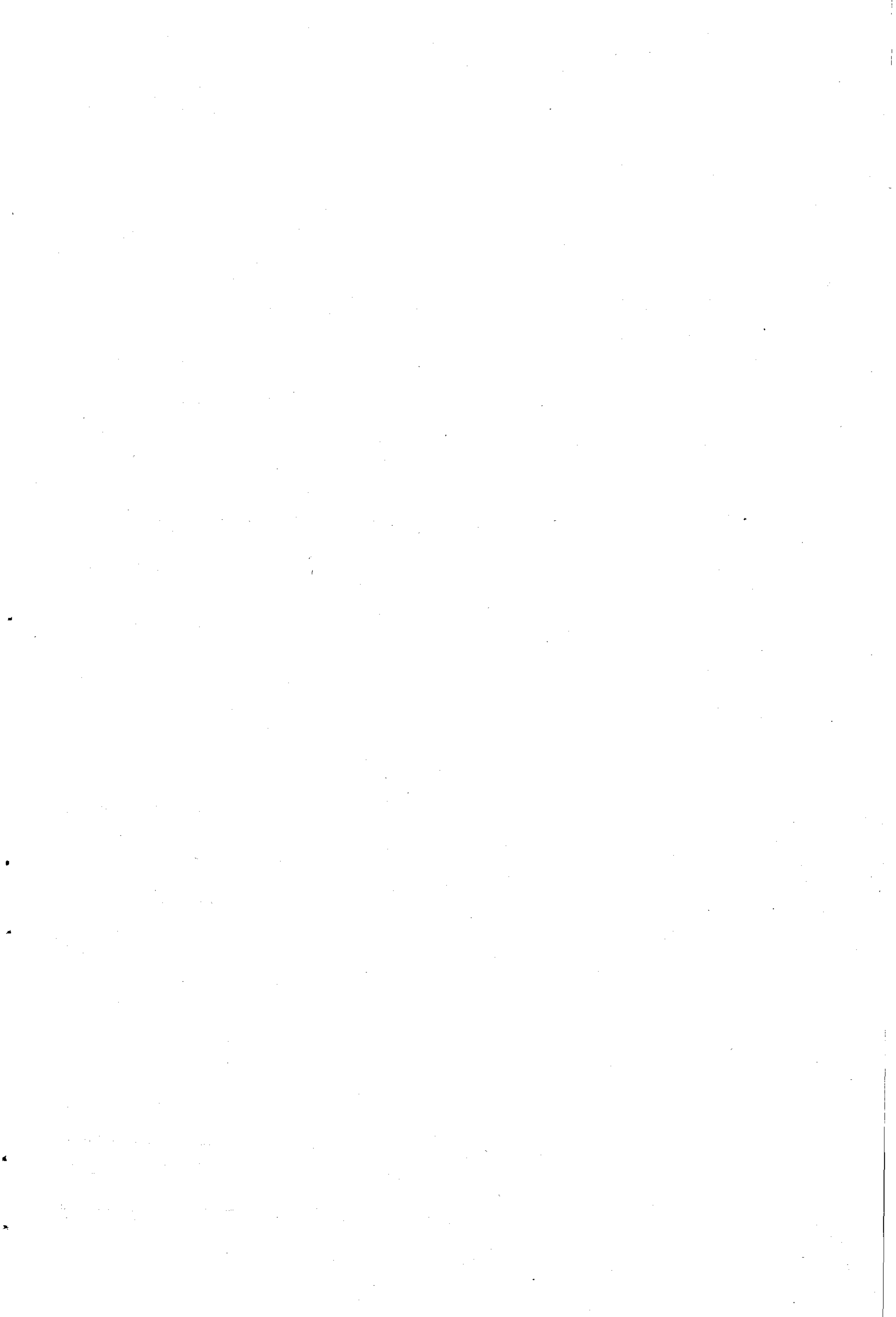
أبكيك حتى نلتقى فى جنة ... برياض خلد زينّتها الحور

يا أيها السامعون . .

أرأيتم كيف نسيتم مصائبكم وبكيتم لمصاب هذه الفتاة التى ماتت من ثمانين سنة (1) ؟ !هذه عظمة الشعر . رحمة الله على هذه الشاعرة التى لم يظهر بعدها مثلها .

***

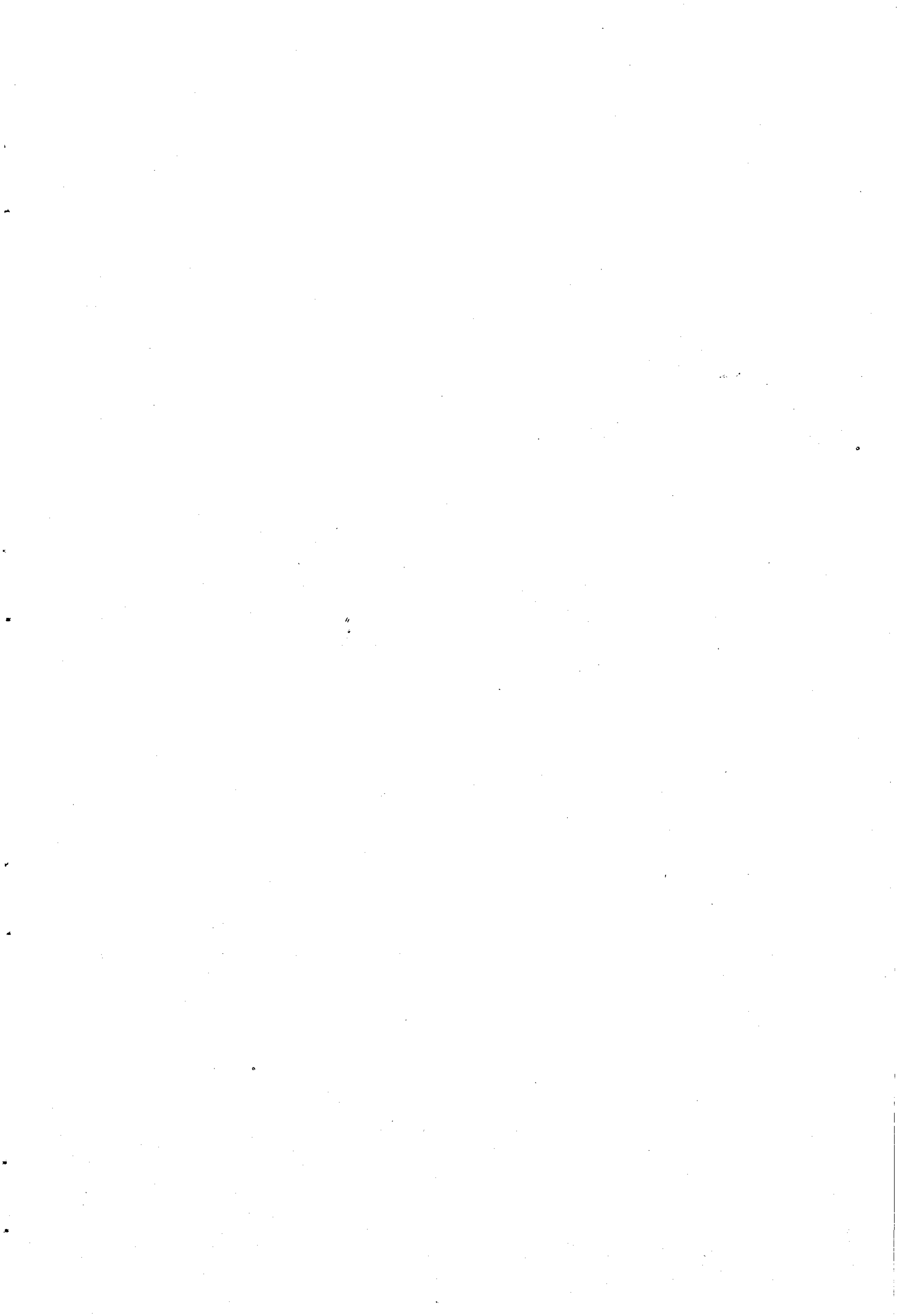
(1) من تاريخ نشر هذا الكتاب .





الفصل السادس

- البرامكة
- معن بن زائدة
- القاضى المتأنق



البَرَامِكَـــة

هذى قصة رجال سَمَوْا إلى سماء العز ، وبلغوا من السعادة ما لم يكن يبلغ مثله أحد ، ثم هَوَوْا فجأة إلى قرارة المذلة ، وقاسوا من الشقاء ما لم يكد يقاسى مثله أحد ، فكانوا عجباً فى رقيهم ، وكانوا عجباً فى هويهم .

رجال كانت لهم فى تاريخنا أضخم الأسماء ، وأكثرها بريقاً ، وأشهدها دوياً .

تعاونت على تخليد هذه الأسماء القوى كلها : قوة التاريخ ، وقوة الأدب، وقوة الأسطورة . أما التاريخ فلهم فيه أجمل صفحات الكرم ، الكرم الذى تخطى الأشباه ، وقطع الأمثال ، ولهم فيه النبل والعقل والفضل والبذل .

وأما الأدب فلهم فيه أعظم الذكر ، استنطقوا بالمدح كل شاعر ، وحملوا شكرهم على كل لسان . وأما الأسطورة فقد ولدت منهما معاً ، فكان نصفها للتاريخ ونصفها للأدب ، وعاشت فى قصص ألف ليلة وليلة ، تلك التى لم نكن نرى فيها إلا عبث أولاد ، وأداة فساد ، ورأى فيها الغربيون رائعة العصور لوحة من عالم مسحور ، فيه من عبقر طيوب وعطور ، وولدان وحور .

حازوا الدنيا وبذلوها ، وجمعوا الكنوز وفرقوها ، وملكوا القلوب بإحسانهم وأعتقوها ، فأصفتهم الود ، وثبتت لهم على الولاء ، وبقيت على حبها لهم بعد نكبتهم كما كانت أيام سعادتهم .

إذا وزنتهم بموازين البشر ، كان لكفتهم الرجحان ، وإن وزنتهم بميزان

الدين شالت كفتهم فى الميزان . أكبرهم الناس لكرمهم ، وعظموهم لجلالة أقدارهم ، ورآهم الشرع مخالفين عاصين ، ورأى عملهم سرفاً وتبذيراً ، والمبذرون كانوا من إخوان الشياطين ، هذا إن كان تبذيرهم فى مال أنفسهم ، فكيف إن كان فى أموال المسلمين .

كانوا يعطون ما لا يملكون لمن لا يستحق هذا العطاء ، فجادوا بالملايين على الشعراء والمغنين ، وفى الأمة من الأتقياء الصالحين والفقراء المستحقين ملايين لا يجدون ما يسد الخلة ويقيم الأود .

وضعت فى أعناقهم أمانة السهر على هذه الأمة كلها ، من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، فتركوها وأقبلوا على اللذات فسمعوا وطربوا ، ولهوا ولعبوا ، حتى إذا ملوا وتعبوا ، ناموا عن الواجب عليهم ، وقعدوا عن أداء حق هذه الأمانة التى وضعت فى أعناقهم ، فعجل الله لهم العقوبة فى الدنيا ، وجعل منهم تحقيقاً لما خبر به الرسول ـ ﷺ ـ حين قال : « **من أعان ظالماً على ظلمه سلطه الله عليه** » والظالم الذى تكون عقوبته فى الدنيا ويسلم فى الآخرة يكون من الناجحين .

وما أسرد قصتهم إلا لتكون عبرة لمن يغتر بهذه الدنيا ، ويطمئن إلى ما نال فيها من سلطان المال والجاه ، ليرى أنه مهما نال فلن يبلغ ما بلغه البرامكة ، ثم لما نزل بهم القدر هلك عنهم مالهم ، وما أغنى عنهم سلطانهم .

***

كان فى (بلخ) فى خراسان ـ الأفغان ـ معبد ضخم يسمونه (التوبهار) ولم يكن معبداً لله رب العالمين ، بل كان معبداً للنار يعبدونها من دون الله ، لا يزهدهم فيها أنهم يوقدونها بأيديهم ، وأنه بلغ من هوانها أن لو بالوا عليها لانطفأت . وكان سادنه (برمك) رجل الدين فى البلد ، ووجه الناس فيه ،

سبقه إلى هذا الشرف أبوه (جاماس) من قبله ، وجده (يستاسف) من قبل أبيه ، كانوا رأس المجوسية ، وكانوا أركانها حتى وصلت إليهم الرحمة التى بعث الله محمداً - ﷺ - بها لتعم العالمين ، من شاء منهم أن يستقيم ، فأطفأ الإسلام نار الشرك وأبدلهم بها نور الإيمان ، كما عوضهم من نار الظلم والطغيان جنة العدل والإحسان ؛ فأبصروا الحق فاتّبعوه ، ونشأ (خالد بن برمك) هذا ، مسلم القلب عربى اللسان . وكانت العربية تسير فى ركاب الإسلام ، فما احتل الإسلام قلوب أمة إلا احتلت العربية ألسنة أهلها . وكان فى هذه الحضارة عناصر عقلية واجتماعية ، يونانية وفارسية وهندية ، ولكن العقيدة بقيت إسلامية خالصة واللسان بقى عربياً خالصاً .

وقامت دولة بنى العباس على أكتاف الأعاجم ، وفتح المجال لأهل الكفاية والمزايا منهم ، فكان خالد مع من ظهر فضله . وذاع اسمه ، وتدرج فى (الحركة السرية) التى كانت تعمل لهدم الدولة الأموية ، حتى صار من وجهاء أصحاب قحطبة بن شبيب ، وصحبه فى حروبه ، وولاه الإشراف على مالية الجيش وقسمة الغنائم ، واتخذه مستشاراً له يستفيد من عقله ويرجع إلى رأيه ، ولبث دائباً على العمل حتى نجحت هذه الحركة ، وتم القضاء على الأمويين ، وكانت بيعة السفاح ، فدخل عليه خالد للبيعة ، فلما سمع كلامه ورأى فصاحته وبيانه لم يشك أنه من صميم العرب ، وأبقاه فى عمله ، وهو قسمة الغنائم والإشراف على مالية الجيش ، ثم نقله إلى ديوان الخراج ، ثم إلى ديوان الجند ، ثم رقاه إلى ما يشبه منصب الوزارة . وبقى على ذلك حتى مات السفاح وولى المنصور ، فأقره فى الوزارة سنة وشهوراً ، ثم لما تقرب أبو أيوب الموريانى من المنصور سعى بخالد وعمل على إبعاده ، فولاه المنصور بلاد فارس سبع سنين ، ثم عزل ونكب ، ثم أعيد أميراً على الموصل ، ولبث فيها حتى ولى المهدى فأعاده إلى فارس ، ووجهه مع ولده هرون فى إحدى غزواته .

وكذلك انتقل هذا الرجل من ابن سادن فى معبد نار فى الأم المغلوبة إلى أمير ووزير فى الدولة الغالبة ، وما أعانه على ذلك نسب ولا حسب ، ولا مال ولا نشب ، بل أعانه عليه وأوصله إليه العلم و الفضل والأدب ، ولقد ذكر المسعودى أنه « لم يبلغ مبلغ خالد أحد من ولده ، فى جوده ورأيه ، وبأسه وعلمه ، لا (يحيى) فى رأيه ووفور عقله ، ولا (الفضل بن يحيى) فى جوده ونزاهته ، ولا (جعفر) فى كتابته وفصاحته ، ولا (محمد) فى شرفه وبُعد همته ، ولا (موسى) فى شجاعته وجرأته » .

* * *

وهذى صورة واحدة من صحة عقله وصواب مشورته ، وسبب تبرك قحطبة القائد برأيه : لما بعث أبو مسلم قحطبة بن شبيب الطائى لمحاربة يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى والى الأمويين ، كان خالد فى جملة من كان معه ، فنزلوا فى طريقهم فى قرية ، فبينما هم على سطح بعض دورها يتغدون إذ نظروا إلى الصحراء ، وقد أقبلت منها أقاطيع الوحش من الظباء وغيرها حتى كادت تخالط العسكر ، فنظروا إليها متعجبين ولم يفكر أحد فى شأنها . فقال خالد لقحطبة : أيها الأمير ناد فى الناس أن يركبوا ويستعدوا للقتال قبل أن يهجم عليهم العدو .

فقام قحطبة مذعوراً فنظر فلم ير أحداً ، فقال : يا خالد ما هذا الرأى ؟ قال : العدو مسرع إليك ، أما ترى أقاطيع الوحش قد أقبلت ؟ إن وراءها لجمعاً كثيفاً . فما كادوا يركبون ويستعدون حتى طلع عليهم العدو ، ولولا خالد لهلكوا .

* * *

ونشأ ولده (يحيى) فى بيتُ المَارة ، وفى دارة العز ، يعيش مع أولاد

الخلفاء كأنه واحد منهم ، ولكن أباه لم يتركه يستسلم إلى اللهو واللعب ، بل أخذه بالقراءة والأدب ، ودرّبه على العمل ، وصرّفه فى المناصب حتى (كان من النبل والعقل وجميع الخلال على أحسن حال) .

وأعجب به المهدى وقربه إليه ، وخلط أهله بأهله ، حتى لقد سمح بأن يرضع ولده هارون (الرشيد) من زوجة يحيى مع ولده الفضل ، وأن يرضع الفضل من الخيزران ، ثم جعله مؤدباً له ، بل لقد فوّض إليه أمر تربيته والقيام عليه حتى صار له أبا بعد أبيه ، وصار يدعوه (يا أبى) حين يناديه ، وكذلك تبدلت الحال ، فبعد أن كان سراة قريش فى الجاهلية ، وكان أوائل الخلفاء من بعد الإسلام يبعثون بأولادهم إلى البادية ليتربوا فى مضارب الأعراب فى شمس الصحراء وطهرها ، صار الخلفاء العباسيون يسلمون أولادهم إلى الأعاجم ليربّوهم وراء جدران القصور ، مع ربّات الخدور ، فكان ذلك من أسباب زوال دولة العرب .

وأخلص يحيى لهارون ، ورمى بنفسه على الموت من أجله ، ووقف موقفاً لولاه ما وصلت الخلافة إلى هارون .

ولا بد لى من أن أمهد لذكر هذا الموقف بكلمة من التاريخ : كانت الخلافة فى الأصل رياسة انتخابية يختار لها المسلمون من شاؤوا ، من الصالحين لها ، ثم لا يكون الخليفة ملكاً مستبداً ، ولا حاكماً مطلقاً ، ولكن أميراً مقيداً بالكتاب والسنة ، ليس له أن يحل حراماً ، ولا يحرم حلالاً ، ولا يبتدع برأيه بدعاً تخالف أصول الإسلام وقواعد الدين .

فلما جاء معاوية حولها من خلافة إسلامية إلى ملكية كسروية أو قيصرية ، وكانت بدعة امتدت جذورها فى تاريخنا ، فحيثما نظرت منه وجدت شوكها وأذاها ، وما رأيت خلافاً ولا حرباً إلا بسببها ، ولا كان هذا الاستبداد وهذا

اللعب بالدماء والأموال إلا من بعدها .

وكان كل خليفة يمهد لولده كما مهد معاوية ليزيد . لم يكفهم أن اتخذوا عباد الله خولا ، ومال الله دولا ، وخالفوا فى ذلك أحكام الإسلام وسنة أبى بكر وعمر ، حتى تصرفوا فى الناس وهم أموات كما تصرفوا فيهم وهم أحياء، فأوصوا بهم إلى من أحبوا ، واختاروا كما يوصى المرء بغنمه وشائه ودرهمه وديناره . وأدركت هذه البدعة المهدى بن المنصور فقسم البلاد فى حياته بين ولديه موسى وهارون : لموسى المشرق كله ، ولهارون المغرب كله : الشام ومصر وأفريقية ، وجعل يحيى بن خالد معه ، إليه ديوانه والقيام على عمله ، والوكالة عنه إذا غاب ، فكان بمثابة (الأمين العام) فى عرف هذه الأيام، ثم كتب لهما العهد من بعده ، لموسى أولا ثم لهارون من بعده .

وبدا فضل هارون على موسى فنجح فى الإدارة ، وظفر فى الحرب ، ورجع من خليج القسطنطينية بالنصر والغنائم ، وكان (يحيى) صاحبه ومشيره فى ذلك كله ، فأحب المهدى أن يقدمه على موسى ، فبعث إليه ـ وكان فى جرجان ـ بعض أهل بيته لينزل عن ولاية العهد لأخيه طوعاً واختياراً لئلا ينزله عنها قسراً وإجباراً ، فلم يُجب ، فبعث إليه رسولاً يدعوه فأبى وضرب الرسول وأعلن العصيان ؛ فغضب المهدى ، وأخذته عزة المُلْك ؛ فسار إليه بنفسه ليريه قدره ويأخذه بالطاعة أخذاً ، فلم يكد يخرج من بغداد حتى كان الأجل أسبق إليه من الأمل ، والمنية أعجل من الأمنية ؛ فمات فجأة ، وبويع موسى بالخلافة وتسمى بـ (الهادى) .

* * *

مات المهدى بـ (ماسبذان) وبويع موسى الهادى بالخلافة وهو بعيد بـ (جرجان) فاقترح القواد على هارون ـ وكان مع أبيه فى (ماسبذان) أن

يحملوا المهدى إلى بغداد ليدفن فيها .

فقال هارون : ادعوا إلىّ أبى (يحيى بن خالد البرمكى) فصار إليه فقال له :

ـ يا أبت ما رأيك فيما اقترحوه ؟

ـ فقال : ما أرى ذلك .

ـ قال : ولم ؟

ـ قال : لأن من عادة الجند كلما مات خليفة أن يطالبوا برواتب سنتين أو ثلاث سلفاً ، وإنى لأخشى أن يتعلقوا بالنعش إذا رأوه وأن يتحكموا ويشتطوا ولا يدعوه يسير حتى يُعطوا ما يطلبون . ولكن أرى أن يدفن ـ رحمه الله ـ ههنا وتأمر لمن معك من الجند بجوائز مائتين مائتين وتنادى فيهم بالقفول ، فإنهم إذا قبضوا الدراهم لم يكن لهم مقصد إلا أهليهم وأوطانهم فلا يعرجون على شيء دون بغداد . ففعل ذلك ، وصاح بالجند لما قبضوا الدراهم : بغداد . . . بغداد . . . فعاد بهم .

وبدأ (يحيى) بذلك خطواته الأولى فى طريقه إلى احتلال المكان الأعلى في الدولة .

ولما وصل الجند إلى بغداد وتفرقوا أدركوا الخدعة ، وعرفوا أن الخليفة قد مات ، فتجمعوا يطالبون بالأرزاق والعطايا ، وساروا إلى قصر الربيع فأحرقوا بابه ودخلوه . . .

واهتمت الخيزران (أم الخليفة) بالأمر ، وخافت تفاقم الثورة ؛ فبعثت إلى الربيع ـ وكان شيخ الدولة ـ وإلى يحيى بن خالد تشاورهما . أما الربيع فلبى وحضر ، وأما يحيى فقد أدرك بوفرة عقله وبعد نظره أن الخليفة الجديد يغار على أهله ، ويكره من أمه (خصوصاً) أن تدخل فى أمور الدولة ، فلم يحضر

فكانت العاقبة أن غضب موسى على الربيع ورضى عن يحيى وأكرمه . وأقرأ موسى أخاه هارون فيما ولاه أبوه ـ وهو المغرب كله ـ وأمر أن يبقى معه وأن يتولى من أمره ما كان يتولاه أيام أبيه .

* * *

ولكن سرعان ما تبدلت الحال ، وتغير قلب (الهادى) على هارون ، وعملت على ذلك عوامل : أظهرها ثلاثة : أمه الخيزران ، وحاشية السوء ، وتفوق هارون .

1 ـ أما أمه الخيزران فقد كانت قوية الطبع ، محبة للسيطرة ، وكان المهدى من حبه لها يغضى عنها حتى كادت تغلب عليه ، فلما مات ورأت أنها استطاعت أن تظهر أيام البيعة لموسى ـ وهو غائب فى جرجان ـ وأن تعمل عملاً.
غرها ذلك وأغراها على الاستجابة لمطالب هواها ، فأقبلت تخب فى أمور الدولة وتضع ، وتسعى لأن تولى وتعزل ، وصار بابها أحفل بالطالبين والمراجعين من باب الخليفة ؛ وغضب من ذلك موسى ، وكانت فيه رجولة ، وكانت فيه غيرة ، وهما خلتان لا تكادان تفترقان . وكان يعلم أن المرأة إنما خلقت لبيتها فما دخلت فى أمور الدولة إلا أفسدتها ، ولو كانت السياسة تصلح لأنثى لصلحت لسيدة النساء وأعقلهن عائشة أم المؤمنين . وحاول موسى منعها وكان يقول لها : ما للنساء والكلام فى أمر الرجال ؟

فلما لم تستمع ، ولما كثر ترداد القواد والأمراء عليها ، جمعهم يوماً وقال لهم :

ـ أيما خير ، أنا أم أنتم ؟

ـ قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين .

ـ قال : فأيما خير ، أمى أم أمهاتكم ؟

ـ قالوا : بل أمك يا أمير المؤمنين .

ـ قال : فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه فيقولوا : فعلت أم فلان، وضعت أم فلان ، وقالت أم فلان ؟

ـ قالوا : ما أحد يحب ذلك .

ـ قال : فما بال الرجال يجيئون أمي فيتحدثون بحديثها ؟

فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة ، فشق ذلك عليها ، فاعتزلته وحلفت لا تكلمه ، وأخذت تكيد له وتميل مع هارون ؛ فأغرته به من حيث لا تشعر .

2 ـ وأما حاشية السوء ممن كان يخشى سطوة هارون ، أن ينقم منه شيئًا ، فقد عملوا على صرف قلب الهادى عنه والإيقاع بينه وبينه حتى هم بخلعه .

3 ـ وأما تفوق هارون واضطراد لمعان نجمه وارتفاع منزلته ، فقد مس مواطن الأثرة من نفس الهادى ، فعزم على تحويل ولاية العهد إلى ابنه جعفر ، وأعلن ذلك لخاصته فوافقه عليه كبار القواد ، منهم يزيد بن مزيد ، وعبد الله ابن مالك ، وعلى بن عيسى ، فخلعوا هارون وبايعوا جعفر .

وتنكر الهادى لهارون وأعرض عنه ، فأعرض عنه الجلة والكبراء ، ثم زاد فأمر ألا يُسار أمامه بحربة ، وكانت هذه الحربة شعار الأمراء ، وألا يركب فى موكب ، فغدا كأنه منبوذ .

وكان فى خلال ذلك يُرهبه ويُرغبه ، ويتخذ إليه الوسائل لينزل عن ولاية العهد لجعفر ، حتى مل هارون وضاق صبره ، فأوشك أن يستجيب ، فقال له يحيى ـ وقد بقى وحده على الولاء له ـ : لا تفعل .

ـ قال : أليس يترك لى ما أعيش به مع ابنة عمى ؟ (يريد زبيدة بنت المنصور وكان يحبها حباً شديداً) .

ـ قال يحيى : وأين هذا من الخلافة ؟ ولعله ألا يترك لك بعد ذلك شيئاً . . .

وما زال به حتى جعله يأبى .

وسُعِىَ إلى الهادى بيحيى بن خالد ، وقيل له : إنه ليس عليك من هارون خلاف ، وإنما يفسده يحيى بن خالد .

فأغضب ذلك الهادى ، وبعث إلى يحيى من يجىء به ليلا ؛ فأيس من نفسه ، وودع أهله ، وتحنط ، وجدد ثيابه ، ولم يشك أنه يقتله .

فلما أدخل عليه قال :

ـ يا يحيى ، ما لى ولك ؟

ـ قال : أنا عبدك يا أمير المؤمنين ، فما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته؟

ـ قال : فلم تدخل بينى وبين أخى وتفسده على ؟

ـ قال : من أنا حتى أدخل بينكما ؟ إنما صيرنى المهدى معه ، وأمرنى بالقيام بأمره ؛ فقمت بما أمرنى به ، ثم أمرتنى بذلك فانتهيت إلى أمرك .

ـ قال : فما الذى صنع هارون ؟

ـ قلت : ما صنع شيئاً ، وما ذلك فيه ولا عنده .

فسكن غضبه ورده إلى داره ، فذهب إلى هارون فوجده قد طاب نفساً بالخلع ، فثبته وقوى نفسه ، وبعثت الخيزران جارية لها كانت أرضعت هارون، إلى يحيى فشقت جيبها بين يديه وبكت إليه وقالت :

ـ تقول لك السيدة : الله الله فى ابنى ، لا تقتله ودعه يجيب أخاه إلى ما يسأله ويريد منه ، فبقاؤه أحب إلى من خلافته ومن الدنيا بجميع ما فيها .

فصاح بها يحيى : وما أنت وهذا ؟ إن يكن ما تقولين فإني وولدى وأهلى سنُقتل قبله فإن اتُّهمتُ عليه فلست بمتَّهم على نفسى ولا على أولادى .

فلما كان من الغد ، جلس الهادى للناس ، وقال لحاجبه : لا يدخل على يحيى بن خالد إلى آخر الناس . فأذن الحاجب للناس ، حتى إذا لم يبق أحد ، أدخل عليه يحيى فدخل ، وكان فى المجلس جلّةُ الناس وكبار القواد ، فما زال الهادى يدنيه ويقربه حتى أقعده بين يدية وقال لَه :

ـ إنى كنت أظلمك فاجعلنى فى حِلٍّ .

فتعجب الناس من إكرامه إياه وقوله . . . فقبل يحيى يده وشكر له ، فقال له الهادى :

ـ مَنْ الذى يقول فيك يا يحيى :

لو يمس البخيل راحة يحيى لسَخَتْ نفسُه ببذل النوال ؟

ـ قال : تلك راحتك يا أمير المؤمنين ، لا راحة عبدك .

وكلّمه فى خلع الرشيد ، فلم ير منه قبولا ؛ فاستبقاه بعدما انفض المجلس، وخلا به ، فلم يجد منه إلا الإصرار ، فأمر به إلى السجن .

ولبث فى السجن أمداً ، وضيق عليه حتى لم يشك فى الموت ، فبعث برقعة إلى الخليفة يسأله فيها أن يسمع منه ، فدعا به فسأله ماذا يريد ، فقال له يحيى :

ـ يا أمير المؤمنين ، أخلنى . فأخلاه . فقال :

ـ يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان الأمر ، أسأل الله ألا تَبْلغه ، وأن يُقدمنا قبله ـ يريد موت الهادى ـ أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟

ـ قال : والله ، ما أظن ذلك .

ـ قال : يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسمو إليها بعض أهلك ، فتخرج عن ولد المهدى ، أو أن يطمع فيها غيرهم من غير أسرتك ؟ ولو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك ، أما كان ينبغى أن تعقده له ؟ فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدى له ؟ .

إنى أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله ، فإذا بلغ جعفر أتيته بالرشيد ، فكان أول من يبايعه .

ـ قال : نبهتنى يا يحيى . وأمر بإطلاقه .

ولم يلبث موسى إلا قليلاً حتى مات ، وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر فقط ، وقعد هارون الرشيد على سرير الخلافة ، وكان الذى أقعده عليه ـ بعد الله الذى لا يكون شىء إلا بأمره ومشيئته ـ هو يحيى بن خالد ، بثباته على الوفاء له ، وعقله وفضله ، وهذا الأسلوب العجيب فى الصراحة والمنطق المهذب الذى كلم به موسى ، كما كان لعقل موسى وقبوله بالحق لما رآه أثر فى هذا الظفر ، ولقد شهد بذلك يحيى نفسه بعد ذلك فقال :

ما كلمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى .

* * *

كان يحيى أول من عَلم بموت الهادى ، فجاء إلى الرشيد وهو نائم فقال : قم يا أمير المؤمنين . قال : كم تروعنى رغبة منك بخلافتى وأنت تعلم حالى عند هذا الرجل ! فإن بلغه هذا فما تكون حالى ؟ فقال : لقد مات موسى . فوثب فقعد فى فراشه ، فجاءه رسول آخر قال : ولد لك غلام .

فسماه عبد الله ، وكان هو عبد الله المأمون ، وكانت ليلة من ليالى الدهر :

مات فيها خليفة ، وولّى خليفة وولد خليفة ! .

وما كان أسرع ما نال يحيى ثمرة ما زرع . لقد ولاه الرشيد وزارته ، بل ولاه ما هو أكبر من الوزارة : نيابة الخلافة ، وقال له :

ـ أنت أجلستنى فى هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجتُه من عنقى إليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وأمض الأمور على ما ترى .

ودفع إليه خاتمه ، وقام إبراهيم الموصلى ينشده قصيدته التى يقول فيها :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة ... فلما ولى هارون أشرق نورها

بيمن أمين الله هارون ذى الندى ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هى الناظرة فى الأمور ، وكان يحيى يعرضها عليها ويصدر عن رأيها إلى أن ماتت بعد أربع سنين .

وابتدأت من تلك الساعة دولة البرامكة ، دولة لم يكن فيها من الفضائل إلا نُبل النفس ، وكرم اليد ، وفصاحة اللسان . أما إقامة حدود الله واتباع شرع الله وحفظ أموال المسلمين فلا تؤخذ إلا من حلها ولا توضع إلا مواضعها ، وصيانة دمائهم وأبشارهم فلا ينال منها إلا بحقها ، والتخلق بأخلاق الصالحين ، واتباع سبيل المؤمنين ، والبعد عن اللهو واللعب والحرام ، أما ذلك كله فما كان منه فى هذه الدولة إلا القليل .

* * *

دامت هذه الدولة سبع عشرة سنة . . . سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً بالضبط ، كان فيها البرامكة هم المتصرفين [1] فى ملك هارون الرشيد ، ولم يكن حكمهم كحكم من جاء بعدهم من الترك أولاً ، والبويهيين الفرس ثانيا ، والسلاجقة الترك أخيراً ، حين غدا الخليفة اسماً بلا رسم ، وصورة بلا معنى ، بل كان الخليفة يحكم حين يريد الحكم ، ويبرم ما يحب إبرامه من الأمر ؛ ذلك لأن الدولة العباسية لم تزل فى شبابها ، ولا يزال لخلفائها سلطانهم ، ولم يكن المعتصم قد أجرم تلك الجريمة المنكرة ، إذ جاء بغلمان الأتراك فحكمهم برقاب العرب ، فصارت الدولة إلى انحدار ، وما زالت تنحدر حتى كان عهد المماليك الذين يشترون بالمال ، ثم يكونون هم الملوك الذين يتصرفون بالأموال وبالرجال .

* * *

نال يحيى الوزارة أولاً ، ولم تكن وزارة بالمعنى الذى نفهمه اليوم ، ولا بالمعنى الذي استقرت عليه الحال فى اا [illegible] ـمر العباسى فيما بعد ، ولم تكن له سلطات محدودة بدستور أو قانون ، بل كان منصبه نوعاً من الوكالة عن الخليفة ، فكانت هذه الوكالة تتسع أو تضيق ، باتساع صدر الخليفة وضيقه ، وميله إليه أو ميله عنه .

وكان هارون الرشيد رجلاً قوياً مقتدراً ، ولكنه كان عاطفياً يتبع خاطر الحال ووحى الساعة كما يقولون ، فكانت أعماله كلها ارتجالات ومفاجآت .

لما بشره يحيى بالخلافة وكان هو الساعى له فيها ، والمدافع عنه فيها ، أحس بعرفان الجميل يغمر قلبه ، وذكر أنه لولا يحيى لكان قد تنازل عن ولاية العهد ، فمنحه تفويضاً مطلقاً ، وزاده فى السنة التالية فأضاف إليه الخاتم مع

(1) كلمة المتصرفين خبر كان ، وكلمة (هم) تأكيد وهذا هو التعبير الصحيح .

الوزارة ، وتسرب أولاده إلى الحكم ، وتداولوا الولايات والمناصب الكبرى بينهم ، وأخذ يحيى يتخلى عن تبعات الحكم لأولاده ، فترك الخاتم للفضل أولا ، وهو أخو الخليفة من الرضاع ، ثم صار لجعفر ، وغدا يحيى بمثابة المستشار للخليفة والموجه المرشد لأولاده جميعاً ، وما كان يتم شيء إلا برأيه .

لما أراد الرشيد نقل الوزارة قال ليحيى :

ـ يا أبت ، إنى أريد أن أجعل الخاتم الذى لأخى الفضل ، لجعفر ، وقد احتشمت من الكتابة إليه فى ذلك فاكفْنيه ؛ فكتب إلى ولده الفضل :

ـ قد أمر أمير المؤمنين بتحويل الخاتم من يمينك إلى شمالك .

فكتب إليه الفضل :

ـ قد سمعت مقالة أمير المؤمنين فىّ وفى أخى وأطعت ، وما انتقلت عن نعمة صارت إليه ، وما غربت عنى رتبة طلعت عليه .

قال جعفر :

ـ لله أخى ، ما أنفس نفسه ، وأبين دلائل الفضل عليه ، وأقوى منة العقل فيه وأوسع فى البلاغة ذرعه !! .

وولى الرشيد الفضل خرسان ، فوجه إليها وأقام بها ، فلها عن أمورها ، وكان فى الدولة يومئذ دائرة خاصة سرية لمراقبة أعمال الولاة ، وإخبار الخليفة بها ، يسمى القائم عليها (صاحب البريد) ، لا يعرف الوالى شخصة ولا سلطان له عليه ، فكتب صاحب البريد فى خراسان إلى الرشيد بخبره ، ووصل الكتاب إليه ، ويحيى جالس بين يديه .

وكان فيه : إن الفضل بن يحيى متشاغل بالصيد وإدمان اللذات عن النظر فى أمور الرعية . فلما قرأه الرشيد رمى به إلى يحيى وقال له :

ـ يا أبت ، اقرأ هذا الكتاب واكتب إليه بما يردعه عن هذا .

ومن هنا يظهر لكم مبلغ تسلط البرامكة عليه ورفقه بهم ، ولو أراد أن يقيم حكم الله على والٍ يشتغل عن الرعية بلذته وصيده لكان العزل أيسر ما يعاقب به .

وكتب إليه يحيى كتابة أب إلى ولده المدلل :

انصب نهاراً فى طلاب العلا ... واصبر على فقد لقاء الحبيب

حتى إذا الليل أتى مقبلا ... واستترت فيه وجوه العيوب

فكابد الليل بما تشتهى ... فإنما الليل نهار الأريب

كم من فتى تحسبه ناسكاً ... يستقبل الليل بأمر عجيب

أرخى عليه الليل أستاره ... فبات فى لهو وعيش خصيب

ولذة الأحمق مكشوفة ... يسعى بها كل عدو رقيب

والرشيد ينظر إلى ما يكتب فلما فرع قال :

ـ بلغت يا أبت .

وأقر هذه الخطة الخبيثة التى اختطها هذا الرجل لابنه : لم يأمره بتقوى الله فى السر وفى العلن ومراقبته فى الخلوة وفى الملأ ، واجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولم يلقنه خشية الله بل خشية الناس والله أحق أن يخشوه إن كانوا مؤمنين .

على أن الفضل قد صلح بعد ذلك ، ولم يعد يفارق المسجد نهاره كله . ولما وصل إلى مدينة (بلخ) وهى وطنهم الأول وفيها (النوبهار) المعبد الذى كان أجداده سدنته وكانوا يوقدون فيه النار التى كانوا يعبدونها من دون الله ،

أمر الفضل بهدمه ، فصعب عليهم هدمه لمتانته وإحكام بنائه ، فهدم ناحية منه وأقام فيها مسجداً .

وولى جعفر نيابة مصر ، ثم نيابة سجستان ، أى أنه جعل إليه أمر نصب الوالى عليها وعزله ، فولى عليها رجلاً ولم يخرج إليها بنفسه .

ثم ولاه رياسة الحرس . ولما اضطربت الشام لما كان فيها من العصبيات القبلية واختل أمرها دعا الرشيد جعفراً فقال له :

ـ إما أن تخرج أنت ، أو أخرج أنا .

ـ فقال له جعفر : بل أقيك بنفسى .

فشخص جعفر فى جيش ضخم ، ومعه جلة القواد ، فأخمد الفتنة وسن سنة سيئة ما رأيت قبله من صنعها ، هى أن العرب ـ مذ كانوا ـ يقتنون السلاح ويحملونه ، فجاء جعفر فى هذه الحملة ، فصادر الأسلحة وأدوات القتال ، فلم يدع بها رمحاً ولا فرساً ، ومدحه منصور النميرى لما توجه إلى الشام بقصيدة طويلة منها :

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة ... فهذا أوان الشام تخمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك ... عليها جنت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر ... وفيه تلاقى صدعها وانجبارها
فإن أمير المؤمنين بنفسه ... أتاكم وإلا نفسه فخيارها
هو الملك المأمول للبر والتقى ... وصولاته لا يُستطاع خطارها
وزير أمير المؤمنين وسيفه ... وصعدته والحرب تدمى شفارها
ومن تطو أسرار الخليفة دونه ... فعندك مأواها وأنت قرارها
وفيت فلم تغدر لقوم بذمة ... ولم تدن من حال ينالك عارها
إذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له ... ملمات خطب لم ترعه كبارها

ولما عاد ودخل على الرشيد قبل يديه ورجليه وقال :

ـ الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى آنس وحشتى ، وأجاب دعوتى ، ورحم تضرعى ، وأنسأ فى أجلى حتى أرانى وجه سيدى ، وأكرمنى بقربه وامتن على بتقبيل يده ، وردنى إلى خدمته ، فوالله إن كنت لأذكر غيبتى عنه ومخرجى والمقادير التى أزعجتنى ، فأعلم أنها كانت بمعاص لحقتنى ، وخطايا أحاطت بى . ولو طال بعدى عنك يا أمير المؤمنين ـ جعلنى الله فداك ـ لخفت أن يذهب عقلى إشفاقاً على قربك وأسفاً على فراقك ، وأن يعجل بى عن إذنك الاشتياق إلى رؤيتك ، والحمد لله الذى عصمنى فى حال الغيبة وأمتعنى بالعافية ، وعرفنى الإجابة ومسكنى بالطاعة ، وحال بينى وبين استعمال المعصية ، فلم أشخص إلا عن رأيك ، ولم أقدم إلا عن إذنك وأمرك ، ولم يخترمنى أجلى دونك .

والله يا أمير المؤمنين ـ فلا أعظم منْ اليمين بالله ـ لقدعانيت ما لو تُعْرَض لى الدنيا كلها لاخترت عليها قربك ، ولما رأيتها عوضاً من المقام معك . . . .

ولم يقصر يحيى الولايات على ولديه الفضل وجعفر ، بل فتح بابها لأولاده جميعًا ، بل للبرامكة كلهم .

فكان ولده موسى ينتدب للمهمات العسكرية . لما هاجت الفتنة الأولى فى الشام بين النزارية واليمانية ـ وهى كالفتنة التى ذهب جعفر للقضاء عليها ـ انتدب لها موسى بن يحيى ، فخرج إليها ومعه القُواد والأجناد وجماعة من مشايخ الكُتّاب ، فسكن الفتنة ، ومدحه الشعراء ، فقال إسحاق بن حسان الخزيمى يخاطب يحيى ، ويصفه بأنه حامى الإسلام ، الساهر عليه الذى لا يفرط فيه ، وقد أقام فى بغداد وبث أولاده فى الأطراف :

مَنْ مبلغٌ يحيى ودون لقائه ‏ ‏ ‏ زأرت كل خنابس همهام

يا راعى الإسلام غير مفرط ‏ ‏ ‏ فى لين مغتبط وطيب مشام

وقال غيره :

قد هاجت الشام هيجاً ... يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها ... بخيله وجنوده
هو الجواد الذي بَذَّ ... كل جود بجوده
أعداه جود أبيه ... يحيى وجود جدوده

و (محمد) أخو يحيى ولاه الرشيد حجابته ، ثم قسم بلاد الخلافة كلها بين جعفر والفضل ، كما قسمها المهدى من قبل بين ولديه موسى وهارون ، فكان للفضل شرقى البلاد من بغداد إلى السند ، ولجعفر غربيها من بغداد إلى المغرب ، ثم عقد ولاية العهد لولديه الأمين والمأمون ، فضم الأول إلى الفضل وجعله فى حجره ، وضم الثانى إلى جعفر وجعله فى حجره .

وتوجه الفضل إلى خراسان ، فأحسن السيرة فيها ، وبنى المساجد والرباطات ، وغزا ما وراء النهر ، فخرج واتخذ جنداً من العجم سماهم العباسية ، وجعل منهم جيشاً بلغ عدده نصف مليون جندى لهم سجلات وقيود ورواتب معينة . وقدم بغداد منهم عشرون ألفاً فسُمّوا فى بغداد (الكُرنْبية) وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصة :

ما الفضل إلا شهاب لا أفول له ... عند الحروب إذا ما تأفل الشهب
أثبت خمس مئين فى عدادهمُ ... من الألوف التى أحصت لك الكتب
يقارعون عن القوم الذين همُ ... أولى بأحمد فى الفرقان إن نسبوا

وقال سَلْم الخاسر :

وكيف تخاف من بؤس بدار ... تكنّفها البرامكة البحور
وقوم منهم الفضل بن يحيى ... نفير ما يوازنه نفير
له يومان يوم ندى وبأس ... كأن الدهر بينهما أسير
إذا ما البرمكى غدا ابن عشر ... فَهِمَّتُه وزير أو أمير

وليدرك القارئ مبلغ ما أصاب الفضل من هذه الولاية ، أسوق له خبر ما ناله قائد من صغار قواده هو إبراهيم بن جبريل ، فإنه خرج معه وهو كاره للخروج ؛ فأحفظ ذلك الفضل عليه وأغضبه .

(قال إبراهيم) :

فدعاني يوماً بعد أن أغفلني حيناً ، فدخلت عليه ، فلما صرت بين يديه سلمت فما رد علي ، فقلت في نفسي : شر والله ، وكان مضطجعاً فاستوى جالساً ثم قال لي :

لِيفرُجْ رَوْعُك يا إبراهيم فإن قدرتي عليك تمنعني منك .

ثم عقد لي على سجستان ، فذهبت وجمعت خراجها وجئته به ، فوهبه لي وزادني فوقه خمسمائة ألف درهم ، فعاد إبراهيم إلى بغداد بسبعة ملايين! .

بمثل هذا الكرم كانوا يمتلكون القلوب ، وإنما هي أموال الله يتصرفون فيها ، يجمعون هذا المال من الآلاف المؤلفة ليعطوه لرجل واحد ، يجودون بما لا يملكون ويعطونه لمن لا يستحقونه .

ولما رجع إلى بغداد خرج الرشيد بنفسه لاستقباله ومعه القواد والكتّاب والأشراف ، فجعل الفضل يعطي الرجل ألف ألف ، والرجل خمسمائة ألف كما روى الطبري ، فكان ما وزعه في ذلك اليوم شيئاً يفوق الوصف ويستعصي على العد ، وقال فيه مروان :

إذا الناس راموا غاية الفضل في الندى ... وفي البأس ألفوها من النجم أبعدا

سما صاعداً بالفضل يحيى وخالد ... إلى كل أمر كان أسنى وأمجدا

وكان يحيى خلال ذلك في منصب المستشار للخليفة والموجه للدولة . كأنه غدا عند نفسه فوق الولايات لا يتدخل فعلا إلا إن اضطرته الأحداث إلى ذلك .

وما زالت دولة البرامكة فى صعود ، وما زالوا يتداولون الولايات حتى حج الرشيد ومعه ابناه الأمين والمأمون ، وحج معه يحيى ومعه ابناه جعفر والفضل فلما صاروا فى المدينة جلس الرشيد ومعه يحيى فأعطى الناس عطاءهم ، والعطاء نوع من الضمان الاجتماعى كان أحدثه عمر بن الخطاب ، وهى رواتب من الخزانة العامة تكاد تعمّ الناس جميعاً ، ثم جلس الأمين ومعه الفضل فأعطاهم عطاءهم ، ثم جلس المأمون ومعه جعفر فأعطوهم عطاءهم فكان أهل المدينة يسمون ذلك العام عام الأعطية الثلاثة وفى ذلك يقول ابن مناذر :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك ... فيا طيب أخبار ويا حسن منظر

لهم رحلة فى كل عام إلى العدى ... وأخرى إلى البيت العتيق المعطر

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر

فتظلم بغداد وتجلو من الدجى ... بمكة ما حجّوا ثلاثة أقمر

فما خلقت إلا لجود أكفهم ... وأقدامهم إلا لأعواد منبر

ولما انتهى الحج استعفى يحيى الرشيد من الولاية فأعفاه ، واستأذنه فى الإقامة بمكة فأذن له فبقى فيها وتخلى عن الدنيا .

ولا ندرى أكان ذلك ليقظة روحية لحقته فصنع ما ينبغى أن يصنعه كل عاقل ، يؤثر الآخرة الباقية على الدنيا الفانية ، أم كان ذلك رياء وخداعاً ، وبقى فى مكة شهوراً ، ثم عاد إلى بغداد حين سمع أن الرشيد أطلق يعقوب بن داود من سجنه .

وذلك أن يعقوب هذا ، كان وزيراً للمهدى ، وحظى عنده جداً ، ولمع نجمه حتى قال فيه بشار :

بنى أمية هبوا طال نومكم ... إن الخليفة يعقوب بن داود

ثم غضب عليه المهدى ، فسجنه فى بئر ، وبنى عليه قبة ، وتركه فى البئر منفرداً ، فبقى فيها وحده خمس عشرة سنة لا يرى ضوءاً ، ولا يسمع صوتاً ، ولا يكلمه أحد ، إلا أنهم يدلون إليه كل يوم رغيفاً وكوز ماء [1] ، ويؤذنونه بأوقات الصلاة . ثم أخرجوه وقد نبت شعره حتى صار مثل شعور الأنعام ، فلم يستطع أن يبصر لطول ما بقى فى الظلام ، فوقفوه بين يدى الرشيد وقالوا :

ـ سَلِّمْ على أمير المؤمنين .

ـ فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين المهدى .

قال : لستُ به .

ـ قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين الهادى .

قال : لستُ به .

ـ قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين الرشيد .

قال : نعم . ثم قال له :

ـ والله لم يشفع فيك عندى أحد ، ولكنى حملت البارحة بنتاً صغيرة على عنقى ، فذكرت حملك إياى على عنقك ، فرحمت ما أنت فيه من الضيق فأخرجتك .

وأنعم عليه وأحسن إليه . واشتم منه يحيى رائحة الخطر على دولته ، وغار منه ـ كما يقول ابن كثير فى تاريخه ـ وخشى أن يعيده الرشيد إلى منزلته التى كان عليها أيام المهدى ؛ فأخذ يكيد له ، وفهم ذلك يعقوب فآثر الفرار ، وكان زاهداً حقاً فى خـ[illegible] ا[illegible]كم ، وفوائد القرب من الولاة بعدما عاش فى ظلمهم وعسفهم خمس عشرة سنة ، فاستأذن الرشيد فى الذهاب إلى مكة ، فأذن له

(1) وهذا ما لا يسيغه العادل من شرائع الأرض ، ولا تأذن بمثله شريعة السماء .

فذهب إليها ، وبقى فيها حتى مات .

***

أوتى البرامكة من المواهب ، وجمعوا من خلال السيادة ، ما نالوا به الآمال وسبقوا به الأقران .

فكان جعفر فى علمه وفضله ، وفى بيانه وعقله من إحدى فلتات الدهر ، وكانت توقيعاته مثلا فى البلاغة يحتذى ، ومرآة فى البيان يُجتلى ، وكانت فى باب الإيجاز تقرب من حد الإعجاز .

والتوقيعات هى ما يكتبه الأمير على القصص (أى العرائض) التى ترفع إليه ، يأمر لصاحبها بعطاء أو منع وقبول أو رد ، على نحو ما (يشرح) الموظف اليوم على العرائض .

رفعت إليه شكوى من عامل من عماله ، فوقع فيها إلى ذلك العامل : « قد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما اعتدلت وإما اعتزلت » .

أربع كلمات أجملت قصته وأوضحت غلطته واستعدت توبته واستدنت نكبته . واعتذر إليه رجل فقال له : « قد أغناك الله بالعذر منا ، عن الاعتذار إلينا ، وأغنانا بالمودة لك عن سوء الظن بك » .

ولم يكن يتعمد حلاوة اللفظ ولو كان فيها ضياع الحق ، كما كان يصنع ذلك الثقيل المتكلف الصاحب بن عباد الذى قال لقاضى (قم) : « يا أيها القاضى بقُمّ . . . » ثم وقف كما وقف حمار الشيخ في العقبة ، ولم يجد ما يسدد به السجعة إلا أن قال له : « . . . قد عزلناك فقم » .

فقيل للقاضى : فيم عُزِلت ؟ قال : فى سجعة !

بل كانت توقيعات جعفر تجمع اللفظ والمعنى ، والعلم والأدب . ولقد وقع

يوما فى حضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع ، ولم يخرج فى شيء منها عن موجب الفقه .

تقولون : من أين له الفقه ؟ من الإمام أبى يوسف صاحب الإمام الأعظم ، ضمه إليه أبوه ، وألزمه صحبته فعلمه وفقهه .

***

وكان أستاذه الأول أبوه يحيى ، فقد كان يقول له ولإخوته : اكتبوا أحسن ما تسمعون ، واحفظوا أحسن ما تكتبون ، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون . فكانوا يعملون بهذه النصيحة ، فكان حديثهم صفوة الصفوة ولباب اللباب ، فكانوا ملوك الكلام كما كانوا ملوك المال وملوك الناس .

وكان يحيى من العقلاء الكرماء البلغاء . ومن كلامه : « ثلاثة تدل على عقول أربابها : الهدية والكتاب والرسول » ومنه : « الدنيا دول ، والمال عارية ، ولنا فيمن قبلنا أسوة ، وبنا لمن بعدنا عبرة » ومنه : « من لم أحسن إليه فأنا مخير فيه ومن أحسنت إليه فأنا مرتهن به » ومنه : « إذا أقبلت الدنيا فأنفق فإنها لا تبقى ، وإذا أدبرت فأنفق فإنها لا تبقى » .

قلت : بهذا ضاعت خزانة الدولة ، ثم ضاعت الدولة كلها ، وهى لعمرى شر نصيحة ، وخير منها آداب الإسلام وهى القصد فى الإنفاق ، والتوسط بين التبذير والتقتير ، وألا يجعل المرء يده مغلولة إلى عنقه ولا يبسطها كل البسط فيقعد (ملوماً) من الناس ، (محسوراً) فى نفسه ، وأن ينفق حيث يدفع الشرع إلى الإنفا[illegible] وجه الله ، ويمسك حيث يؤثر الشرع الإمساك .

(ومنه) : ذكر النعمة من المنعم تكدير ، ونسيان المنعم عليه كفر وتقصير .

(ومنه) : النية الحسنة مع العذر الصادق يقومان مقام النُجح .

(ومنه) : إذا أدبر الأمر ، كان العطب فى الحيلة .

(ومنه) : من غيرته الولاية كانت الولاية أكبر منه .

(ومنه) : مما يدل على حلم الرجل : سوء خُلُق غلمانه .

وولى الرشيد رجلا ولاية ، فلما دخل عليه يودعه كان عنده جعفر ويحيى فقال لهما : أوصياه فقال له يحيى : وفر ، واعمر .

وقال جعفر : أنصف وانتصف .

وقال الرشيد : اعدل وأحسن .

وشهد المأمون ، وهو من هو فى البلاغة والعقل ، بأنه لم يبلغ مبلغ يحيى من الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة أحد من ولده .

أما كرمهم فقد جاوزوا به كل سابق ، وقطعوا به كل لاحق ، على أنى لا أراه لهم محمدة ولكن مذمة ، والكرم إنما يحسن إن أعطيت من يستحق مما تملك ، أما مَنْ عمد إلى مال الأمة الذى اؤتمن عليه فبسط به يديه وألقى به ذات اليمين وذات الشمال كما فعل البرامكة ، وكما كان يفعل أكثر الخلفاء والأمراء ، من قبلهم ومن بعدهم ـ وإن لم يبلغوا فى ذلك مبلغهم ـ أما من صنع ذلك فقد جنى جناية وارتكب جرماً وكان هو واللص سواء ، بل هو لعمرى شر من اللص ، فاللص إنما يسرق لنفسه ، ويعمر دنياه بخراب دينه ، وهذا يسرق للناس ويبيع دينه بدنيا غيره فيكون أخسر الناس .

فمن أخبار هذا الكرم العجيب :

أن إبراهيم الموصلى الذى أخذ من أموال الأمة ، هو وولده إسحاق ملايين وملايين لا يحصيها العد ، ما أخذاه بعلم نشراه ، ولا بمجد أثّلاه ، ولا بفتح

فتحاه ، بل أخذاه بأصوات لحناها ، وغناء ردّداه . حرم الخلفاء أصحاب الحق فى هذا المال ، وأعطوه المغنين والعارفين والجوارى ، وأنفقوه فى لذات أنفسهم، وفى لهوهم وشهواتهم ، فجر ذلك عليهم هولاكو ، ومن بعده من عرفنا من المستعمرين .

جاء إبراهيم يوماً إلى يحيى يشكو إليه ضيقاً فقال له :

ـ ويحك ما أصنع بك ؟ ليس عندنا فى هذا الوقت شىء ، ولكن ههنا أمر أدلك عليه ، فكن فيه رجلاً قد جاءنى خليفة صاحب مصر (أى والى مصر) يسألنى أن أستهدى صاحبه شيئاً ، وقد أبيت ذلك عليه فألح على ، وقد بلغنى أنك قد أعطيت بجاريتك فلانة ثلاثة آلاف دينار ، فهو ذا أستهديه إياها وأخبره أنها قد أعجبتنى فإياك أن تنقصها عن ثلاثين ألف دينار وانظر كيف تكون .

قال إبراهيم : فوالله ما شعرت إلا بالرجل وافانى فساومنى بالجارية فقلت : لا أنقصها عن ثلاثين ألف دينار فلم يزل يساومنى حتى بذل لى عشرين ألف دينار ، فلما سمعتها ضعف قلبى عن ردها فبعتها وقبضت العشرين ألفاً ثم صرت إلى يحيى فقال لى :

ـ كيف صنعت فى بيعك الجارية ؟ فأخبرته وقلت :

ـ والله ما ملكت نفسى أن أجبت إلى العشرين ألفاً حين سمعتها .

قال : إنك لخسيس ، فخذ جاريتك ـ بارك الله لك فيها ـ وهذا خليفة صاحب فارس قد جاءنى فى مثل هذا ، فإذا ساومك فلا تنقصها عن خمسين ألف دينار فإنه لابد أن يشتريها منك بذلك .

فجاءنى الرجل فاستَمْتُ عليه خمسين ألفاً ، فلم يزل يساومنى حتى أعطانى ثلاثين ألف دينار فضعف قلبى عن ردها ولم أصدق بها فأوجبتها له ، ثم صرت إلى يحيى فقال : بكم بعت الجارية ؟ فخبرته فقال :

ـ ويحك ألم تؤدبك الأولى ؟

قلت : ضعف قلبى والله عن ردها .

قال : هذه الجارية جاريتك فخذها إليك .

وقد روى هذه القصة ابن خلكان ، ولست أدرى أيروونها مدحاً ليحيى أم قدحاً ؟ وما هى إلا مؤامرة احتيال ، وهى وسخة من أولها إلى آخرها ، ولو وقعت فى أيامنا هذه ـ على فساد هذه الأيام ـ لأحيل كل من اشترك فيها إلى محكمة الجنايات ؛ لأن (الوزير) يحيى احتال على الأمير وهو فوق ذلك قبلها منه وهى رشوة لا هدية . والأمير ما أهداها إلا ليظلم الناس ويستخلص ثمنها منهم أضعافاً مضاعفة .

ودخل عليه الأصمعى يوماً فقال له :

ـ يا أصمعى هل لك زوجة ؟

ـ قال : لا .

قال : فجارية ؟ ـ قال : لا .

فأمر بإخراج جارية فى غاية الحسن والجمال .

(قال الأصمعى) فقال لها : ـ قد وهبتك لهذا .

وقال لى : يا أصمعى خذها لك . فشكرته ودعوت له . فلما رأت الجارية ذلك بكت وقالت :

ـ يا سيدى تدفعنى إلى هذا مع ما ترى من سماجته وقبحه ؟

ـ فقال لى : هل لك أن أعوضك عنها ألفى دينار ؟

وأعاد الجارية إلى داره وقال لى :

ـ أنكرت على هذه الجارية أمراً ، فأردت أن أعاقبها ثم رحمتها .

ـ قلت : هلا أعلمتنى فأسرح لحيتى وأصلح عمتى وأتطيب وأتجمل ؟

فضحك وأمر لى بألف أخرى .

وكان يحيى إذا ركب يعطى كل من تعرض له مائتى درهم ، فركب ذات يوم فتعرض له رجل فقال له :

يا سمىَّ الحصور يحيى أتيحت لك من فضل ربنا جنتان

كل من مر فى الطريق عليكم فله من نوالكم مائتان

مائتا درهم لمثلى قليل هى منكم للقابس العجلان

قال له يحيى : صدقت ، وأمر بحمله إلى داره ، فلما رجع يحيى من دار الخلافة سأله عن حاله ، فذكر له أنه تزوج وقد أخذ بواحدة من ثلاث : إما أن يؤدى المهر وهو أربعة آلاف ، وإما أن يطلق ، وإما أن يقيم جارياً للمرأة (أى نفقة وراتباً) يكفيها إلى أن يتهيأ له نقلها .

فأمر له يحيى بأربعة آلاف للمهر ، وأربعة آلاف لثمن منزل ، وأربعة آلاف لما يحتاج إليه المنزل ، وأربعة آلاف للبنية (أى للزفاف) ، وأربعة آلاف يستظهر بها .

فأخذ عشرين ألفاً بثلاثة أبيات لا معنى لها ولا مبنى !

وقال محمد بن عمر الواقدى :

كنت حناطاً بالمدينة (أى بياع حنطة) فى يدى مائة ألف درهم للناس أضارب بها فتلفت وضاعت ، فشخصت إلى العراق فقصدت يحيى بن خالد فجلست فى دهليزه ، وأنست بالخدم والحجاب وسألتهم أن يوصلونى إليه فقالوا :

ـ إذا قُدم الطعام إليه لم يُحجب عنه أحد ، ونحن ندخلك عليه .

فلما حضر طعامه أدخلونى فأجلسونى معه على المائدة فسألنى :

ـ من أنت ؟ وما قصتك ؟

فأخبرته ، فلما رفع الطعام وغسلنا أيدينا دنوت منه لأقبل رأسه فاشمأز من ذلك ، فلما صرت إلى المو ضع الذى يركب منه ، لحقنى خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال :

ـ الوزير يقرأ عليك السلام ويقول لك : استعن بهذا على أمرك وعد إلينا فى اليوم الثانى ، فأخذته وانصرفت وعدت فى اليوم الثانى فجلست معه على المائدة فأنشأ يسألنى كما سألنى فى اليوم الأول .

فلما رفع الطعام دنوت منه لأقبل رأسه فاشمأز منى ، فلما صرت إلى الموضع الذى يركب منه لحقنى خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال لى :

ـ الوزير يقرأ عليك السلام ويقول لك : استعن بهذا على أمرك وعد إلينا فى غد . ..

فأخذته وانصرفت ، فعدت فى اليوم الثالث كما أمر ، فأعطيت مثل ذلك الذى أعطيت فى الأول والثانى ، فلما كان فى اليوم الرابع أعطيت مثله وتركنى بعد ذلك أقبل رأسه وقال :

ـ إنما منعتك ذلك لأنه لم يكن وصل إليك من معروفى ما يوجب هذا ، فالآن قد لحقك بعض النفع منى ، يا غلام ، أعطه الدار الفلانية ، يا غلام أفرش له الفرش الفلانى ، يا غلام أعطه مائتى ألف درهم يقضى دينه بمائة ألف ويصلح شأنه بمائة ألف ثم قال لى :

ـ الزمنى وكن فى دارى .

ـ فقلت : أعز الله الوزير ، لو أذنت لى بالشخوص إلى المدينة لأقضى الناس أموالهم ثم أعود إلى حضرتك كان ذلك أرفق بى .

ـ قال : قد فعلت .

وأمر بتجهيزى ، فشخصت إلى المدينة فقضيت دينى ثم رجعت إليه فلم أزل فى ناحيته .

وكان له كاتب يختص بخدمته ، ويقرب من حضرته ، فعزم على ختان ولده ، فاحتفل له الناس على طبقاتهم وهاداه أعيان الدولة ووجوه الكتاب والرؤساء على اختلاف منازلهم ، وكان له صديق قد اختلت أحواله وضاقت يده عما يريده لذلك مما دخل فيه غيره ، فعمد إلى كيسين كبيرين نظيفين فجعل فى أحدهما ملحاً وفى الآخر أُشناناً مطيباً وكتب معهما رقعة فيها :

لو تمت الإرادة لأسعفتُ بالعادة ، ولو ساعدت المكنة على بلوغ المهمة لاتبعت السابقين إلى برك ، وتقدمت المجتهدين فى كرامتك ، ولكن قعدت القدرة عن البغية ، وقصرت الجدة عن مباراة أهل النعمة ، وخفت أن تطوى صحائف البر وليس لى فيها ذكر ، فانفذت المبتدأ بيمنه وبركته والمختتم بطيبة ونظافته صابراً على ألم التقصير ، متجرعاً غصص الاقتصار على اليسير .

فلما حضر يحيى الوليمة عرض عليه كاتبه الهدايا جميعهاً حتى الكيسين والرقعة ، فاستظرفها وأمر أن يملأ الكيسان مالاً ويُرَدا عليه ، فكان ذلك أربعة آلاف دينار .

ومضى أولاده كلهم على سنته فى هذا الذى تعود الناس أن يسموه كرماً ، ولو كان من أموال أنفسهم التى تعبوا فى تحصيلها من وجوه الحلال لكان اسمه سفهاً وتبذيراً يستحقون به الحجر من القاضى ، فكيف وهو من أموال الناس التى ائتمنهم الله عليها ؛ إنه لا يسمى إذن إلا السرقة بأبشع صورها .

هذا جعفر يبذل أربعين ألف دينار فى (فرج . . .) جارية ، وأربعون ألفاً من أهل بغداد يشتهون عشر الدينار ، ثم لا يكفيه هذا حتى يهب المال لمن لا حق له به .

* * *

لم يكمل البحث ، ومر عليه الزمان ، فضعفت الهمة وضاعت الأصول ، وانصرفت عنه إلى سواه ، فآثرت أن أنشره ناقصاً ، على أن أهمله كاملاً .

* * *

معن بن زائدة

كان أجمل صفتين عند العرب ، يتصف بهما الرجل : الشجاعة والكرم . أما الشجاعة فلأنهم كانوا يعيشون فى بادية ، لا حكومة يحتكمون إليها ، ولا شرطة يحتمون بها ، ومن لم يكن شجاعاً قوياً أودى به وبماله وأهله الأقوياء ، ومن لم يكن ذئباً أكلته الذئاب . وأما الكرم فلأنه لم يكن فيهم فندق ، ولا فى ديارهم مطعم ، فمن نزل بقوم فلم يطعموه مات جوعاً ، فكانوا يطعمون الغريب ليطعَموا وهم غرباء ، ومن هنا رسخت هاتان الصفتان فى نفوسهم حتى صارتا شعار العربى وأمارته ، وعليهما دار فخر شعراء الحماسة ، ومدح شعراء المدح ، وبقيتا فينا إلى اليوم ، فلا تجد خلقاً أجل فى عيوننا من الشجاعة ، ولا حقاً أكبر عندنا من حق الضيف ، ولو جاء يشغلك بحديثه الفارغ عن موعد لك لا تستطيع خلافه ، أو عمل لا تملك تركه ، حتى أن العدو إذا وطئ بساطك محا هذا الوطء ما كان منه من رزايا وأسواء .

وما سقت هذه المقدمة إلا لأن الحديث اليوم عن رجل جمع هاتين الخلتين ، فكان فيهما مثلا مضروباً .

وأحب أن تعلموا أن هذا الكرم هو الذى أضاع ملكنا : الكرم الجاهلى الذى يجاوز السرف ، ويقارب التبذير ، وإن أدب الإسلام خير منه وأولى ، ألا تبخل ولا تبذر ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط .

حديث اليوم عن القائد العربى الذى سمعتم به ، الجرىء المغامر ، والكريم الجواد : معن بن زائدة الشيبانى . ومن منكم لم يسمع باسم (معن) الأمير البطل الممدح من بنى شيبان أبطال ذى قار ، أهل البطولات والصولات

وقبيلة الرجال وَالأبطال ؟

لحياة معن ثلاث مراحل :

مرحلة فى خدمة بنى أمية ، تنقل فيها فى الولايات ، وكان منقطعاً إلى (يزيد بن عمر بن هبيرة) أمير العراقين . ولما حاصر المنصور واسط وقف فى وجهه ودافعه عنها وأراه العجب ، فلما آلت الخلافة إلى بنى العباس اختفى وطلبوه فلم يصلوا إليه ، فلما ولى المنصور البطاش المخيف اشتد فى طلبه ، فتنكر أعرابياً أقام فى الشمس حتى لوحت الشمس وجهه ، وخفف من عارضيه (شعر الخدين) ولبس جبة صوف ، وركب جملا ، وراح يتنقل فى البلاد ، يخالط الناس على حذر ، ويدخل فيهم على خوف ، حتى كان يوم الهاشمية .

يوم فاجأت طائفة من مارقة خراسان المنصور بثورة عارمة ، جبهوه بها وهم يحفون به للتسليم عليه ، وحالوا بينه وبى جنده ، وكادوا يقضون عليه ، وكان (معن) حاضراً متنكراً ، فلما رأى ذلك ، رفع لثامه ورمى بنفسه عليهم كالبلاء النازل ، وأعمل فيهم سيفاً كأنه شعلة من جهنم ، وما زال بهم حتى شق الطريق إلى المنصور فحماه منهم وفرقهم عنه ، ومكن للجند أن يقبضوا عليهم .

وخرج المنصور ، كأنما قد خرج من القبر ، ودعا هذا البطل المجهول الذى أنقذه من الموت ورد عليه الحياة فقال : من أنت ؟

قال : أنا من تطلبه بذنبه يا أمير المؤمنين ، معن بن زائدة ، وها أنذا بين يديك ، فاستحيا المنصور ، وشكر له هذه اليد وأكبرها ، وقربه من ذلك اليوم حتى صيره من أكبر قواده ، وقرب ابن أخيه البطل النجيب (يزيد بن مزيد

الشيباني) فصار هو أيضاً من القواد الكبار : وبلغ منزلة لم يسم إليها إلا القليل، وهو الذى رثاه مسلم بن الوليد ـ صريع الغوانى ـ المرثية الخالدة :

أحــــق أنــه أودى يــزيـــد ؟ تَكَلمْ أيها النــاعى المـشيــد

أبنْ لى من نعيت وكيف فاهت به شـفتــاك واراك الصـعيـــد

أحامى الملك والإسـلام أودى فما للأرض ويحــك لا تمـيد

واسمعوا من (معن) نفسه خبراً طريفاً مما لقى فى هربه من المنصور من العجائب قال :

فارقت مرة بغداد متوجهاً إلى البادية لأقيم بها (قال) : فلما خرجت من باب حرب ـ وهو أحد أبواب بغداد ـ تبعنى أسود متقلد بسيف ، حتى إذا غبت عن الحرس ، قبض على خطام الجمل فأناخه وقبض على يدى فقلت له :

ـ وما بك ؟

فقال : ـ أنت طلبة أمير المؤمنين .

ـ ومن أنا حتى أطلب ؟

فقال : أنت (معن بن زائدة) .

فقلت له : ـ يا هذا ، اتق الله عز وجل وأين أنا من (معن) ؟

فقال : ـ دع هذا ، فإنى والله لأعرف بك منك .

فلما رأيت منه الجد قلت له : هذا عقد جوهر قد حملته معى ، وهو يقدر بأضعاف ما جعله المنصور لمن يجيئه به ، فخذه ولا تكن سبباً لسفك دمى . قال : هاته .

فأخرجته إليه ، فنظر فيه ساعة وقال : صدقتَ فى قيمته ، ولست قابله

حتى أسألك عن شىء فإن صدقتنى أطلقتك ، فقلت : قل ، قال :

ـ إن الناس قد وصفوك بالجود ، فأخبرنى هل وهبت مالك كله قط ؟

قلت : ـ لا . قال : فنصفه ؟ قلت : لا ، قال : فثلثه ؟ قلت : لا .

حتى بلغ العشر فاستحييت ، وقلت : أظن أنى فعلت هذا ، قال :

ـ ما ذاك بعظيم ، أنا والله رجل فقير ، ورزقى من أبى جعفر المنصور كل شهر عشرون درهماً ، وهذا الجوهر قيمته ألوف الدنانير ، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس ، ولتعلم أن فى هذه الدنيا من هو أجود منك ، فلا تعجبك نفسك ، ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته ولا تتوقف عن مكرمة .

ثم رمى العقد فى حجرى ، وترك خطام الجمل ، وولى منصرفاً . فقلت : يا هذا والله قد فضحتنى .

قال : أردت أن تكذبنى فى مقالى هذا ، والله لا آخذه ولا آخذ لمعروفى ثمناً أبداً ، ومضى لسبيله . . . (قال معن) : فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن يجىء به ما شاء ، فما عرفت له خبراً .

وتنقل بعد ذلك فى الولايات ، فولى اليمن وسجستان وأعمالاً بينهما ، وكان حيثما سار ينثر البطولات والعطايا ، حتى صار طائى عصره ، وجواد زمانه ، ووقف الشعراء قصائدهم عليه ، وانقطع كثير منهم إليه منهم : مروان ابن أبى حفصة أكبر شعراء تلك الأيام [1] ، حتى لقد أثار على نفسه حسد الخلفاء ، ولولا ما كان له من حضور البديهة وحسن التخلص لناله منهم أذى .

(1) أعنى الشعراء المحافظين ، أما أكبر الشعراء المجددين فهو بشار . ولى فيه كتاب صغير ، فيه محاضرة ألقيتها على طلاب الكلية العلمية فى دمشق سنة 1930 لما كنت أدرس لهم الأدب العربى ، وهو من كتبى التى لم أعد أرضى عنها فلذلك لم أعد طبعها .

دخل يوماً على المنصور ، والمنصور حريص على مال الله ، مقتصد فى الإنفاق ، يحاسب عماله على السرف والترف ، ويأخذهم بالشدة ، فقال له بلهجة المعاتب الغاضب :

هيه يا معن ، تعطى مروان مائة ألف على قوله :

معن بن زائدة الذى زيدت به ‏ ‏ ‏ ‏ شرفاً على شرف بنو شيبان ؟

قال : لا يا أمير المؤمنين ، إنما أعطيته على قوله فى هذه القصيدة :

ما زلتَ يوم الهاشمية معلنا ‏ ‏ ‏ ‏ بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعتَ حوزته وكنت وقاءه ‏ ‏ ‏ ‏ من وقع كل مهند وسنان

يذكره بدفاعه عنه ، وإنقاذه نفسه ، فما كان من المنصور إلا أن قال : أحسنت يا معن .

ومن حسن جوابه ، ومعرفته بخطاب الملوك أن المنصور قال له يوماً : ما أكثر وقوع الناس فى قومك يا معن . قال :

ـ يا أمير المؤمنين :

إن العرانين تلقاها حسدة ‏ ‏ ‏ ‏ ولن ترى للئام الناس حسادا

ودخل عليه يوما وقد أسن ، وقال : كبرت يا معن . .

ـ قال : فى طاعتك يا أمير المؤمنين .

ـ قال : وإنك لقوى .

ـ قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين .

ـ قال : وفيك بقية .

ـ قال : لك يا أمير المؤمنين .

فلما بلغ هذا الكلام الإمام الزاهد (عبد الرحمن بن زيد) قال : ويح هذا

ما ترك لربه شيئاً . ومعن شاعر مجود ، وبليغ بين ، وله قصائد مشهورة .

أما كرمه فكان أعجوبة ، ولست أستطيع أن أروى منه إلا قصة واحدة ، قصة مشهورة تدلكم على (ديمقراطية) العرب التى كانت فيهم طبعاً أصيلاً ، لا تكلفاً ولا دعاية ولا حرب أعصاب . وعن كرمه العجيب :

أرد أعرابى أن يمتحن كرمه وتواضعه ، فوقف عليه فى مجلسه فقال :

أتـذكر إذ لحافـك جلد شـاة وإذ نعـلاك من جلـد البعيـر ؟

فغضبت الحاشية ، وهموا به ، ولكن معناً كفهم وقال : أذكر ذلك يا أعرابى ولا أنساه .

قال :

فسبحان الذى أعطاك ملكاً وعلمك الجلوس على السرير

قال : **سبحانه** وتعالى ! .

قال :

فلست مسلماً ما عشت يوماً على معـن بتسليـم الأميـر

فهاج الحاضرون ، ولكن معنًا منعهم وقال : يا أعرابى ، السلام سنة ، وأنت حر أن تسلم على الأمير أو لا تسلم .

قال :

سأرحـل عن بـلاد أنت فيـها ولو ضـاق الزمـان على الفقيـر

قال : إن جاورتنا أهلا ومرحباً ، وإن رحلت فبالسلامة .

قال :

فجد لى يا ابن ناقصـة بشـىء فإنى قد عـزمـت على المسيـر

قال : أعطوه ألف درهم .

قال :

قليـــل ما أتيــتَ بـه وإنــى لأطمـع منـك بالشىء الكثيــر

قال : زيدوه ألفًا .

قال :

سألت الله أن يبقيـك ذخـــراً فما لك فى البــرية من نظيــر

قال : كم أعطيتموه على هجائه فى ؟ قالوا : ألفين . قال : أعطوه على مدحته ثلاثة .

وكانت خاتمة معن أن دس له الخوارج ناساً منهم ، فدخلوا مع عمال يعملون له فقتلوه ، وقد انتقم له ابن أخيه البطل (يزيد بن مزيد) .

وكان يزيد صنيعته ، وهو الذى كشف نبوغه ، ولذلك قصة طريفة .

ورثاه الشعراء المراثى الكثيرة . وكان من أجود ما رثى به القصيدة الخالدة التى قالها مروان ، والتى يقول فيها :

ألمـا علـى مـعن وقـولا لقبــره
سقتـك الغـــوادى مر بعــاً ثم مـــربعــاً

فيـا قبـــر معن أنـت أول حفـرة
من الأرض خُطـت للسماحـة موضعــاً

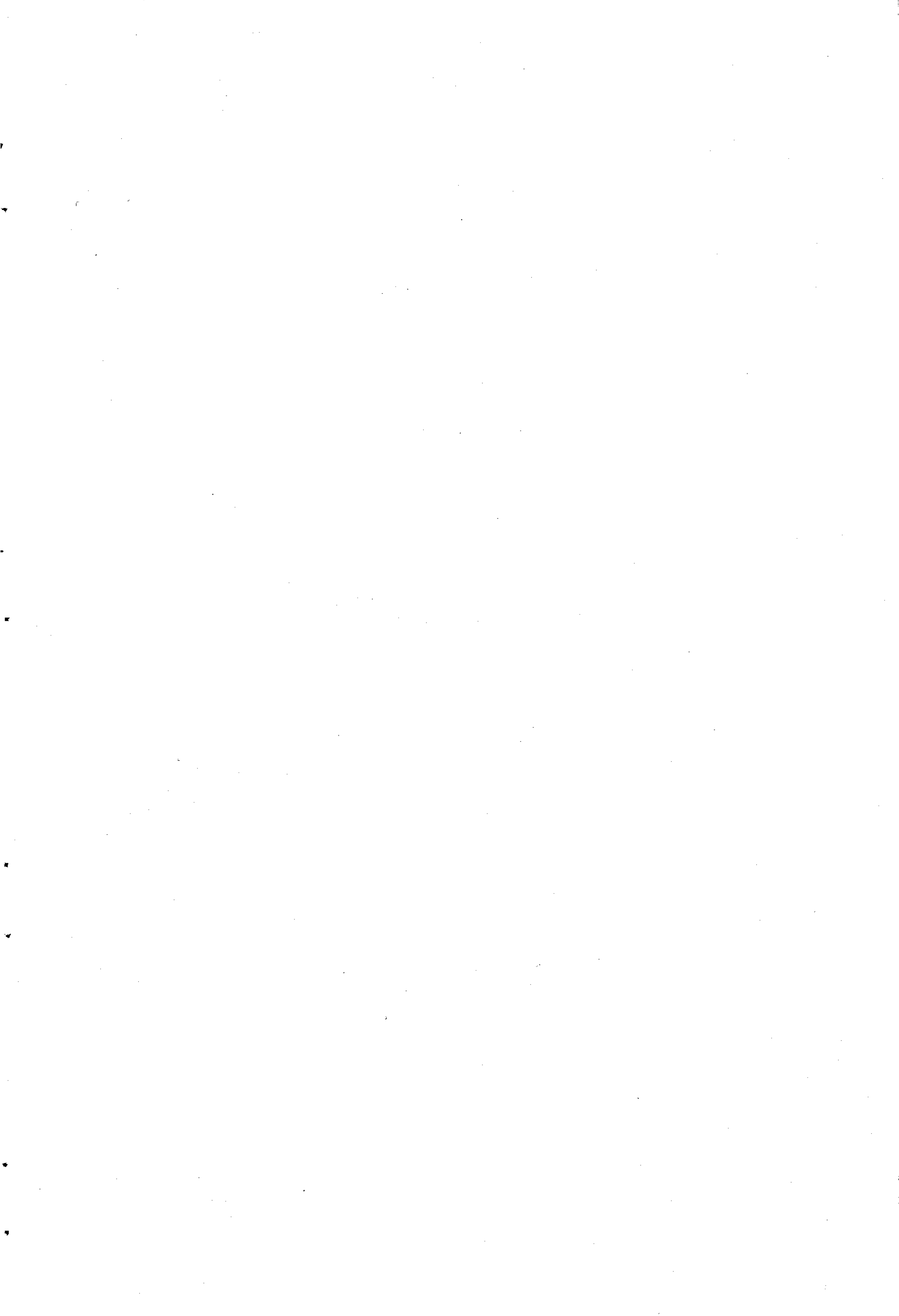
ويا قبـر معن كيـف واريت جـوده
وقـد كـان من البــــر والبحــــر مـترعـا ؟

بلى قد وسعت الجود والجـود ميت
ولـو كـان حيـا ضقـتَ حتـى تصـدعـــا

فتىً عِـيش فى مـعـروفه بعد موتـه
كما كـان بعـد السيـــل مجــراه مرتـعـا

* * * *

• القاضي المتأنق



القاضى المتأنِق

يبدأ هذا الحديث فى قرية جبلية منفردة عن القرى ، ضائعة بين الذرى المعممة بالثلج ، والأودية التى تهيم فيها السواقى ؛ تطل على البحر المتوسط ، لا من جهة الشرق من أعالى لبنان ، ولكن من جهة الغرب من ضهور الأندلس[1] ، مع رجل لم يقعد على صخور الجبل ، ليستجلى جمال الكون ، ويكحل العين بفتنة الوجود ، بل ليفكر كيف يصل إلى المدينة العظيمة التى يسمع بها ولم يرها ، إلى قرطبة دار الخلافة ، وقصبة الأرض ، ليشكو إلى القاضى عدوان جاره على أرضه . . .

ووجد من يدله على الطريق ، ويصحبه فى هذا السفر ، حتى إذا وصل به إلى أبواب قرطبة ، ولاحت له شرفات المسجد وقبابه ، وتكشفت له غرف القصر ، ورأى تلك الفخامة وذلك العظم ، ازداد حيرة على حيرته ، ولم يدر أيان يسلك . ولحظ الناس حيرته ، فأقبلوا متطوعين لدلالته ، وساروا به حتى بلغ رحبة البلد ، فسألهم أن يرشدوه إلى المحكمة . فلما دخلها ، سأل : أين القاضى ؟ فوقفوه أمام القاضى ، فإذا هو يرى شاباً بزى الأحداث ، له جمة مفرقة (شعر طويل مفروق) وعليه رداء ملون معصفر [2] ـ كالقمصان الملونة التى يلبسها شباب اليوم ـ والكحل ظاهر فى عينيه ، وأثر الحناء فى يديه . وفى رجله نعل صرارة ، فتوقف ، ورجع يقول لهم : دلونى على القاضى . قالوا : هذا هو القاضى وأشاروا إليه فقال : إنى رجل غريب ، وأنتم تستهزئون بى ،

---

(1) ضهور ، من عامى الشام الفصيح ، ومنه (ضهور الشوير) فى لبنان .
(2) مصبوغ بالعصفر .

أنا أسألكم عن القاضى ، وأنتم تدلوننى على رقاص خليع !

وتركهم غضبان وذهب إلى المسجد ، إلى مسجد قرطبة أوسع مساجد الإسلام ، الذى لا تزال آثاره إلى اليوم ، وهو ميت بعد ما مات أهله ، تدهش من يراها ، وتمسك عليه أنفاسه ، فلا يملك إلا أن يفتح عينيه ، ويحبس نفسه ، وينظر . وكان العهد من أعز عهود الإسلام فى الأندلس ، عهد الحكم بن هشام ، وكان المسجد فى إبان جماله وجلاله ، وعمرانه بالعلم والعبادة ، وكانت تقتسم العالم الدولتان المتحضرتان : الدولة المسلمة فى الشرق ، دولة بنى العباس ، والدولة المسلمة فى الغرب ، دولة بنى أمية ، أما أهل أوربة فكانوا بالنسبة إليهما يومئذ كسكان أفريقية الوسطى بالنسبة لفرنسا وبريطانيا فى هذه الأيام .

وكان اليوم جمعة فقعد الرجل ينتظر الصلاة ، وينظر إلى هذه الغابة من الأساطين المتعاقبة ، والأقواس المتعاقدة ، والصناعة البديعة ، والعظم البادى ، حتى إذا كانت الصلاة ، ودنت الخطبة ، رأى الناس المزدحمين يفتحون الطريق للخطيب ، ويتلقونه بالإعظام والإجلال ، فنظر فإذا صاحبه ، الذى حسبه رقاصاً ، قد أقبل بزيه الذى رآه عليه ، هو زى الشباب ، حتى صعد المنبر فخطب خطبة من أروع الخطب ، وأبلغها مقالاً ، وأصدقها لهجة ، وأحفلها بكل علم نافع ، ووعظ بالغ ، ثم أم الناس فقرأ قراءة متدبر متفهم ، من قلب خاشع ، فبلغ من نفسه بخطبته وقراءته ما لم يبلغه الخطباء والأئمة أصحاب العمائم الكبار ، والجيب الواسعة ، واللحى العريضة .

فلما قضيت الصلاة أقبل على جاره ، يسأله متردداً مستحييا : من هذا الذى يلبس لباس المغنين ويتكلم كلام الزاهدين ؟ فيعجب الناس من عجبه ويقولون : ألا تعرفه ؟ فيقول : لا . ولست من أهل هذا البلد .

فيقولون : هذا محمد بن بشير قاضى قضاة الأندلس ، وشيخ الإسلام فيها ، وخطيب مسجدها الأعظم .

ويقبل الناس يروون مناقبه ويحدثونه حديثه .

***

فكان مما حدثوه من مناقبه أنه كان لديه دعوى لعم الحكم ، على واحد من العامة ، وكان يظن المدعى أن له من علو مكانته ، ووثيق صلته بالملك ما يمكن له عند القاضى ، وإذا بالقاضى يقول له : قف بحذاء خصمك ولا تتكلم ، حتى أكون أنا الذى أسألك . فلما أدلى بدعواه . قال للمدعى عليه : ما تقول؟ قال : ليس على شىء ـ أصلح الله القاضى .

قال القاضى للمدعى : هات بينتك . قال : ألا يكفيك قولى ؟ قال : لو كفانى ما سألتك البينة . بينتك . قال : أمهلنى .

وذهب العم إلى الحكم صاحب الأندلس ، الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الأموى ، فقال له : ألست تعرف أن لى على فلان كذا ؟ قال : بلى . قال : أتشهد لى ؟ قال : أنت تعرف القاضى وأخاف ألا يقبل شهادتى ! قال : كيف وأنت الذى وليته القضاء ؟ قال : هو ما أقول لك . قال : فمن يشهد لى ؟ فدعا الملك بفقيهين وكتب شهادته أمامها وأشهدهما عليها ، وقال : امض بها إليه وأنا أخاف ألا يقبلها .

فلما كان يوم المحاكمة ، وقال له القاضى : بينتك . أبرز له شهادة الملك . فقال القاضى : أنا لا أقبل شهادته .

فاستشاط العم غضباً ، وجن جنونه ، وذهب إلى ابن أخيه ، وقال : أنت ملك البلاد ، والقاضى رد شهادتك ! ماذا بقى لك من الكرامة والسلطان ؟

وضحك الحكم وقال : ألم أقل لك يا عم ؟ إن القاضى رجل صالح لا تأخذه فى الله لومة لائم ، عمل ما يجب عليه ، فأحسن الله جزاءه .

قال : فاعزله . قال : أعوذ بالله . أنا أخون المسلمين فى عزل مثله ؟ أنا عملت ما على وشهدت لك ، وللقاضى أن يقبل الشهادة أو يردها .

ولما سئل القاضى بعد ذلك : لماذا رددت شهادته ؟

قال للسائل : يا جاهل والله ما رددتها لنقص فى عدالته ، ولكن لابد من سؤال المدعى عليه عما يقوله فى الشاهد ، فمن كان يجرؤ على الطعن فى شهادته لو قبلتها ؟ .

يا أيها السادة . . انظروا كيف كان ملوكنا وكيف كان قضاتنا .

* * *

وكان مما حدثوه به : أن عامياً أقام لديه دعوى على ابن فطيس الوزير ، وكان له فى الأندلس سطوة ونفوذ ، فلما سأل المدعى بينته ، جاء بشهود فسمع شهادتهم بغيبة الوزير ولم يخبره عنهم ، ولم يعرفه بهم ، وحكم عليه . فرفع الوزير شكوى إلى الحكم ، وكان القاضى حاضراً ، فأومأ إليه الحكم سائلاً . فقال : ليس ابن فطيس ممن يعرف بمن شهد عليه ، لأنه إن لم يجد سبيلاً إلى تجريح شهادتهم ، لم يتحرج من استعمال سلطانه فى أذاهم فى أنفسهم وأموالهم والانتقام منهم ، فيدع الناس الشهادة وتضيع أموال الناس .

يا سادة . وهذا مبدأ وضع حديثاً فى قانون البينات عندنا ، وحسب واضعوه أنهم جاؤوا بشىء جديد ليس فى الفقه الإسلامى . وهذا ابن بشير يقرره فى القرن الثانى للهجرة من أكثر من ألف ومائتى سنة .

قال : فكيف يتخذ هذا الزى ؟

قالوا : لقد سئل هو عن ذلك . فقال : حدثنى مالك بن أنس أن محمد بن المنكدر ، وكان سيد القراء ، كانت له لمة (شعر طويل) وأن هشام بن عروة فقيه المدينة (ابن عروة بن الزبير الذى حدثتكم عنه) كان يلبس المعصفر وأن محمد ابن القاسم كان يلبس الخز [1] .

فلما سمع ذلك غدا عليه ورفع إليه دعواه ، فرأى عنده من العدل والنزاهة والحزم ، ما لا مزيد عليه لمستزيد ، وعلم أنه قد يكون العالم العابد المتبتل فى زى رقاص أو مغن . وقد يكون الدجال المحتال الختال فى زى عابد متبتل ، وأن العبرة بالنيات والأعمال لا بالصور والأشكال ، وأنه كان ضيق النظر محدود الفكر ، حين وقف عند ظاهر الزى ، ولم يمض حتى يختبر ما وراءه من المعاملة والفعل .

❋ ❋ ❋

(1) على أن للعرف حكمه ، وإذا لم ينكر عليه زيه هذا أهل الأندلس لمكانته وديانته ، فليس لقاض أن يتخذ مثله فى بلد يرى ذلك قادحا بالمروءة مسقطاً للهيبة . وللثياب أثرها فى نفس الرجل وخلقه ، وفى رأى الناس فيه ، ونظرهم إليه ، لا ينكر ذلك إلا جاهل أو مكابر .

خطيبُ الزّهراء

أحدثكم اليوم عن قاض كبير ، كان قاضى الجماعة فى الأندلس ، وهو مثل منصب قاضى القضاة فى بغداد ، وكان خطيبها الأول ، وكان عالمها الأكبر ، وكان يهزل حتى ليأتى بالعجائب من النكات ، والغرائب من المضحكات ، ولكنه إذا جدّ الجد ، وجاء الواجب وقف مواقف لا تثبت فى مثلها الجبال الرواسى .

أما نكته فلقد جهدت أن أعرض لبعضها ، وحاولت أن أعبر عنها بالكناية والإيماء والإشارة ، فوجدتها أفظع من أن يعرض لها فى حديث يسمعه من أريد ومن لا أريد ، فمن شاء الوصول إليها فإن بعضها فى (مطمح الأنفس) للفتح بن خاقان الوزير .

وأما مواقفه ، فهاكم صوراً سريعة لطائفة منها ، لا أستقصى فى الرواية ولا أستوفى التصوير ؛ لأن ذلك كثير ، والوقت قصير .

نحن الآن فى الأندلس جنة الأرض ، فى قرطبة عاصمة الدنيا ، فى العصر الذى لم تعرف الأندلس ، فى جاهليتها الأولى ، ثم فى إسلامها أمس ، ثم فى نصرانيتها اليوم ، عصراً أزهى منه ولا أبهى ، ولا أكرم ولا أعظم ، عصر الملك الكبير ، أعظم ملوك الإسلام فى عصره ، أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ، بانى الزهراء .

لقد جُمعت الدنيا بعظمتها وبهائها فى الأندلس ، وجمعت الأندلس فى قرطبة ، وجمعت قرطبة ذلك اليوم فى القصر ، الذى ألبس من روعة البناء ،

وجلال الفرش ، وعظمة السلطان ما لا يصفه قلم ، وأعد لاستقبال وفد قيصر ، الذى قدم من القسطنطينية يريق على عتبة الناصر ولاءه ويلتمس تأييده .

وتطلعت نفوس الخطباء إلى الكلام فى هذا المقام ، وتمنى كل عالم وخطيب ، أن يشير إليه الخليفة بالرد على خطبة رئيس الوفد ، فلم ينل ذلك واحد منهم ، وناله الإمام أبو على القالى البغدادى ضيف الأندلس ، ومؤلف الأمالى .

وقام أبو على ليتكلم فارتُجَّ عليه ، وانقطع فما قدر على كلمة ، وكاد يضطرب الأمر ، وإذا بشاب يقوم من بين العلماء ، فيقف على المنبر ، دون القالى بدرجة ، ويرتجل خطبة ، لم يسمع الناس مثلها ، هز فيها القلوب ولعب بالعواطف ، وملك المشاعر ، وجاء بشىء عجب ، نبه الخليفة إلى مكانه ، فسأل ابنه الحكم عنه ، فقال : هذا منذر بن سعيد البلوطى ، قال : لأرفعن منه فإنه لذلك أهل . فولَّاه القضاء ، وخطابة المسجد الجامع ، ثم لما بنى مدينة الزهراء ، أعجوبة الفن المعمارى التى لم يبن مثلها ملك ولا أمير ، والتى لو بقيت لكانت الحمراء إلى جنبها كوخاً من الأكواخ ، ولما أكمل مسجدها ولاه خطابته .

وكان الخليفة قد استغرق ، فى الإشراف على بنائها ، حتى قالوا : إنه أضاع صلاة الجمعة مرة ، وبنى فيها قاعة جعل قرامدها من الذهب والفضة ، وغرم فيها ما لا يوصف ، وحشد الناس لافتتاحها الرسمى ، وجعل ابتداء حفلات الافتتاح بصلاة الجمعة ، وكان الخطيب منذر بن سعيد فصعد المنبر فبدأ الخطبة بداية عجيبة ، بقوله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١)

واتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء 128 ـ 135] .

ووصل ذلك بكلام جزل ، وقول فصل ، ذم فيه السرف والترف ، وإضاعة أموال الأمة فى زخرفة القصور ، ووصله بقوله ودموعه تنحدر من لحيته :

والله يا أمير المؤمنين ، ما ظننت أن الشيطان ـ أخزاه الله ـ يتمكن منك هذا التمكن ، حتى أنزلك منازل الكافرين ، فجعلت قوامد بيتك من الذهب والفضة ، والله تعالى يقول : ﴿ **وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف : 33 ـ 35] .

ووصله بقوله تعالى : ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَ[انْهَا]رَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة : 108 : 110] .

وما زال فى مثل هذا ، حتى نسى الناس الخليفة ونسوا الاحتفال ، وصغت القلوب إلى الله ، وصفت النفوس لله ، وارتج المسجد بالبكاء .

فلما قضيت الصلاة انصرف الخليفة مغضبا ، وقال لابنه : أرأيت جرأته علينا ، والله . . .

ماذا ترونه يا سادة فاعلاً معه ، إنه لم يفعل إلا أن قال :

. . . والله لا صليت خلفه الجمعة أبداً .

قال له ابنه الحكم ، وما يمنعك من عزله ؟ فرجع الخليفة إلى نفسه وقال : ويحك أمثل منذر بن سعيد في فضله وورعه وعلمه ـ لا أمّ لك ـ يعزل في إرضاء نفس ناكبة عن سبيل الرشد ؟ إني لأستحى من الله أن أجعل بيني وبينه إماماً غيره ، ولكنّه قسم سبق [1] .

وأمر بنقض الذهب والفضة من القصر .

***

وهاكم موقفاً آخر من مواقفه مع الناصر .

أراد الناصر أن يبنى قصراً لإحدى نسائه ، وكان بجوار المكان دار صغيرة وحمام لأيتام تحت ولاية القاضي ، فطلب شراءه ، فقالوا : إنه لا يباع إلا بإذن القاضي ، فسأله بيعه فقال : لا ، إلا بإحدى ثلاث : حاجة الأيتام ، أو وهن البناء ، أو غبطة الثمن .

فأرسل الخليفة خبراء قدروهما بثمن لم يعجب القاضي ، فأباه ، وأظهر الخليفة العدول عنهما والزهد فيهما ، وخاف القاضي أن يأخذهما جبراً ، فأمر بهدم الدار والحمام ، وباع الأنقاض ، بأكثر مما قدر الخبراء [2] . وعز ذلك على الخليفة وقال له : وما دعاك إلى ذلك ؟

قال : أخذت بقوله تعالى : ﴿ **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً** ﴾ [الكهف : 79] .

لقد بعت الأنقاض بأكثر مما قدرت للدار والحمام ، وبقيت للأيتام

---

(1) السنة أن يكفّر عن يمينه ويفعل ما هو خير ، والله يقول : ﴿ **وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا** ﴾ [البقرة : 224] أى لا تجعلوا القسم عرضة أى معترضاً طريقكم إلى ما هو أبر وأرضى لله ، والحديث الصحيح صريح فى هذا .

(2) ويظهر أن الخبراء الرسميين هكذا دائماً .

الأرض، فالآن اشترها بما تراه لها من الثمن .

قال الخليفة : أنا أولى أن أنقاد إلى الحق . فجزاك الله عنا وعن أمتك خيراً.

* * *

يا أيها السادة : إذا أردتم أن تعرفوا من أين جاءته هذه الهيبة فى الصدور ، وهذه الجلالة فى النفوس ، وهذه المنزلة عند الخليفة والناس ، فاعلموا أنها ما جاءت إلا من إخلاصه لله ، وخوفه منه ، وعبادته لله ، واتصاله به . إن من خاف الله خافه كل شىء ، ومن كان مع الله جعل الخلق كلهم معه ، ومن أطاب مطعمه ومشربه استجاب الله دعاءه .

قحط الناس فى أواخر مدة الناصر ، فأمر القاضى منذر بن سعيد بالخروج إلى الاستقساء فتأهب لذلك واستعد ، وصام بين يديه (أى قبله) ثلاثة أيام ، واستغفر الله من ذنبه ، وأحصى حقوق الناس عليه فردها أو سألهم السماح بها، وخرج وخرج معه الناس جميعاً ، رجالاً ونساءً وولداناً .

وقال لصديق له من خواص الخليفة وهو خارج : اذهب فانظر ما يصنع أمير المؤمنين ؟ .

فعاد يقول : ما رأيناه قط أخشع منه فى يومنا هذا ، إنه لمنتبذ (منفرد) حائر لابس أخشن الثياب ، مفترش التراب ، قد رمى منه على رأسه وعلى لحيته ، يبكى ويستغفر ويقول : يا رب هذه ناصيتى بين يديك ، فإن أذنبت أتراك تعذب الرعية بذنبى ، وأنت أحكم الحاكمين ، وأنت قادر علىّ لن يفوتك شىء منى .

فتهلل وجه القاضى ، وقال لغلامه :

اذهب فاحمل المْطَرَ (المشمع) فقد أذن الله بالسقيا ، إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبارَ السماء .

وقام يدعو ، والناس يضجون بالدعاء والتوبة والاستغفار ، فما انصرف حتى امتلأت السماء بالغيوم وبلل الناس المطر .

هكذا كان قضاة المسلمين ، لم يكونوا مثلى .

اللهمّ بيدك قلوب العباد ، وأنت على كل شيء قدير ، اللهم اسلك بنا سبيلهم ، وألهمنا الاستنان بهم ، واجعلنا برحمتك من قضاة الجنة لا من قضاة النار .

وارحم منذر بن سعيد ، وكل من اتَّخذ الحق شعاراً ، وأقام للدين مناراً ، إنك أنت أرحم الراحمين .

***

الملكُ الصَّالِحُ

وهذه سيرة عظيم آخر لا تعرفونه ، وما أكثر من لا تعرفون من عظماء الإسلام ، ملك آخر كان فى سيرته وأعماله مثلاً مضروباً لما ينبغى أن يكون عليه الملك المسلم ، حلقة من هذه السلسلة الذهبية التى ضمت حلقاتها سير أبى بكر وعمر ، وعثمان وعلى ، وابن عبد العزيز ، ونور الدين وصلاح الدين ، وأورنك زيب ، هو الملك الحليم مظفر بن محمود ، من ملوك أحمد آباد فى الهند .

وكانت أحمد آباد حاضرة الهند ، ومدينة المدائن ، فاقت البلدان ببساتينها وحدائقها ، وحسن نظامها ، وعظيم عمرانها ، وفاقتها بأمنها وسلامها ، وإقامة العدل فيها ، وفاقتها بكثرة علمائها ومحدثيها ، والصالحين من أهلها .

ولد يوم الخميس 20 شوال سنة 875 هـ فى الكجرات ، ونشأ نشأة عالم عابد ، فى أسرة أكثر ملوكها صالحون متعبدون ، وقرأ ما كان معروفاً من كتب العلم ، وبرع فى الحديث ، وكان قد تلقاه عن المحدث جمال الدين المبارك الحميرى الحضرمى ، ومجد الدين الإيجى ، وشارك فى العلوم والفنون كلها حتى الموسيقى ، وكان خطاطاً جيد الخط ، يتقن النسخ والثلث وخط الرقاع المعروف اليوم بالرقعى . وكان يكتب المصحف بيده ويبعث به إلى الحرمين وحفظ القرآن فى شبابه .

ومارس السيف والرمح والرمى ، والفروسية والمصارعة ، وأتقن الفنون الحربية ، وكانت نشأته صورة عن نشأة أورنك زيب التى حدَّثتكم عنها ، أو أن تلك على الصحيح صورة عن هذى ، لأنَّ أورنك زيب جاء بعده بأكثر من قرن

ونصف القرن .

وكذلك ترون أن فى الهند المسلمة ، التى تجهلون تاريخها ـ كما كنت أجهله قبل أن أرحل إليها ـ ملوكاً فى ثياب فقهاء وعلماء ومحدثين ، رجالاً جمعوا الدنيا والدين ، والعلم و العمل ، ونحن لا نكاد نجد فى تاريخ بلادنا ، بعد عمر بن عبد العزيز ـ الذى كان العلماء أمامه تلامذة ـ إلا قليلاً ممن جمع العلم والسلطان الذى سخَّره للعمل بهذا العلم .

وكان أسلافه كلهم على هذا الطريق ولكنه فاق أسلافه .

ولى الملك 3 رمضان سنة 917 وهو فى الثانية بعد الأربعين ، وحكم إلى أن توفى فى 2 جمادى الأولى 932 ، فكانت مدَّة سلطانه خمس عشرة سنة ، مرت على الناس مما رأوا فيها من عدله وسخائه ، وحزمه وتقواه ، وكأنَّها خمسة عشر يوماً .

وكان يتبع السنَّة ، ويعمل بما حفظ من الأحاديث الصحيحة ، فى كل صغيرة وكبيرة ، من أمور نفسه وأهله وأمور الرعية ، ويدنى العلماء ويصحبهم ويكرمهم ويرجع إليهم ، ولم يكن يحسن الظن بمشايخ الطرق ، ثم مال إليهم بعض الميل فى أواخر أيامه ، وكان يخاف الله ، ويخشى أن يكون قد جانب الشرع ، وكان كثير الإنفاق فى الخير ، فسأل العلامة خرم خان وكانت له ثقة به ، وقال له : لقد نظرت فيما أنفقه فإذا أنا بين إفراط فى صرف هذا المال ، وهو مال المسلمين ، وتفريط فى منعه ، فإذا سألنى ربى عن ذلك فبماذا أجيب؟

خبرونى يا سادة ، كم من العلماء والزهاد والصالحين ، من يفكر فى مثل هذا الذى كان يفكر فيه ويسأل عنه هذا الملك ؟

وكان يحافظ على الوضوء أبداً ، وعلى صلاة الجماعة ولم يقرب الخمر

قط ، ولم يقع لسانه قط فى عرض أحد ، وكان يعفو ويسامح ، ويعطى ويجتنب الإسراف والتبذير . وكان مطلعاً على أخبار الناس ، يقوم بما دق وجل من شؤون الملك بنفسه . وربما غير زيه ، وخرج من القصر ليلاً ونهاراً ، يخالط الناس وهم لا يعرفونه ، ويسمع ويزى ويطلع على ما يسيئون فيه ، وما يشكون منه ، وكان يحيط الممالك المجاورة له ، لا سيما الهندية المجوسية ، بشباك من جواسيسه وعيونه ، فلا تخفى عنه خافية من أمورهم

وكان فى الحرب قائداً عبقرياً ، وإن لم يكن يميل إلى خوض الحروب ، ولما استنجد به السلطان محمود الخلجى ، وجاءه مستجيراً به ، وقد غلبه المجوس على دياره ، واحتلوا عاصمته وفيها أهله وأمواله ، وخرج ينجده بجيش ضخم فخدعه العدو ، وعرض عليه تسليم القلعة وماطله حتى جاءه القائد الهندى الأشهر (رانكا سانكا) منجداً ، وكاد السلطان يسقط بين حجرى الرحى ، ويحيط به العدو من الجانبين ، فإذا هو بحيلة حربية بارعة ، وشجاعة نادرة ، يفتح القلعة ، ويدحر الجيشين المعاديين ، ويكون له النصر الأبلج .

ولما وصل إلى بابها ، لم يدخلها بل التفت إلى السلطان الخلجى وهنأه بالفتح ، وقال : باسم الله ، ادخلوها بسلام آمنين . وعطف عنان فرسه راجعاً، ولكن الخلجى لم يدعه حتى أدخله قبله ، وقدم إليه أولاده الذين استُنقذوا به من الأسر ، وأراه آثار آبائه ، ومعالم بلاده ، ثم دعا وجوه مملكته ، وقواد جيشه ، وقال للسلطان المظفر على ملأ منهم جميعاً : الحمد لله الذى أرانى بهمتك ما كنت أتمناه ، ولم يبق لى الآن أرب بالملك وأنت أحق به منى .

قال المظفر : إن أول خطوة خطوتها إلى هذه الجهة كانت لله ، لا لقصد الملك ، والله يبارك لك فى ملكك على أن تقيم فيه حكم الله ، وتحكم

بشرعه، وأن نكون يداً واحدة فى كل أمر . قال الخلجى : لقد خلا ملكى من الرجال ، وليس لدى جيش يحميه ولا آمن عودة العدو . قال المظفر : أما هذه فنعم ، وترك عنده قائده آصف خان باثنى عشر ألفاً ، وقال لهم : إن جرايتكم على حالها ، ورواتبكم ونفقاتكم كلها علىّ كما كانت من قبل ، وما أعطاكم الخلجى من شىء فهو توسعة عليكم . وأمر للخلجى بخزانة مال .

. ولما هم بالرحيل سأله أركان دولته أن يستأثر بالقلعة ، ويضمها إلى ملكه، فالتفت إلى الخلجى ، وقال له : احفظ باب القلعة برجالك ولا تدع أحداً يدخلها بعد نزولى ، ولو كان من أصحابى وأولادى .

وأخذه الخلجى ، قبل الوداع إلى دار مغلقة ففتحها له ، فبرز منها نساء ما رأت العين مثلهن ، فنثرن الزهر والجوهر على قدميه ، فغضّ بصره وأشار إليهن أن يحتجبن ، لأن النظر إلى الأجنبية حرام . قال الخلجى : كلهن ملكى وأنا مالُكَ والعبد وما ملك لمولاه . فدعا له ، وخرج ولم ينظر إلى واحدة منهن .

والعجيب حقاً فى القصة المملوءة بالعجائب ، أن الخلجى هذا وآباؤه كانوا أعداء دولة الكجرات وألد خصومها ، وأعجب منه أنّ والد الخلجى هذا، المسمى غياث الدين الخلجى ، كان قد خرج إلى الكجرات لنصرة كفار الهند على ملوكها المسلمين ! .

❊ ❊ ❊

وكان من دأب الملوك المسلمين ـ يا سادة ـ إذا عنوا ببلادهم ، وأصلحوا أمرها ، أن يعنوا بالبلد الذى هو بلد كل مسلم ، بالحرمين ، فيقفوا عليهما الأوقاف ، ويرسلوا إليهما المدد ، وكانت إمدادات المظفر لأهل الحرمين متصلة، وقد صنع مركباً شحنه بأثمن القماش وأرسله هدية هو وما فيه إلى

جدة ، وبنى بمكة رباطاً فيه مدرسة وسبيل ومساكن ، ووقف عليه وقفاً كبيراً ، وكانت له فى كل موسم صلات ضخمة يبعث بها إليهم

***

وكان خبر موته خبراً عجيباً ، يدل على حسن الخاتمة ، وعلى أنه ـ إن شاء الله ـ من أهل الجنة ، وأنا أروى الخبر ، كما جاء فى كتاب (نزهة الخواطر) للعلامة الطبيب الحاذق مؤرخ الهند المسلمة عبد الحى الحسنى ، والد الصديق الجليل الأستاذ أبى الحسن الندوى نقلاً عن الآصفى . قال :

قال الآصفى : وفى سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة ، خرج السلطان إلى مصلى العيد للاستسقاء ، وتصدق وتفقد ذوى الحاجة على طبقاتهم ، وسألهم الدعاء ، ثمَّ تقدم للصلاة ، وكان آخر ما دعا به أن قال : اللهم إنى عبدك ولا أملك لنفسى شيئاً ، فإن تك ذنوبى حبست القطر فها ناصيتى بيدك فأغثنا يا أرحم الراحمين . قال هذا ووضع جبهته على الأرض ، واستمر ساجداً ، يكرر قوله : يا أرحم الراحمين ، فما رفع رأسه إلا وقد هاجت ريح ، ونشأت سحابة ببرق ورعد ومطر ، ثمَّ سجد لله شكراً ، ورجع من صلاته بدعاء الخلق له ، وهو يتصدق وينفح بيده بالمال يميناً وشمالاً .

وبعد الاستسقاء بقليل اعتراه الكسل ، ثم ضعف المعدة . . . . وفى خلال ذلك عقد مجلساً ، حافلاً بسادة الأمة ، ومشايخ الدين ، واجتمع بهم ، وتذاكروا فيما يصلح بلاغاً للآخرة ، إلى أن تسلسل الحديث فى رحمة الله سبحانه ، وما اقتضاه منُّه وإحسانه ، فأخذ يشرح ما من الله عليه به من حسنة ونعمة ، ويعترف بعجز شكرها ، إلى أن قال : وما من حديث رويته عن أستاذى المسند العالى مجد الدين ، بروايته له عن مشايخه ، إلا وأحفظه وأسنده ، وأعرف لراويه نسبته وثقته ، وأوائل حاله ، إلى وفاته ، وما من آية

إلا ومنّ الله عليّ بحفظها ، وفهم تأويلها ، وأسباب نزولها ، وعلم قراءتها ، وأما الفقه فأستحضر منه ما أرجو به مفهوم من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، ولى مدة أشهر أصرف وقتى باستعمال ما عليه صالحوا الصوفية ، وأشتغل بما سنه المشايخ الواقفون على حدود الشرع منهم ، لتزكية الأنفاس عملاً بما قيل : من تشبه بقوم فهو منهم ، وكنت شرعت بقراءة معالم التنزيل ، وقد قاربت إتمامه إلا أنى أرجو أن أختمه فى الجنة إن شاء الله تعالى ، فلا تنسونى من صالح دعائكم ، فإنى أجد أعضائى فقدت قواها ، فدعا له الحاضرون بالبركة فى العمر .

قال : وفى سنة 932 عند خروجه من جانبانير ظهرت منه مخايل المستودع بفراق الأبد لها ولأهلها ، وأكثر من أعمال البر فيها ، وفى طريقه إلى أحمد آباد ، ولما نزل بها كان يكثر من الخير بها .

وفى أواخر أيامه وكان يوم الجمعة ، قام إلى القصر واضطجع إلى أن زالت الشمس ، فاستدعى بالماء وتوضأ وصلى ركعتى الوضوء ، وقام من مصلاه إلى بيت الحُرم ، واجتمعت النسوة عليه ، آيسات باكيات يندبن أنفسهن حزناً على فراق لا اجتماع بعده ، فأمرهن بالصبر المؤذن بالأجر ، وفرق عليهن مالاً ، ثم ودعهن واستودعهن الله سبحانه ، وخرج وجلس ساعة ، ثم استدنى منه راجه محمد حسين المخاطب (أى المدعو) بأشجع الملك ، وقال له : قد رفع الله قدرك بالعلم ، أريد أن تحضر وفاتى وتقرأ عليّ سورة ياسين وتغسلنى بيدك ، وتسامحنى فيه ، فأثنى عليه بما هو أهله وفدَّاه ودعا له ، وسمع أذاناً فقال : أهو فى الوقت ؟ فأجاب أسد الملك : هذا أذان الاستدعاء لاستعداد صلاة الجمعة ويكون فى الهند عادة قبل الوقت ، فقال : أما صلاة الظهر فأصليها عندكم ، وأما صلاة العصر فعند ربى فى الجنة إن شاء الله تعالى ، ثمَّ أذن

للحاضرين فى صلاة الجمعة ، وطلب مصلاَّة، وصلَّى ودعا الله سبحانه ، بوجه مقبل عليه ، وقلب منيب إليه ، دعاء من هو مفارق للقصر ، مشر ف على القبر ، ثمَّ كان آخر دعائه : رَبِّ قد آتيتَنى من المُلك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدُّنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين . و قام من مصلاه وهو يقول: استودعكم الله ، واضطجع على سريره وهو مجتمع الحواس ، ووجهه إلى القبلة وقال : لا إله إلا الله محمَّد رسول الله . وفاضت روحه والخطيب على المنبر يدعو له .

رحمه الله وأوسع له فى دار النعيم المقيم .

***

العالم العامل

نحن اليوم مع علم من الأعلام الشوامخ ، وإمام من الأئمة الكبار ، ونادرة من نوادر الزمان ، مع رجل ملأ فى زمانه القلوب والعيون والأسماع ، ولا يزال وقد مرّ عليه ثلاثة عشر قرنا يملأ الأسماع والعيون والقلوب . مع رجل كان فى الورع والتقوى آية ظاهرة ، وكان فى العلم بحرًا زاخراً ، وكان فى الفصاحة والبيان علماً مفرداً ، وكان أعظم وعاظ الإسلام فى تاريخه كله ، هو سيد التابعين ، الحسن البصرى .

وكان الوعاظ يُدْعون القصاص ، وكان أكثرهم ممن يتخذ الدين حرفة والتقوى صناعة ، يأكلون بها الدنيا ، ويجمعون بها المال ، يمخرقون على العامة باللفظ الجميل ، والمظهر الخداع ، والخشوع الكاذب ، يتكلمون من ألسنتهم لا من قلوبهم ، لذلك منع أمير المؤمنين على بن أبى طالب القصاص من دخول المسجد فى البصرة ولم يستثن إلا الحسن البصرى ؛ لأنه كان يقول الحق ، ويروى الحديث الصحيح ، لا يسرد الإسرائيليات و لا ينقل الموضوعات ؛ ولأنه كان يتكلم من قلبه ، يزهد الناس فى الدنيا وهو أول الزاهدين فيها ، لا يزهدهم فيها ، ليخالفهم إليها ويزاحمهم عليها ، ولا يأخذ منهم أجراً ، ولا يقبل منهم هدية ، ولا يتخذ جاهه وسيلة إلى الحظوة عند الملوك، والقرب من السلاطين .

وكان الحسن نفسه حرباً على هؤلاء القصاص من علماء السوء ، الذين

يدعون للآخرة ويطلبون الدنيا ، ولقد قال فيهم كلمة الحق التى أثرت وحفظت :

دخل المسجد مرة ومعه فرقد ، فقعد إلى جنب حلقة ، فأنصت يستمع حديث أهلها وهم يتكلمون فى الدين والزهد ، ثم أقبل على فرقد فقال : يا فرقد ، والله ما هؤلاء إلا قوم ملُّوا العبادة ، وصعب عليهم العمل ، وقل ورعهم ، فوجدوا الكلام أهون عليهم فتكلموا !

* * *

هو الحسن بن يسار البصرى ، وكان أبوه فى الأصل عبداً مملوكاً من سبى ميسان ، وكانت أمه كذلك ، ولكن الله أراد لهما ولذريتهما الخير ، وإذا أراد الله الخير لأحد ، هيأ له أسبابه ، فصار أبوه مولى زيد بن ثابت أحد أئمة الصحابة وعلماء الصدر الأول ، وصارت أمه خيرة مولاة لأم المؤمنين وزوجة الرسول ـ ﷺ ـ أم سلمة ، وكان من تمام حظه أن أمه كانت تغيب فيبكى فتعطيه أم سلمة ثديها ، فربما در عليه اللبن من حنانها ، فهل فى التكرمة أكثر من أن يلتقم ثدى أم المؤمنين زوجة الرسول ـ ﷺ ـ ؟ !

وعاش بين الصحابة ، فأقبل على العلم ، ونشأ على التقوى ، وكان من الفصاحة والبيان فى منزلة قل من بلغها من الأدباء . وقلّما قرأت كلاماً أكمل ولا أجمل ولا أنبل من كلامه ، ولقد شبهوه من قديم بكلام الأنبياء ، وشهد له شيخ العربية وإمام أئمتها أبو عمرو بن العلاء ، بأنه كان هو والحجاج أفصح الناس ، قيل له : فأيهما كان أفصح ؟ قال : الحسن .

والعـجب إن مناهج الأدب فى المدارس لم تعن بدراسة هذا النمط من الكلام العالى المطبوع ، وإنما اشتغلت بالمتكلف المصنوع الذى خلفه أمثال ابن العميد والصاحب (ابن عباد) من صفافى الكلام الخالى من الروح ، الفارغ من المعنى ، وتركت مثل ابن السماك الذى لاأكاد أعرف كلاماً أحلى وأبلغ من كلامه ، والعتابى وابن الجوزى فى بعض كلامه فى صيد الخاطر[1] ، وتوقيعات بلغاء الخلفاء ، وكتابات أدباء العلماء . .

وهاكم طائفة من كلام الحسن البصرى ، لتروا لوناً من ألوان البلاغة المطبوعة فى كلام ملىء بالدين والعلم ، والنظر السديد ، والرأى الصائب لا كمثل رسائل الصاحب فى سخفها ورقاعتها وتكلفتها ومجانبتها سبيل البلاغة الواضحة . . .

هذه كلمة له فيها من المعانى ما يشرح فى كتاب ويصلح منهجاً للحياة الخلقية الكاملة ، ونتيجة لدراسة نفسية شاملة فى أقصر لفظ ، وأوضحه وأجمعه للمعانى ، حتى لكأنها من جوامع الكلم .

سئل عن الرجل الكامل الرجولة ، والبطل الظاهر البطولة ، فقال : هو من يملك نفسه عند الرغبة والرهبة ، وعند الشهوة ، وعند الغضب .

وانظروا إلى تعريفه الإنسان فى قصر عمره ، وأنه يضيعه بغفلته وجهله قال : ابن آدم ، إنما أنت أيام ، كلما ذهب يوم ذهب بعضك . وانظروا إلى هاتين الصورتين البيانيتين ، يرسمهما هذا العبقرى البين ، بألفاظ معدوده ، كما يرسم المصور اللوحة المعبرة ، بالخطوط القليلة . صورة فى وصف أهل

(1) حققه أخى ناجى وكتبت له مقدمة طويلة وعلقت عليه .

الخير والكمال من صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ وصورة لعلماء السوء الذين يتخذون مظهر الدين وزى التقى سلمًا لنيل الأموال والحظوة عند الأمراء .

أما الأولى فقد قال له بعض القوم : أخبرنا عن صفة أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فبكى ، وقال : ظهرت منهم علامات الخير فى السيماء والسمت ، والهدى والصدق ، وخشونة ملابسهم بالاقتصاد ، وممشاهم بالتواضع ومنطقهم بالعمل ، ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق ، وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى ، واستقادتهم للحق فيما أحبوا وكرهوا ، وإعطائهم الحق من أنفسهم ، ظمئت هواجرهم ، ونحلت أجسامهم ، واستخفوا بسخط المخلوقين لرضا الخالق . لم يفرطوا فى غضب ، ولم يحيفوا فى جور ، ولم يجاوزوا حكم الله فى القرآن ؛ شغلوا الألسن بالذكر ، بذلوا لله دماءهم حين استنصرهم ، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم ، ولم يمنعهم خوفهم من المخلوقين من إنفاذ حكم الخالق . حـ ت أخلاقهم ، وهانت مؤنتهم ، وكفاهم اليسير من دنياهم إلى آخرتهم .

وأما الثانية ، فإنه مر بباب الأمير ابن هبيرة فإذا هو بالقراء على الباب ، فقال : ما يجلسكم ها هنا ؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء؟ أما والله ما مجالسهم بمجالس الأبرار ، تفرقوا فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم ، قد شمرتم ثيابكم ، وجززتم شعوركم ، فضحتم القراء فضحكم الله ؛ أما والله لو زهدتم فيما عندهم ، لرغبوا فيما عندكم ، لكنكم رغبتم فيما عندهم ، فزهدوا فيما عندكم .

ووصف الصالحين فقال : إن لله عز وجل عباداً كمن رأى أهل الجنة فى

الجنة خالدين ، وكمن رأى أهل النار فى النار خالدين ، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، حوائجهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة ، صبروا أياماً قصاراً تعقب راحة طويلة ، أما الليل فصافَّة أقدامهم ، تسيل دموعهم على خدودهم ، يجأرون إلى ربهم : ربنا ربنا ، وأما النهار فحلماء علماء ، بررة أتقياء . كأنهم القداح ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، وما بالقوم من مرض ، ويظنهم خولطوا ولقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمر عظيم .

* * *

وكان الحسن صداعاً للحق ، لا يسكت عن إنكار منكر ، ولا تمنعه منه هيبة أمير ، ولا بطش ملك ، وكان حيناً يعرض تعريضاً ، وحيناً يصرح تصريحاً فمن تعريضة بالأمراء وترفهم وسرفهم ، وصفة رسول الله ـ ﷺ ـ قوله :

لما بعث الله محمداً ـ ﷺ ـ يعرفون وجهه ، ويعرفون نسبه ، قال : هذا نبيي هذا خيارى ، خذوا من سنته وسبيله ، أما والله ما كان يغدى عليه بالجفان (الموائد) ولا يراح ، ولا يغلق دونه الأبواب ، ولا تقوم دونه الحجاب ، وكان يجلس على الأرض ، ويوضع طعامه على الأرض ، ويلبس الغليظ ، ويركب الحمار . ثم قال : ما أكثر الراغبين عن سنة نبى الله ، وما أكثر التاركين لها .

ثم راح يعرض بعلماء السوء الذين يفتون كل حاكم بما يرضيه فقال : ثم إن علوجاً فسقه ، قد أضلهم ربى ومقتهم ، زعموا أن لا بأس عليهم فيما أكلوا وشربوا ، وشادوا وزخرفوا . ويقولون : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، ويذهبون بها إلى غير ما ذهب الله بها إليه .

فى كلام طويل جليل تلقونه فى حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى[1] يقول ذلك فى مجلس وعظه الذى كان يحضره عشرة آلاف من الناس .

***

ومن صراحته أن عمر بن هبيرة لما ولى العراق، أرسل إلى الحسن والشعبى وابن سيرين ، والثلاثة من أعلام التابعين ، وأئمة المسلمين . فقال لهم : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إلىّ فى أشياء ، إن أطعته فيها أغضب الله، وإن عصيته لم آمن بطشه وغضبه ، فهل ترون لى فى متابعتى إياه فرجاً ؟ فتكلم الشعبى وابن سيرين كلاماً فيه تقية ومداراة والحسن ساكت ؛ قال له : ما تقول أنت يا أبا سعيد ؟

قال : أقول يا عمر بن هبيرة : يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ ، فيخرجك من سعة قصرك ، إلى ضيق قبرك ، يا عمر بن هبيرة إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك ، وإن تطع يزيد لا يعصمك من الله ، يا عمر بن هبيرة : لا تأمن أن ينظر إليك الله على أقبح ما تعمل فى طاعة يزيد بن عبد الملك ، نظر مقت ، فيغلق باب المغفرة دونك ، يا عمر بن هبيرة : لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة كانوا والله على الدنيا وهى مقبلة، أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهى مدبرة ، يا عمر بن هبيرة إن تكن مع الله فى طاعته يرد عنك كيد يزيد بن عبد الملك ، وإن تكن مع يزيد بن عبد الملك فى معاصيه وكلك الله إليه .

فبكى عمر حتى أخضل لحيته ، وزاد فى إكرامه على الشعبى وابن سيرين .

---

(1) والحديث الذى انفرد بروايته يكون ضعيفاً .

وكان له مع الحجاج مواقف عظام لم يسكت عنه يوماً ، ولم يكن فى العراق والمشرق لسان يستطيع أن يقول الحق عالياً فى الحجاج إلا لسان الحسن ، وسلمه الله منه بإخلاصه وابتغائه وجه الله وحده ، وكان يطلبه أبداً، واختفى منه مرة فى دار على بن جدعان سنتين ، ومرة فى بيت أبى محمد البزاز . وأدركه الشرط مرة فساقوه إلى الحجاج ، وأيقن الناس أنه قاتله ، فلما رآه قال له : أنت الحسن ؟ قال : نعم . قال : أنت القائل ما بلغنى عنك . قال: وما بلغك عنى ؟ قال : قولك : اتخذوا عباد الله خولاً وكتاب الله دخلاً، ومال الله دولاً ، يأخذون من غضب الله ، وينفقون فى سخط الله ، والحساب عند البيدر ؟ قال : نعم . قال : وتكنى بذلك عنَّا . قال : نعم . قال: ولم قلته ويلك ؟ قال : لما أخذ الله ميثاق الفقهاء فى الأزمنة كلها ليبيننه للناس ولايكتمونه .

ثم قال له : كم بينك أيها الأمير وبين آدم من أب ؟ قال : كثير . قال : أين هم ؟ فأطرق الحجاج ساعة مفكراً . ثم قال : يا جارية : الغالية (أى الطيب) فخرجت بها . فقال : ضمخوا رأس الشيخ ولحيته بالطيب . ثم قال: انصرف إلى أصحابك فنعم المؤدب أنت .

وانصرف وعاد إلى ما كان عليه ، حتى بلغه موته وهو مختف منه فى المسجد ، فسجد شكراً لله .

وبعد فإن سيرة الحسن البصرى أجل من أن يتسع لها حديث أو أحاديث ، وكيف وهو علم الأعلام ، وواعظ الإسلام ، الذى بلغ من خلود اسمه أنه إذا قيل الحسن فقط انصرف ذلك إليه وحده .

وأختم هذا الحديث بوصف خالد بن صفوان[1] إياه لما سأله عنه مسلمة بن عبد الملك [2]. قال : أخبرك عنه بعلم ، أنا جاره إلى جنبه ، وجليسه في مجلسه ، وأعلم الناس به ، وهو أشبه الناس سريرة بعلانية ، وقولاً بفعل ، إن أمر بأمر كان أعمل الناس به ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له ، رأيته مستغنياً عن الناس ، ورأيت الناس كلهم محتاجين إليه .

رحمة الله عليه ، ورضي الله عنه ، وأسأل الله أن يمن على أمة محمد ـ ﷺ ـ فيجعل فيها علماء من أمثال الحسن .

* * *

(1) كان خالد من الفصحاء المعدودين وكذلك كان الحسن وكان الحجاج .
(1) هو أنجب أولاد عبد الملك وأعقلهم .

الخليفة الكامل

يا أيها السادة : أريد منكم أن تأخذوا الأقلام بأيديكم ، وتجمعوا أذهانكم وتكتبوا كل صفة تتمنون أن يتصف بها الحاكم ، فى نفسه وفى أهله ، وفى أمانته وسياسته ، وفى لينه وشدته . . . حتى إذا اكتملت الصورة الخيالية التى صورتها أمانيكم وآمالكم ، جئتكم بحقيقة واقعة لملك من ملوكنا تعدلها وقد تزيد عليها .

حاكم كانت حياته المثال الكامل لما يمكن أن يبلغه خيال أديب قصاص ، أو أمل عالم مصلح .

خليفة كان نموذجاً من النماذج التى لا ترى إلا مرة واحدة فى القرون الطوال ، وليس من أمثاله فى تاريخ الأمم كلها إلا آحاد .

كان عالماً : العلماء الكبار تلامذة أمامه ، وكان كاتباً : الكتاب البلغاء مبتدئون لديه ، وكان دينًا دين فعل لا دين قول ، دين إخلاص وخلوة ، لا دين رياء وإعلان ، وكان يتواضع لله حتى ليكبر عنده الصغير المسكين ، ويشتد لله حتى ليذل عنده الطاغية الجبار . وكان يعيش عيش الفقر وبيده خزائن الأرض ، ويحيا حياة العفاف والحرمان ، وتحت سلطانه كل جميلة فى الدنيا .

ملك لولا أنه كان بشراً لقلت : إنه مَلَك .

***

يا سادة : لنرجع إلى الوراء ثلاثة عشر قرناً .

نحن الآن فى مرج دابق فى أوائل سنة 97 للهجرة .

ودابق قرية فى جهات حلب ، من أعمال عَزَاز[1] ، كان فيها المعسكر الأمامى للجبهة الرومانية ، وفى دابق الخليفة الشاب سليمان بن الملك ، ومعه الجيش ورجال الدولة ، وهو مرابط فيها منذ شتاءين . يمد الجيش المحاصر للقسطنطينية ، الذى يقوده أخوه مسلمة ، والمعركة لا أمل فى ربحها ، وقد فشا الضر فى جيش مسلمة ، وضعفت روح الجنود المعنوية ، ووجب فك الحصار ، وسليمان يصر عليه خلافاً لآراء الخبراء العسكريين وعقلاء القوم .

وفشت الحمى فى الجيش ، وتتابعت الوفيات ، حتى لم يجد الخليفة من الخدم واحداً صحيحاً يوضئه . وعلا المنبر يخطب ، وصوته يملأ المسجد ، فأصابته الحمى فما زال يضعف صوته ، حتى حمل إلى بيته محموماً . وعهد إلى ولده الصغير ، فحوله عن ذلك مستشاره الخاص رجاء بن حيوة وما زال به حتى رضى أن يعهد إلى الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز . فقال سليمان : نعم الرجل هو لولا أن أبناء عبد الملك لا يرضون أن تصرف الخلافة عنهم . قال : فاجعلها بعده ليزيد بن عبد الملك .

وكتب العهد على ذاك . ودعا إليه الأمراء الأمويين ، وأشراف الناس ، وأخذ بيعتهم على ما فى الكتاب مختوماً .

وجاء عمر إلى رجاء ، قال : يا رجاء إنى خشيت أن يكون قد عهد إلى وأنا والله لا أطيقها ، فخبرنى الآن وهو حى ، لأصرفها عنى ، وأنا أشكر لك

(1) ويسمونها اليوم أعزاز .

صنيعك . قال : لا والله ، لا أخبرك بشيء . فأنصرف مغضباً . وجاءه هشام، فقال : يا رجاء أخشى أن يكون قد عهد إلى غيرى ، وأنا أشكر لك وأثيبك ، فخبرنى الآن وهو حى ، حتى أحولها إلى . قال : لا والله لا أخبرك شيئاً ، فانصرف مغضباً.

ومات سليمان . وجمع رجاء الناس وفتح الكتاب فإذا هو عمر .

فضج أبناء عبد الملك ، فلما سمى يزيد بعده سكتوا ، وصعق عمر حتى ما يستطيع القيام ، وقال : والله ما سألتها الله فى سر ولا علن ، فأخذوا بكتفيه حتى أقاموه إلى المنبر . وسكت الناس . فقال : يا أيها الناس . إنى ما استؤمرت فيها ولا خيرت ، وما لى بها من حاجة ، وقد خلعت بيعتى من أعناقكم ، فبايعوا من شئتم . فضجوا وصاحوا من كل طرف :

ـ لا نريد غيرك .

فقام عند ذلك فألقى خطبة العرش [1] ، وأعلن فيها (بيانه) وسياسة حكومته ، وأنه لا يملك التشريع ؛ لأن الشارع هو الله ، ولكن له السلطة التنفيذية وحدها ، وأنه إن خالف الشريعة وجبت مخالفته ، وأن الخليفة ليس سيد الأمة ومالكها ، ولكنه أجيرها وخادمها فقال :

أما بعد ، فإنه ليس بعد نبيكم نبى ، ولا بعد القرآن كتاب ، ألا ما أحل الله فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرم الله فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا لست بشارع ولكنى منفذ ، ألا وإنى لست بمبتدع ، ولكنى متبع ، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع فى معصية الله . ألا وإنى لست بخيركم ولكنى رجل منكم غير أن الله

(1) كما تدعى اليوم .

جعلنى أثقلكم حملاً .

***

وارتجت الأرض من دبدبة الموكب الرسمى . وأعدت السرادقات الملكية ، فأبى ذلك كله وقال: ما لى ولهذه المواكب ! نَحوها وقربوا إلى بغلتى ، فركبها وسار إلى فسطاطه ، وأمر بإبطال الموكب الرسمى ، وبيع أثاث الفساطيط الملكية ورياشها وإدخالها فى بيت المال .

لما كانت البيعة يا سادة ، حسب الناس أنه أمر كالذى عرفوا من الأمور .

خليفة يمضى ، وخليفة يأتى ، ويبقى كل ما كان على ما كان .

يتبدل الرفرف الأعلى من البناء ، فماذا ينفع المقيم فى الأقبية المظلمة ، والغرف الباردة أن تتبدل رفارف البناء ؟

ولكن لم يكد يصعد الخليفة الجديد المنبر ، ويلقى خطبة العرش ، ولم يكد يصدر أمره فى دواب الموكب وأثاث الخلافة حتى أدرك الناس أنه أمر ليس كالذى عرفوا من الأمور ، وليس خليفة كالذين رأوا من الخلفاء .

وليس تبديلاً فى ذرى البناء ، ولكنها بوادر تبديل شامل ، إصلاح أساسى ، يبدأ من أسس البناء ، لا يقتصر على الزخارف والألوان ، إصلاح يبدأ من جذور الدوحة ، لا من الفروع وحدها والأغصان .

ولم يدم هذا [illegible] إذ [illegible] ما تبرق فى الجو بارقة وتختفى ، خافوا أن يكون هذا الخليفة الذى يزهد فى الملك ، ويعلن التنازل عنه ، ورد أمره للناس ، خافوا ألا يكون منه إلا رجل صالح متعبد ، ولكنه مغفل ضعيف يعجز من أول

يوم عن إدارة هذه الآلة الضخمة ، الممتدة أجزاؤها من فرنسا إلى الصين ، نعم من حدود الصين إلى أطراف فرنسا ، الآلة الهائلة التى يسمونها الدولة الأموية .

وأمسكوا بقلوبهم خشية أن يتبدد هذا الحلم الذى برقت لهم بوارقه من خطبة العرش .

ولكن الحلم يا أيها السامعون . . . إن الحلم تحقق . وصار الخيال فى تاريخنا حقيقة واقعة ! .

إن عمر بن عبد العزيز لم يذهب إلى زاوية ليقرأ الأوراد ، بل قعد من فوره يملى الكتب إلى الأطراف ويضع البرنامج للحكومة الجديدة ، وكان أول أمر أصدره ، الأمر بفك الحصار عن القسطنطينية ، ورجوع الجيش ، فرجع بعد ما قاسى الجند الإسلامى الويلات من هذا الحصار ، ثم أصدر تشكيلات سريعة (كما يقال باصطلاح اليوم) فى المناصب الكبرى ، فعزل الأمراء الظلمة الطغاة ، وكان منهم والى إفريقية يزيد بن أبى مسلم العاتى الظالم ، المتهم بحبس الناس وتعذيبهم وضربهم بلا وجه شرعى ، وأسامة بن زيد التنوخى ، رئيس المالية فى مصر ، وكان يقطع الأيدى ويشق البطون ، ويرتكب الجرائم الكبار ، وحكم عليه بالحبس سنة فى كل مركز من مراكز الدولة ، أى بالسجن المؤبد ، وعزل عمال الحجاج جميعاً ، وولى ناساً صالحين أهل مقدرة وأمانة وحزم .

وكان حرس الخليفة ، مؤلفاً من ستمائة : ثلاثمائة حرسى ، وثلاثمائة شرطى ، فنهاهم أولا عن القيام له . . ثم قال : (حسبك بالأجل حارساً) ، وأمر بحل فرقة الحرس كلها ، وأعطى الفقراء العاجزين عن العمل منهم

رواتب تسريح دائمة ، وعوض الباقين مالاً ، وكان قد مر عليه ليلتان بلا منام ، فأغفى يستريح قليلاً فدخل عليه ابنه عبد الملك وقال له : تنام ولا ترد المظالم ؟ قال يا بنى : إنما هى ساعة فإذا قمت الظهر رددتها قال : ومن لك بأن تعيش إلى الظهر ؟ . .

فنهض لرد المظالم . . .

أتدرون ما هذه المظالم ؟ . . هى الأموال الهائلة . . . والثروات العظيمة ، التى تملكها أسرته ، أخوته وحاشيته ، لقد عزم على ردها إلى أصحابها إن عرف أصحابها ، أو إلى الخزانة العامة ، وأن ينفذ على الجميع قانون (من أين لك هذا) ؟ .

وبدأ فى ذلك بنفسه ! فقد كان له عقارات ، أيام أسلافه من الخلفاء ، فرأى أنه لم يكن لهم سلطة شرعية عليها ليعطوه إياها ، وأنها من أملاك الدولة . وهذا أيها السامعون هو المقياس الصحيح للدين ، أن تبدأ بنفسك فتعظها ، قبل أن تعظ الناس وإلا فما قيمة الوعظ ، إن كان الواعظ لا يعظ نفسه أولا ؟ .

إن من أسهل شيء على الإنسان ، أن يكبر عمامته ، ويعرض لحيته ، ويوسع جبته ، ويحفظ الآيات والأحاديث والرقائق ، ثم يقعد فى المساجد فيتكلم ولا قيمة لذلك فى حساب الملكين ، ولا وزن له عند الله إذا لم يكن معه صدق وإخلاص وعمل ، إن الكلام وحده لا ينفع شيئاً ، فإن اتخذه سلماً إلى الدنيا ، وطريقاً إلى [illegible] وجعله تجارة ، حتى يصير به من أغنياء الدنيا ، فهو الخسران الأكبر . .

إن أول ما ينبغى للمؤمن حين يقرأ قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا

تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات : 22] أن يكون مصدقاً بذلك ، موقناً به ، وألا يخاف إن أقام الحق ، أن يبقى هو وأولاده بلا طعام ، فإن لم يفعل كان كاذباً ، وما كان عمر بن عبد العزيز من الكاذبين .

وأحصى أملاكه فإذا هى كلها من عطايا الخلفاء ، ولم يجد إلا عيناً فى السويداء ، كان استنبطها من عطائه ، والعطاء يا سادة : رواتب عامة ، تعطى من بيت المال للناس جميعاً ، نوع من الضمان الاجتماعى لم تصل إلى بعضه اليوم أرقى دول الغرب ، وفكر فى أولاده ، هل تكفيهم غلّة هذه العين ، وهى مائة وخمسون ديناراً فى السنة فقط !

ثم ذكر أن الرزاق هو الله ، وأن ما كان لك سوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك . فنزل عنها كلها ومزق سجلاتها .

وتوجه إلى أمراء البيت الأموى ، فجمعهم وحاول أن يعظهم ، ويخوفهم الله ، وبين لهم أن ليس لهم من الحق فى أموال الخزانة العامة أكثر مما للأعرابى فى صحرائه ، والراعى فى جبله ، والزارع فى مزرعته ، وأن ما بأيديهم من أموال جمعوها من حرام ليس لهم ، وإنما هى لله ، وأرادهم على ردها فأبوا .

ودعاهم مرة أخرى إلى وليمة أعدها لهم ، فتركهم حتى يبلغ منهم الجوع ثم قدم لهم عدساً وتمراً وبصلاً وطعامًا من طعام الفقراء فأكلوا منه حتى إذا شبعوا ، جاءهم بالطعام الطيب ، فلم يستطيعوا أن ينالوا منه .

قال : أرأيتم ؟ فلم التقحم فى النار من أجل أكلة وشربه ؟ !

فلم يستجيبوا ، فلما عجزت معهم أساليب اللين ، عمد إلى الشدة وأعلن

أنه كل من كانت له مظلمة ، أو عدا عليه أحد من هؤلاء فليتقدم بدعواه ، وألف لذلك محكمة خاصة وبدأ يجردهم من هذه الثروات ، التى أخذوها بغير وجهها ، ويردها على أصحابها ، أو على الخزانة العامة .

ووسطوا له عمة له، كان يوقرها بنو أمية لسنها وشرفها . فكلمته ، فقال لها : يا عمة ، قبض رسول الله ـ ﷺ ـ فترك الناس على نهر جار ، فولى بعده رجل ـ يريد أبا بكر ـ فلم ينتقص منه شيئاً . . ثم ولى بعده رجل ـ يعنى عمر ـ فلم ينتقض منه شيئاً . . ثم ولى رجل فشق منه ساقية صغيرة ، ثم لم يزل الناس يشقون السواقى حتى لم يبق منه شىء ، وأيم الله لأسدن السواقى حتى أعيده كما كان .

ودعا بجمر ودينار ، فألقى الدينار ، فى الجمر حتى إذا احمر ، أخذه بشىء وقربه من جلده . و قال : يا عمة أما تشفقين على ابن أخيك أن يكوى بهذا يوم القيامة ؟ . . قالت : إذن لا تدع الناس يسبونهم . قال : ومن يسبهم؟ . . إنما يطالبونهم بحقوقهم .

فخرجت فقالت : هذا ذنبكم ، لماذا زوجتم أباه بنت عمر بن الخطاب ؟ اصبروا فإنه لا يحيد . وتجرأ عليه ابن للوليد بن عبد الملك ، فكتب إليه كتاباً شديد اللهجة ، أشبه بإعلان الثورة والمبارزة بالعصيان ، فما كان من عمر ، وهو اللين المتواضع إلا أن غضب لله ، فانقلب أسداً كاسراً وقبض على ابن الوليد ، وحاكمه محاكمة سريعة عادلة ، كادت تودى به إلى سيف الجلاد ، لولا أن تاب وأناب .

وخضعوا جميعاً ، وردوا ما كان فى أيديهم من الأموال ، واكتفوا

بمرتباتهم الكثيرة التى كانوا يأخذونها من الخزانة . . ولكن عمر لم يكتف ، وأمر بقطع هذه الرواتب ، وإعطائهم عطاء أمثالهم، وأمرهم بالعمل كما يعمل الناس .

وعم الأمن ، وهمدت الثورات ، وشملت السعادة الناس . واختفت مظاهر البذخ الفاحش ومظاهر الفقر المدقع ، وصارت هذه البلاد التى تمتد من فرنسا إلى الصين ، كأنها مدرسة داخلية أو جمعية روحية ، تعيش بالحب والود والإخلاص، وكانت كتبه ومنشوراته مناهج تهذيبية إصلاحية ، فيها علم وهدى وإدارة وتنظيم .

وبعد فمن هو عمر بن عبد العزيز ، وكيف نشأ مثله فى بنى أمية . . وما كان بيت أمية بيت تقى ونسك ؟ وما سيرته فى نفسه وفى أهله ؟

سأحدثكم عن هذا كله فى مثل هذه الساعة من الجمعة المقبلة إن شاء الله[1] .

كأنى بكم تقولون وقد سمعتم حديث ابن عبد العزيز الجمعة الماضية : ومن أين لابن عبد العزيز هذه المزايا ، وهذه الخلال ، وما كان بيت أمية قط بيت زهد وورع ، ولا عرف عن أموى قط [2] أنه الناسك المتبتل ؟ .

وإنى لأرجع بكم لأجيبكم خمسين سنة أخرى . أرجع بكم إلى عهد عمر العظيم ، عمر بن الخطاب .

---

(1) كانت تذاع هذه الأحاديث بعد صلاة الجمعة فى موعد (نور وهداية) الآن ، هنا .

(2) إلا عثمان وإلا معاوية الصغير ، أى ابن يزيد بن معاوية .

كان عمر يعس ليلا (يفتش) على عادته ، فمر بخباء قوم من الأعراب فسمع امرأة تقول لابنتها : امذقي لبنك [1] قالت البنت : أما سمعت منادى عمر ينهى الناس عن ذلك ؟ قالت الأم : امذقيه ، فإنه لا يدرى بك عمر ، ولا منادى عمر . قالت : ما كنت لأطيعه فى الملأ وأعصيه فى الخلاء ، وإن كان عمر غائباً ، فإن رب عمر حاضر يسمع ويرى .

هكذا كانوا يا سادة ، كان الحاكم يرجو رضا الله ومصلحة الناس حين يأمر وحين ينهى ، وكان الناس يتقربون إلى الله بطاعة الحاكم ؛ لأنهم كانوا يرون طاعته من الدين .

قال عمر لغلامه . عَلِّم الخباء . وذهبا .

فلما كان غد ، سأل عنها فإذا هى فتاة يتيمة ، فجمع ولده ، فقال : ها هنا امرأة صالحة ، فمن يريد الزواج منكم ؟ قال ابنه عبد الله : لى زوجة . وقال الآخرون : لنا زوجات . وقال ابنه عاصم : لا زوجة لى . فزوجه بها . فكانت خير امرأة وأفضلها ، فولدت له بنتاً ، دعاها أم عاصم ، ونشأت مثل أمها نشأة خير وصلاح .

وأراد عبد العزيز بن مروان الزواج ، فقال : دلونى على امرأة صالحة . فدلوه عليها ، فتزوجها فولدت له عمر .

فعمر بن عبد العزيز ، كان ابن أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، فمن هنا جاءته هذه الأخلاق العمرية . ثم إن أباه أراد له خير ما يريد أب

(1) اخلطيه بالماء .

لولده، فسلمه إلى الإمام الحبر شيخ المسلمين عبد الله بن عمر فربى بإشرافه. فما ظنكم بمن يربيه عبد الله بن عمر، ويتولاه الأئمة الفحول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأنس السائب وعبادة ؟

ولما سافر أبوه إلى مصر واليا عليها، تركه عندهم فى المدينة، ووكل به صالح بن كيسان، فتأخر يوماً عن الصلاة، فزجره فاعتذر بأن مرجلته كانت ترجل لمته (أى تزيت شعره) فكتب بذلك إلى أبيه، فأمر بحلق شعره فحلقوه.

***

نشأ فى النعيم، وتقلب فى فرش السعة. ورأى من الدلال ما لم ير ولد ناشئ، ولم لا ؟ وأبوه والى مصر (ملك مصر) وجده مروان خليفة، وعمه عبد الملك خليفة، ولكن إذا جاء الدين، أو جاء الواجب فلا تدليل ولا ترفيه، وإنما كان يؤخذ بأشد الشدة، وأحزم الحزم، كما رأيتم فى قصة الشعر.

وما بلغ الشباب، حتى كان من صدور العلم، ومن علماء العصر، ومن الصلحاء العباد. إلا أنه كان رجل ترف ورفاهية ؛ يلبس من الثياب ما لا تلبسه الملوك، ويلقى الثوب بعد لبسة واحدة، ويمشى مشية خيلاء، عرفت به وعرف بها، حتى لقد صارت (موضة) يقلدها الشباب والصبايا وتسمى : العمرية، وكان يتخذ أغلى العطور، فإذا طلع من أول الشارع هبت من طلوعه نسمة عاطرة كأنها نسمات الروض الزاهر.

ثم زوجه عبد الملك بنته فاطمة. السيدة الأولى فى ذلك العصر، بل لعلها لم تبلغ سيدة من النبالة و (الارستقراطية) ما بلغت هذه السيدة، كان أبوها

عبد الملك خليفة ، خليفة لا أمير قرية ، ولا حاكم مدينة . كان الحاكم على ثلث المسكون من الأرض ، وكان جدها مروان خليفة ، ثم صار أخوها الوليد خليفة ، وصار أخوها سليمان خليفة ، وصار زوجها عمر خليفة ، وصار أخوها يزيد خليفة ، وصار أخوها هشام خليفة ، وصار ابنا أخيها من بعد خلفاء ، فأى سيدة فى التاريخ كان من أهل بيتها الأقربين تسعة خلفاء .

وكانت جميلة ، وكانت وفية . وكان عمر زينة الشباب شكلاً وقولاً وعملاً ، وكان ثوب النعمة سابغاً عليهما ، وكان الحب مالئاً قلبيهما . فعاشا فترة سعادة ما عاشها زوجان .

***

وولى عمر المدينة فجمع طائفة من علمائها وصلحائها ، من أساتذته ، فجعلهم مستشاريه ، وفوض إليهم رفع كل مظلمة إليه . فلا يجدون مظلوماً ولا شاكياً ولا محتاجاً إلا أبلغوه . وكان يذهب بنفسه إلى دار أستاذه عبيد الله ، فيدخله أحيانا ، وحينا يرده من الباب . وهكذا كان الأمراء فى تاريخنا مع العلماء ، وكان العلماء أهل زهد وعفاف ، فلم يكونوا يطلبون من الأمراء دنيا ولا مالاً ولا منفعة شخصية .

فلما ولى الخلافة . . وكان الناس يهتفون بشكر الله ، ويضحكون لهذه النعمة ، التى أنعم الله بها عليهم حين ولى أمرهم الرجل الصالح ، كانت المناحة فى بيت عمر .

وعجبوا وذهبوا يسألون ما الخبر ؟

ما الخبر ؟ الخبر أن عمر جمع نساءه وجواريه . فقال : إنه قد نزل بى ما شغلنى عنكن ، فمن شاءت سرحتها أو أعتقتها ومن شاءت أقامت ولكن لم يكن منى لها شيء .

وأقامت معه فاطمة .

ولقد حدثتكم عن عمر فى إدارته وفى سياسته ، وحديثى اليوم عن عمر فى نفسه وفى أسرته ، وعن هذه الزوجة الفاضلة الخيرة . لقد عاش معها عمر بعد الخلافة وكأنهما أخوان ليس بينهما إلا ما يكون بين الأخوين ، ما ذهب الحب ، ولكن ذهب فراغ الوقت ، وفراغ القلب . وملأت قلبه هموم الخلافة ، فكانت خلافته نعمة على الناس ، ونقمة على وعمر وآل عمر .

قالت فاطمة لمن سألها عنه بعد موته : والله ما علمته اغتسل من جنابة أو احتلام ، منذ استخلف حتى قبضه الله .

وأهملت هى كذلك التجميل والزينة ، حتى لامها النساء ، وواجهتها باللوم مرة إحدى نساء الأمراء فقالت لها : وهل تصنع الزوجة لزوجها إلا ما يحب ؟ قالت : نعم . قالت فاطمة : فإنه يحب هذا منى .

ولم تفقد بالخلافة الحب ومتع الزواج فقط ، بل فقدت النعمة والسعة ، ولقد سمعتم أن عمر كان قد تبرع بكل أملاكه للخزانة العامة . . ردها حين رد المظالم ؛ لأنه رأى أنه كان أخذها من الخلفاء قبله بلا حق . ولم يبق له كما سمعتم وعرفتم إلا مائة وخمسون ديناراً فى السنة . هذا مورده كله . وأسرته كبيرة ، فألزم نفسه الحياة به وحده . فكانت حياته كأنها حياة موظف أمين من المرتبة

العاشرة اليوم[1]

لم يسكن قصور الخلافة ، وإنما أقام فى داره (فى موضع السميساطية) اليوم بجوار الأموى عند باب العمارة . وما زال يبيع ما فيها من الأثاث والرياش حتى عادت قفراً ، وكان يصلح فيها بيده إن وجد فى وقته فراغاً .

ولقد جاءت امرأة مرة من أقاصى إيران لتقابل الخليفة ، فسألت عن قصره فدلوها ، فوجدت داراً عادية ليس فيها إلا خادم صغير ، فدخلت فإذا رجل يطيِّن جداراً وامرأة تناوله الطين ، قالت لها : ألا تحتجبين من هذا الطيان ؟

قالت : إنه أمير المؤمنين ! !

وكانت هذه المرأة التى رضيت أن تشتغل أجيرة طيان : فاطمة زوجة الخليفة وقريبة الخلفاء التسعة ! وكان أكثر طعامه العدس ، صبت فاطمة مرة للخادم الصغير عشاءه ، فتذمر وغضب . [illegible] : كل يوم عدس ؟ قالت : إنه طعام مولاك أمير المؤمنين ! !

وكانت تصبر راضية ، غير متألمة ولا متذمرة ، ولا تشكو بل ولا تعلن ما هى فيه إلا مضطرة ، مرض عمر ، فعاده أخوها مَسْلَمة ، فلما خرج قال لأخته : يا فاطمة اغسلى قميص أمير المؤمنين فإنه وسخ ، وهو خليفة والناس يعودونه ، فلما رجع بعد أيام وجده لم يغسل ، فأعاد القول عليها ، ورآه الثالثة ، فأغلظ لها الكلام ، فأحنت رأسها وفى عينيها دمعة ، وقالت : والله ما له قميص غيره ! !

(1) والإصطلاح فى المملكة أن المراتب يبدأ عدها من تحت ، فالمرتبة الأولى هى أدنى المراتب .

ورأى مرة بنتاً له اسمها أمينة تمر فى الدار فناداها : يا أمين . . يا أمين . . فلم تجب ، فأمر بإحضارها فإذا ثوبها مقطع . قال : لِمَ لم تردى ؟ . . فبكت وأشارت إلى ثوبها . فدعا بمولاه مزاحم ، وقال : انظر إلى تلك الفرش التى فتقناها فاقطع لها ثوباً منها .

ثوب من ملحفة عتيقة لبنت أمير المؤمنين . فهل تقبل به بنت أحد السامعين؟

ومرت به بناته يوماً ، فسددن أفواههن وأسرعن ، قال : ما لهن ؟ قالت فاطمة : لم يجدن ما يتعشين به إلا خبزاً وبصلا ، فسددن أفواههن حتى لا تشم ريحهن .

هذا عشاء بنات أمير المؤمنين فهل تقبل به بنت أحد من السامعين ؟

وجاءه مرة تفاح من بستان من أملاك الدولة ، فقعد يقسمه بين المستحقين ، فجاء طفل له يحبو ، فأخذ تفاحة فأمر بانتزاعها منه فتمسك بها وهو يبكى ، فنزعها من يده ، فذهب إلى أمه باكيا ، فأخذت درهما فاشترت به تفاحاً . . فلما جاء عمر وجد التفاح فسر به وقال : أنا والله أشتهيه وأكل منه ، وسألته عن الغلام فقال : لقد انتزعت التفاحة من يده ، وكأنى أنتزعها والله من قلبى ، ولكن كرهت أن أبيع نفسى من الله بتفاحة من فىء المسلمين .

وكان يتورع عن أقل من هذا ، طلب مرة أخرى تفاحاً ، وكانت دواب البريد قادمة فى طريقها . فحملوا التفاح عليها ، فباعه ودفع الثمن للخزانة ، مقابل أجرة الدواب . وكانت دواب البريد كالسيارات الرسمية اليوم ، فمن

من الموظفين يمتنع عن أكل كيل (كيلو) تفاح ، إذا جاؤوه به فى سيارة الدولة ، وهى فارغة وقادمة على كل حال ؟ .

وسخنوا له مرة أبريق ماء فى مطبخ العامة ؛ (لأن الخلفاء كانوا يطبخون ويطعمون الناس كل يوم) فاشترى للمطبخ حطباً فى مقابل ذلك . وجاءه مرة موظف بأوراق رسمية ، فاقتطع ورقة بمقدار إصبعين كتب فيها شيئاً له . فلما كان الغد طلب الإضبارة ، ثم ردها ، فنظر الموظف فإذا هو قد وضع فيها ورقة مكان التى أخذها .

***

أما (ديمقراطيته) ، فكانت نموذجاً كاملاً ، وكانت سجية منه لا تكلفاً . وكان يعمل صامتاً بلا دعاية ولا إعلان . وكان خارجًا إلى الصلاة فاعترضه إنسان بيده شكاة مكتوبة فى طومار (كرتونة) فرمى عمر بها فشجت وجهه وسال الدم ، فجزع الرجل وخاف ، فقضى حاجته ، وأعطاه ترضية لأنه خوفه .

وكان معه رجاء (مستشار الدولة) يدرسان أوراقاً رسمية ، فاحتاج السراج إلى إصلاح . ونادى الخادم فوجده نائماً ، فقام رجاء فمنعه ، وقال : ليس من الكرم أن يستعمل الرجل ضيفه ، وأصلحه بنفسه . قال : أتقوم وأنت أمير المؤمنين ؟ فقال : قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر .

وكانت له جارية تروّحه فى يوم حار فنامت وسال عرقها ، فقام إليها يروّحها .

ودخل المسجد مرة ليلاً ، فداس إنساناً نائماً . فقال له : أأنت حمار ؟ قال: لا ، أنا عمر . فهم به الحرسى قال : دعه ، سألنى أأنت حمار ؟ فأجبته : لا أنا عمر .

***

أعود يا سادة إلى حديث فاطمة ، لقد تخرجت من مدرسته ، وسارت على سنته ، ورضيت لنفسها بماارتضاه لنفسه ، وصبرت معه على الفقر ، وتحت أيديهما كنوز الأرض ، وصبرت على (الحرمان) وهى تعيش مع الزوج . وكان يصلى من خوف الله ، فتصلى بصلته ، ويبكى من خشية الله ، فتبكى لبكائه .

قال لها يوماً : أين نحن من ذلك النعيم الذى كنا فيه ؟ قالت : أنت اليوم أقدر عليه لو أردته . قال لها : يا فاطمة إن لى نفساً تواقة ، ما أعطيت شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه ، تمنيت الإمارة ، فلما أعطيتها تمنيت الخلافة فلما أعطيتها تمنيت . .

. . . وماذا تظنونه تمنى ، وهل شىء أكبر من الخلافة . لقد أعطى الدنيا كلها ، فهل شىء أعظم من الدنيا كلها ؟ نعم . لقد تمنى ما هو أكبر منها : الجنة .

لذلك قال : فلما أعطيت الخلافة تمنيت الجنة .

وتمنتها معه فاطمة وسمت مثل سموه إليها ، فهانت عليها الدنيا ، وكانت كراكب الطيارة إذا هى علت وضربت فى طباق الجو ، رأت البلد العظيم نقطة ،

والنهر الكبير خطاً ، والبحر كله بقعة حبر أزرق على صفحة ورق .

ولكن لا أنا - (صدقوني) - ولا أنتم نستطيع أن نتصور هذا ، إنني ألقي الحديث ، وأنتم تسمعون ، وكل منا قد ملأت ذهنه مشاغل الأرض ، ولذات العيش الصغار . إننا نعمى بها رؤية الحقيقة الكبرى . كمن يضع كفه أمام عينيه، فتسد هذه الكف الصغيرة الفضاء الأرحب . إننا اشتغلنا بمناظر الطريق عن غاية السفر وبصغائر الحياة عن غاية الحياة . فصرنا إذا قرأنا أخبار هؤلاء لم ندركها . . ولكنها عندهم حقائق كبار .

إن لـلــه عبـــاداً فطنا　　طلقوا الدنيا وعافوا الفتنا

قـد رأوها لجة فاتخــذوا　　صالح الأعمال فيها سفنا

وكان لفاطمة مجموعة حلى ، ليس لامرأة مثلها ، فقال لها يوماً : يا فاطمة إن هذه لا تحل لك، وقد أخذت من أموال الله فإما أنا وإما هى ، قالت : بل أختارك والله على أمثالها . فأخذها فوضعها فى بيت المال ، فلما مات عمر وولى أخوها يزيد ردها إليها ، فتصورت عمر أمامها ، وفاض قلبها دمعاً من عينيها ، وغلبها حبها لمرضاته على الحلى ولذتها وقيمتها . قالت : لا والله ما كنت لأعصيه بعد موته ، مالى فيها من حاجة . فقسمها بين نسائه وهى تبصر !

❊ ❊ ❊

ولا يمكن استقصاء أخبار عمر ومناقبه فى حديث ، فدعونى أختم حديثى بهذه المنقبة العمرية . . . بهذا الموقف الذى لا يقوى على مثله إلا رجل من طراز

عمر . ولقد يصبر الرجل على عضة الجوع ، وشدة الحرب ، ومعاناة الأهوال ، أما الصبر على الحب العارم ، الذى يسحر القلب ، ويسكر الجسد ، ويختصر لذات الدنيا كلها حتى تكون وصال الحبيب ، وآلام الدنيا كلها حتى تكون هجرة . الحب الجارف الذى يزلزل كيان الرجل زلزالا . فذلك شيء آخر .

ويظهر أن عمر بلى هذا الحب مرة واحدة ، أحب جارية كانت لزوجته فاطمة . وجرب الأساليب كلها لتهبها له فأبت ؛ لأن المرأة ترضى أن تضحى بكل شيء فى مرضاة زوجها إلا أن تقدم له أخرى تشاركها حبه ، وتقاسمها قلبه ، وكان يمنعه دينه أن يواصلها فى حرام . ولبث كذلك يقاسى من حبها مثل كى المكاوى ، حتى إذا ولى الخلافة ، وبلغت فاطمة من الإخلاص له والتفانى فيه ، أن ذابت رغباتها فى رغباته ، وأهواؤها فى أهوائه ، وقهرت نفسها ووقفت موقفاً لا تقفه امرأة ، فوهبتها له ، وتزينت الجارية ودخلت عليه ، وفرك عينيه فلم يعرف أهو فى يقظة أم فى منام ، ثم تنبه فى نفسه الشعور بالواجب ! فسألها لمن كانت ؟ . . وممن أخذت ؟ فلما تبين له أنها قد غصبت من أصحابها ، وأنه يجب ردها ، اصطرعت فى نفسه قوتان : قوة هذا الحب القوى العارم ، وهذه الرغبة التى صرم السنين الطوال فى انتظار تحقيقها ، وقوة الواجب الذى أخذ نفسه بإنجازه ، والمبدأ الذى أعلنه مبدأ رد المظالم .

وتردد قليلاً ثم أمر بردها إلى أصحابها .

فعاد بها أصحابها يهبونها لأمير المؤمنين . قال : لا حاجة لى فيها ، قالوا : فاشترها . قال : لست إذن ممن ينهى النفس عن الهوى .

قالت . فأين حبك لى يا أمير المؤمنين ؟ . . قال : على حاله وقد ازداد .

ولم تزل في نفسه حتى ماتت .

هذه أطراف من قصة رجل ، لو أن متخيلاً تخيل أنبل السجايا الإنسانية لما كانت إلا سجاياه . رحمه الله ورضي عنه وأرضاه . قصة حاكم لو توهم متوهم ، أكمل صفات الحكام لما كانت إلا صفاته .

* * * *

❖ الفهرس ❖

المحتويات	الصفحة

●●●●●